جون غلوب

JOHN GLUBB



مغامرات عربية

عشر سنوات من الخدمة الممتعة

صور قلمية وضعها ضابط المخابرات البريطانية ج. غلوب عن خدمته في العراق في عشرينات القرن العشرين؛ في المنطقة الغربية ومناطق الفرات الاوسط والاسفل



ترجمة
عصام عيسى علوان

مراجعة
د. مالك المطّلبي

(١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)

دار ومكتبة الأمير

بغـــداد ، ســاحة الطيران ، هاتف ٨١٦٩١٠٧

الفرع الآخر: شارع المتنبي ، هاتف ٤١٦١٩٦٣

جوال ٠٧٩٠١٧٩٧٤٣٥

E-mai: darnesher_alameer@yahoo.co.uk

رقم الإيداع : دار الكتب والوثائق ، بغداد / ١٣٧١/ لسنة ٢٠١٢

فترة الصبا

نشأ والدي في ظروفٍ صعبةٍ جدًا، فقد توفى والده بمرض الكوليرا في الهند عندما كان هو يافعًا.

في عام ١٨٧١ حصل على منحةٍ دراسية في ولنجتون، وصار طالبًا في مدرسةٍ عامة. في عام ١٩١١ حصلتُ أنا على منحةٍ دراسية في كلية (تشلتنهام) وبهذا حصلتُ على تعليم مجاني. كانت دراستي جيدة طوال السنوات الثلاث. ولكن بعض الاوقات كانت غير سعيدة، والبعض الآخر كانت ممتعة. بصورة عامة لم تكن سنيّ الدراسة هي أسعد أيام حياتي.

المدارس العامة، في تلك الايام، كانت تخدم أهدافًا حقيقية، وذلك بجعل الطلبة واثقين من انفسهم.

كانت متعتي العظيمة أيام صباي هي الجياد. كان والدي، الى حدٍ ما، هاويًا لركوب الخيل أيام شبابه، وقد ورثت أنا عنه ذلك. حين ذهبتُ الى (تشلتنهام) نُقل والدي – الذي كان ضابطًا نظاميًا في الجيش – من يورك الى المبنى الرئيس للقيادة الجنوبية في (سالسبيري). كان لديه حصانان، الاول يدعى (جو) والآخر رمادي اللون – وهو من أصل عربي – يدعى (جانبو) وكنت غالبًا ما أمتطيه.

المنطقة الريفية المحيطة (بسالسبيري) لم تكن ملائمة للصيد كما كان الحال في منطقة (يورك شاير). التلال منحدرة ومغطاة بحشائش قصيرة خالية من الحواجز ولكنها مقسمة بسياج من ألاسلاك. هذا النوع من ألارياف لم يكن يرق لوالدي الذي يحب ألاسيجة الصلبة الثابتة حيث يمكن القفز من فوقها.

في تموز ١٩١٤ وفي نهاية فصل ألصيف، ذهبتُ مع فريق من تشلتنهام للتدريب كضباط، إلتحقنا بمعسكر لعشرة ايام. أعلنت النمسا الحرب على صربيا، وخلال خمسة أيام أَعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا. أُستنفِر الجيش البريطاني، وتم استدعاء الضباط البريطانييّن النظاميين من تدريباتهم. قبل مغادرتنا خطب آمر المجموعة وقال لنا إن الجيش الألماني قد اجتاح بلجيكا، بالرغم من المعاهدة التي وقعتها ألمانيا والتي تضمن حياد بلجيكا. في هذا اليوم يجب أن يقوم كل رجل بواجبه تجاه بلده. واختتم خطابهُ القصير قائلاً، ربما سينال بعضُكم، وقبل نهاية الحرب، الشرف الذي يتمناهُ كل رجل، وهو قيادة ثلةٍ من الجيش البريطاني في المعركة.

إنفض المعسكر، وعلينا ان نجد سبيلًا للعودة الى بيوتنا بالطريقة التي نراها مناسبة. لم تعد خدمات السكك الحديد منتظمة.

القطارات الطويلة تحمل جموعًا غفيرة من الجنود. المحطات تغصُ بالجنود الّذين يندفعون نحو القطارات للالتحاق بوحداتهم العسكرية. عدتُ الى البيت في (سالسبيري) على عربة الحليب.

تسلّم أبي الأوامر ليصبح رئيس مهندسين في الجيش الثالث، كان على الجيش الأول والجيش الثاني أن يتوجها الى فرنسا أولاً وكان لدى أبي عدة أيام قبل ان يلتحق بمعسكره. كانت والدتي تتمتع بعطلة في النمسا. صار من المستحيل الاتصال بها كما هو الحال مع أوروبا كلها لان جميع الأمور كانت مضطربة. صار ابي قلقًا لأمرين، الأول هو زحف الجيش الألماني الى بلجيكا، والأمر الثاني هو سلامة والدتي. في اليوم التالي على عودتي الى البيت ذهبت الى فندق المقاطعة قرب الجسر، وهناك سمعتُ فرقة تعزف الموسيقى، وكانت هناك كتيبة من جنود المشاة في مسيرة عسكرية متوجهةً الى المحطة.

الناس على الأرصفة يصيحون مبتهجين (حظًا حسنًا). رجل أشيب الشعر كان واقفا بجانبي، رفع قبعته فوق رأسه حتى مرّ أفراد الكتيبة جميعًا. سقطت الدموع فوق خده، ربما كان جنديًا قديما ابلى بلاءًا حسنًا في حملات سابقة. لقد تأثرتُ بعمق وقررت ان اسجل اسمي كجندي، لان إعدادي كضابط سيستغرق وقتًا طويلًا وربما تكون الحرب قد انتهت.

عدتُ الى البيت وأخبرتُ والدي بأني أرغب في أن أتطوع جنديًا في الحال. أفهمني والدي بهدوء بأن ذلك سيجعل خبرتي وتدريبي يذهبان سدًى لو تطوعت كجندي. إنني سأخدم بلدي بشكل أفضل إذا صرت ضابطًا ذا خبرة، وهذا يتطلب قليلًا من الصبر.

في الليل عند ذهابي الى الفراش سمعت بعض الضوضاء في الطابق الاسفل، ثم ارتفع الصوت وصار في الصالة. إنها والدتي قد وصلت قادمة من النمسا. قامت بعبور أوروبا بشجاعة عن طريق قطار قديم ممتلئ بالجنود، ومن ثم إنحشرت في أخر سفينة تجارية عبرت القناة من مدينة كاليه الفرنسية الى ميناء دوفر البريطاني.

بعد أسبوع ذهبت مع والدي الى (ساوث هامبتون) ليذهب هو الى فرنسا مع الجيش الثالث. كان لدينا عدة ساعات ننتظر في (ساوث هامبتون). قضينا الوقت في غرفة نوم في فندق (ساوث هامبتون). كان الفندق والمحطة والميناء مكتظةً بالجنود شعرتُ بمزيج من الخوف والاكتئاب في اللحظات التي تسبق الفراق الطويل. أخيرًا كان عليّ الذهاب، السفينة لن تبحر إلا بعد حلول الظلام، لأن هناك غواصات ألمانية في القناة. " وداعًا ايها ألولد الكبير، لا تقلق، اعتنِ بوالدتك" قال والدي ذلك قبل الفراق. غادرتُ الفندق بقلب كسير.

بعد عدة ايام ذهبت الى (بور لينغتون جاردنز) وأديت الامتحان لدخول الاكاديمية

العسكرية الملكية في (وولو يتش). قبل اربعين سنة ادى والدي الامتحان هنا.

وما إن سمع والدي بنجاحي كتب لي بالرغم من انشغاله ليلًا ونهارًا بالمعركة. وصلتني رسالته بعد يوم من التحاقي في (وولو يتش). عزيزي ولدي الكبير: سوف تعلم جيدًا كم شعرت بالفرح والفخر عندما سمعت أخبار اجتيازك الامتحان، كان تسلسك الثاني، لقد غلبتني، فقد كان تسلسي الثالث. هذه رسالة شكر وسرور، ولكني أرغب في أن أضيف كلمة صغيرة واحدة. أنت ألان قريبٌ جدًا من أن تصبح ضابطًا، أنت ألآن رجل. عزيزي ابني الكبير، أنت ايضًا سيدٌ مهذبٌ وشريف، رجل انجليزي مهذب. إنك لن تكون اي شئ أفضل مما أنت فيه الآن.

لا تدع اي شئ يقلل من شأنك يا عزيزي الولد الكبير.

في التدريب على الفروسية في اكاديمية وو لويتش الملكية العسكرية كنا نمارس تمارين الركوب على الخيل، وللمرة ألآولى عند الركوب على الخيل يكون التمرين شاقًا ومؤلمًا. كان المدرّب (المستر هانس) يستعمل كلمات قاسية مثل " اجلس جيدًا .. إنك تبدو كسيدة عجوز ترتدي قبعة ليلية" أو " إذا لم تدع كعبيك للاسفل دائمًا فإنك ستغدو ليس أكثر من كرة جليدية على التل." وغالبًا ما يصرخ إذا ما أخطئ أحد من المندربين " سيدي، سوف تُحرم من الإجازة". سقط أحد الضباط التلاميذ في تمارين القفز على ألارض، فما كان من المدّرب إلا ان يأمره بإعادة التمرين مرة أخرى، ولكنه مالبث أن سقط مرة ثانية على وجهه، و مرة ثالثة وظل منكفئًا على وجهه على ألارض.

من العادات التي كان والدي يخبرني عنها في تلك الاكاديمية هو حمّام الصباح، وهو تقليد لم يتغير منذ عام ١٨٧٠. كانت هناك ساحة خلف غرف النوم وفي جانبها البعيد توجد خزانات تُملئ بالماء يوميًا منذ المساء. وما إن ينطلق بوق الصباح، حتى

يتوجب على الضباط التلاميذ أن ينهضوا ويُهرعوا وهم عارون عبر الساحة الى القفز الى خزان الماء، ثم يقفزون خارجين ويركضون الى الغرفة لتنشيف أنفسهم ثم يرتدون الملابس. في الايام الحارة من شهر تموزتكون العملية اعتيادية، ولكن في فصل الشتاء فإن طبقة من الجليد الصلب تغطي الحمّام ويتوجب على المتدربين كسرها قبل النزول الى الماء. بعد الغطس بثانية يشعر المرء بانقطاع النفس. وبعد الخروج من الماء الجليدي يجب الركض بأقدام حافية عبر الساحة المكسوّة بالجليد والعودة الى المهاجع. لم يكن هناك مراقبٌ ليراقب إن كان المتدرّب قد غطس في الماء ام لا، ولكني لم أتذكر أن أحدًا قد تهرّب من تمرين الحمام الجليدي، تلك التجربة القاسية. الحمّام الجليدي مثل الكثير من العادات التي تُمارس في المدارس العامة أو المدارس العسكرية منذ القرن التاسع عشر ليكتسب المرء قوة التحمل. إن كان هذا الموضوع صحيحًا ام خاطئًا فأن المحصلة من هذه التمارين هي إنتاج أُناس استكشفوا أو قهروا جزءًا كبيرًا من هذا العالم. طموحُهم الاول ان يكونوا رجالًا وأن يكونوا فاعلين في مهماتهم. في آخر شهرين من الدراسة في الاكاديمية العسكرية الملكية أصبحت عريفًا ومسؤولًا عن زمرة من التلاميذ العسكريين. العرفاء في ذلك الوقت يحملون سيوفًا، وبعد صلاة الاحد في الكنيسة كنا نسير في مسيرة عسكرية تمر امام آمر الاكاديمية، في حين تعزف الفرقة الموسيقية لحن (المقاتل البريطاني) أذكر حتى الآن، كيف شعرت بالنشوة والفخر وأنا أحمل السيف بيدي وأمر من أمام قاعدة التحية.

في ٢٠ نيسان عينت ملازمًا ثانيًا في سلاح الهندسة الملكي، وفي ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٥ تم نقلي الى فرنسا.

أخطارٌ في الماء

المدة التدريبية الاعتيادية للضباط الجدد في سلاح الهندسة الملكي كانت سنتين في قاعدة الهندسة الملكية في (تشاتنهام) ولكن، ونظرًا للحاجة الشديدة الى الضباط عام ١٩١٥ فقد تم تكثيف المدة ألى عدة اشهر. خدمت في فرنسا ثلاث سنوات، وقد جُرحتُ ثلاث مرات. السنوات مرت رتيبة وروتينية، أَذهب بين الحين والاخر الى بلجيكا، وهكذا حتى صيف ١٩٢٠ حين تمردت العشائر في العراق الذي كان تحت الاحتلال البريطاني. كانت هناك قطعات قليلة في العراق، وهناك حملة تسريح بعض الضباط. لذلك أَصدرت وزارة الحرب بيانا طلبت فيه ثلاثمائة وخمسين ضابطًا نظاميًا كمتطوعين للذهاب الى العراق على الفور. وجدت هذا الموضوع بالنسبة لي فرصة مثالية للخروج من الرتابة. قدمتُ طلبًا للتطوع، وقد تم قبولي.

جميع الضباط الثلاثمائة والخمسين صعدوا سفينة قديمة جدًا، يبدو أنها تُستعمل لنقل الجنود في أثناء الحرب. كانت السفينة تحتوي على صفوف من الأسِرة في عنبرها، وقد شاركنا المكان عددٌ لا يُحصى من الفئران. يمرُ فوق سريري إنبوب للبخار يبعث حرارة غير مرغوب فيها سيما ونحن في البحر الأحمر، وفي منتصف الصيف، إضافة الى الرياح الساخنة.

بعد رحلة طويلة في البحر، رست بنا السفينة في (بومباي) وانتقلنا الى سفينة أخرى أبحرت بنا الى الخليج حيث مدينة البصرة. في أثناء الصيف تهب، أحيانًا في النهار، رياح شمالية معتدلة نسبيًا، ولكنها تتوقف في الخريف فيصبح الجو ملتهبًا لا تطاق حرارته. كان هذا قبل دخول المراوح الكهربائية أو اجهزة ألتبريد، ولأول مرة

أعيشُ أيامًا قائضة. كانت تروى قصة هناك مفادها أن أحد الباشوات الأتراك عُيّن واليًا على البصرة. وصل الباشا في فصل الخريف حيث كان الجو خانقًا من شدة الحرارة وكثرة الرطوبة. إشتكى الوالي من الحر وأخذ يتذمر بصوتٍ عالٍ من شدة الحرارة التي لا تطاق. قال له السكّان " هذا الحر، برغم كل شئ، مفيد يا سعادة الوالي وهو فأل حسن بتعيينك واليًا على البصرة لان هذا الحر يؤدي الى نضوج التمر ويحين قطافه". هنا صاح الوالي بعصبية " بحق الله إقطعوا جميع النخل، كي لا نعاني الحر بعد ذلك، حين لايعود هناك تمر". بعد تحمّل الحر عدة أيام وتحت "طبّاخات التمر" سافرتُ الى بغداد. كان القطار من البصرة الى بغداد خارج الخِدمة، لأن العشائر في الفرات الأوسط ، حيث يمر القطار في أراضيهم، لا يزالون يمارسون التمرد، أصبح الطريق الوحيد الى بغداد من البصرة هو نهر دجلة. كانت الملاحة في نهر دجلة بوساطة زوارق بخارية يُربط اثنان منها بالمركب لسحبه، وبما أن النهر يجري بين ضفتين رمليتين فإن الملاحة تكون وسط النهر حيث عمق النهر بالكاد يسمح بذلك. كنا نقضي عدة ساعات بسحب المركب، وكنا ننطلق باقصى سرعة في محاولة لجعل المركب يطفو فوق الماء الطيني.

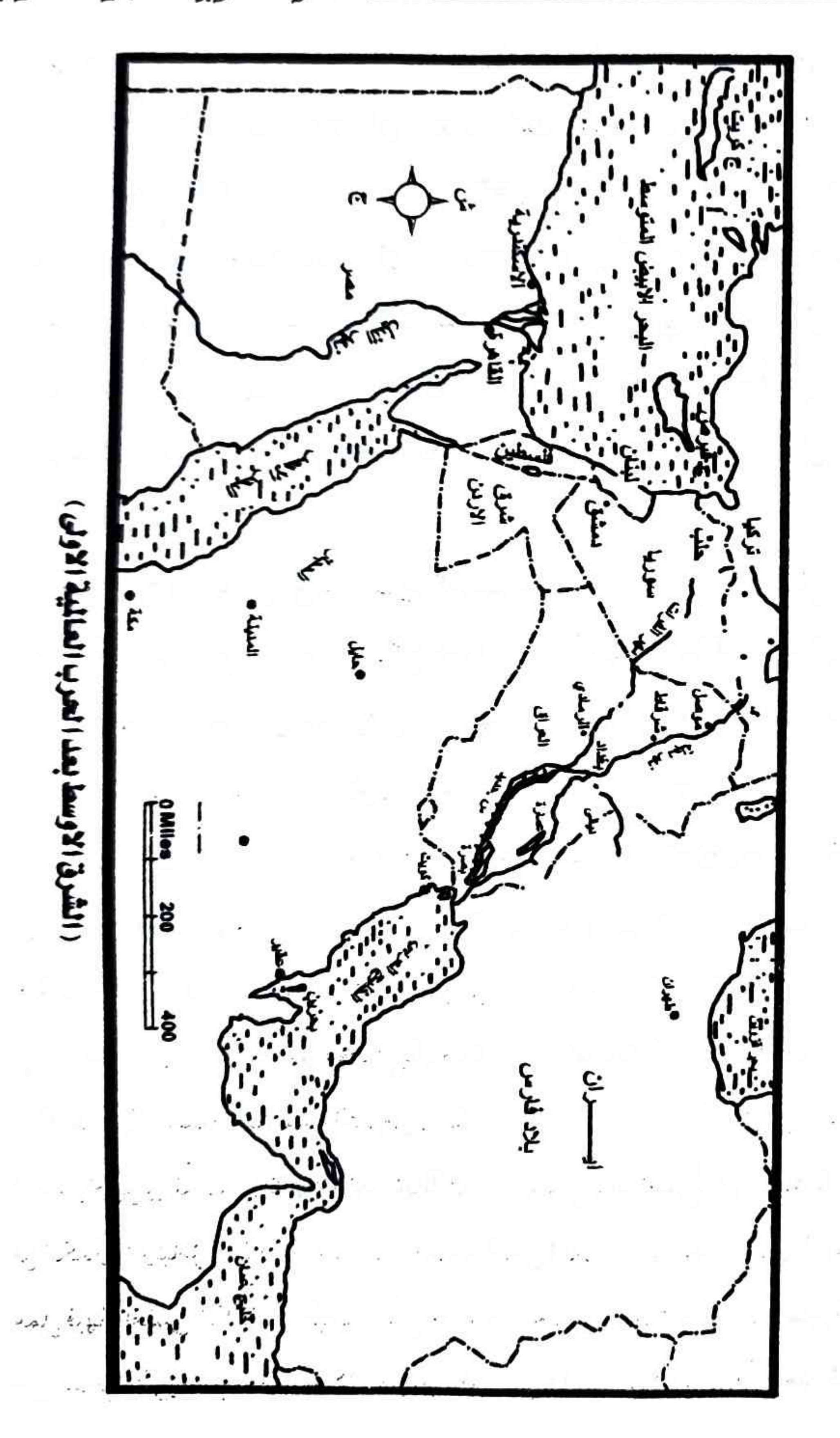
بعد إجتياز مدينة العمارة وصلنا منطقة سهلية تقع على جانبي النهر، وهي مغطاة بالشجيرات، ويعيش بين هذه الشجيرات عدد كبير من طيور الحجل الأسود. كان آمر المجموعة في مركبنا ميجر احمر الوجه، وكنتُ أحترمه واخشاهُ في الوقت نفسه، لأني كنت عسكريًا في الثالثة والعشرين من عمري، وليس لي تجربة كبيرة. في احدى الأمسيات تم ترتيب الأمر مع القبطان بأن يرسو المركب عند ضفة النهر بضع ساعات كي يستطيع الضباط ان يستريحوا بعض الوقت، ويتمشوا في المنطقة ويقوموا بصيد الدرّاج. أحسست بالخطر من هذا المقترح وذلك للسبب الآتي:

كان والدي غالبًا ما يخرج لصيد الحجل والدرّاج، لقد كان ماهرًا في الصيد، وكان يتمنى أن أشاركه هذه المتعة، ولكن لسوء الحظ كنت أستعمل يدي اليمنى في حين أن عيني اليسرى هي التي تبصر بشكل أفضل وكنت أخطئ الهدف. ذهبت مع والدي الى شركة متخصصة بصناعة البنادق فقاموا بتحوير واحدة من البنادق كي تتلاءم مع حالتي. بعدها اصبحت ماهرًا في إصابة الهدف، وقد دفع والدي مبلغًا كبيرًا ثمنًا لتلك البندقية وقد جلبتها معي عندما ابحرت الى العراق. نزلنا الى البر، وانتشرنا في السهل على ضفة النهر. كانت المنطقة مليئة بطيور الدرّاج وهي تركض على الأرض أو تطير يمينًا وشمالًا أو تطير فوق رؤوسنا. أطلقت النار من بندقيتي يمينا وشمالًا ولم أخطئ في أي مرة. هنا اطلق المركب صافرته معلنًا انتهاء فترة الصيد، ووجوب العودة الى المركب. عاد الجميع، وعندما دخلت الى العنبر وجدت الميجر جالسًا خلف المنضدة، وصاح قائلاً (غلوب .. تعال هنا .. ماذا تشرب ؟.. أين تعلمت هذه الرماية ؟). وفجأة وجدت نفسي كاني اسدٌ في هذه الجلسة. محاط بهذه المجموعة الجليلة من الأشخاص من بينهم الميجر والقبطان. وكانت هذه هي المرة الاولى والأخيرة التي خرجت فيها للصيد.

اشياء كثيرة حدثت عند وصولي الى بغداد جعلتني لا أتذكر البندقية بعد ذلك، وأغلب الظن انها قد سُرقت.

عند وصولي الى بغداد، كان تمرد العشائر قد شارف على النهاية تقريبا، وكان هناك بعض القتال في الرميثة وفي منطقة الفرات الاوسط والتي بدأت فيها الأحداث.

عدة أميال جنوبيّ بغداد يلتقي دجلة باحد روافده في الضفة اليسرى (ديالى) قادمًا من الجبال في إيران حيث طبقات الثلوج الهائلة تغطي منطقة واسعة هناك. ثم يتكون السهل الرسوبي في العراق، غير أن هناك مناطق في التلال الصخرية داخل الحدود العراقية حيث تتكون منطقة تسمى جبل حمرين.



(الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى)

من الصفات الغريبة للقبائل انهم في حالة التمرد غالبًا ما يقومون بتخريب وتحطيم كل ما عملته الحكومة في المنطقة التي يصلون اليها، بالرغم من ان تلك المنشآت قد بنيت لصالحهم. ووفقًا لهذه الصفة فان العشائر في تلك المنطقة قد دمّرت مشاريع الري الرئيسة هناك. كان القتال قد توقف، وعشائر ديالى قد استسلمت. كانت هناك جماعة من الهنود تابعين لفرقة المشاة التاسعة والتسعين التي استقرت في المنطقة الجبلية شماليّ ديالى. يقوم الهنود هناك بجمع الخامات المعدنية وقد أقاموا علاقات مع العشائر المحلية هناك، وكان العمال الهنود غير المهرة (الكوليّة) يعملون في إصلاح مشاريع الري ايضًا.

أُرسلتُ من بغداد بمفردي للالتحاق كضابط هندسة. كان جزء من عملي يقع في شمال ديالى وجزء في جنوبها ولم يكن هناك جسر. أصبحتْ هناك حاجة الى وسيلة ليعبر بوساطتها الرجال ممن يضطرهم واجبهم عبور النهر. قمنا بمد سلك سميك من الفولاذ عبر النهر وثبتناه من الجانبين، ركّبنا عليه عدة صناديق مثل السلال التي تعلّق في المناطيد، كل صندوق كان يتسع لحمل ثلاثة رجال، ومن ثم يُحرك الى الأمام او الى الخلف بوساطة بكرة. وجدنا أن هذه الطريقة بطيئة جدًا. استعملنا زورقًا كبيرًا كعّبارة وأقمنا سلكا فولاذيًا آخر عبر النهر في مستوى ماء النهر ليتم سحب الزورق الى الامام او الى الخلف وهو محّمل بالرجال، وكانت هذه الوسيلة كافية.

كانت فرقة المشاة التاسعة والتسعون مقرها منطقة التلال شماليّ ديالى تحت إمرة ضابط إنجليزي شاب. وكان العضو الثالث من مجموعتنا إنجليزيًا في منتصف العمر هو الكابتن (وليامز) وكان واجبه هو تنظيم وتجهيز التموين من بغداد الى المنطقة التي نعمل فيها. أمضى الكابتن (وليامز) جُل حياته في الجيش، وخلال خدمته الطويلة أدمن على شرب الويسكي. كان خلال النهار يكون مرحًا مع زملائه، ولكن بعد الغروب

يجلس على كرسيه خلف منضدة وضع فوقها الأشياء بشكل غير منتظم مع قنينة الويسكي ثم يقوم بفك حزامه ويجلس يشرب الويكسي بصمت. بعد الصمت الذي يرافق شربه للويسكي لبعض الوقت يبدأ بالكلام عن الجيش البريطاني، ثم يتوقف ويقوم بتزرير ازرار سترته، ويشد حزامه ثم يضع قبعته فوق رأسه ويقف باستقامة ثم يؤدي التحية وينظر الى الأمام وكأنه في احتفالية، ويبقى واقفًا مدة نصف دقيقة ؛ بشكل مستقيم وجسمه متصلب ثم يؤدي التحية مرة أخرى، وفجأة يسقط جالسًا على كرسيه ويفك حزامه وأزرار سترته ثم يمسك قنينة الويكسي. في بعض الأحيان يكرر هذه الطقوس ثلاث مرات أو أربعًا حتى يخر منهارا على فراشه.

دجلة والفرات نهران كبيران ينبعان من جبال طوروس في آسيا الصغرى، يتكون ماؤهما من الثلوج التي تغطي سفوحها الشمالية، وهي تمتد حتى البحر الاسود. عندما يذوب الجليد في الربيع من على الجبال في آسيا الوسطى فإن النهران العظيمان لا يستوعبان كميات الماء الهائلة الواصلة اليهما، فيفيضان ويندفع ماؤهما على الضفتين ويغمر منطقة واسعة ثم يتكون السهل الرسوبي في العراق. المطر الذي يسقط شتاءًا في العراق لايؤثر بدوره في منسوب المياه في نهري دجلة والفرات. من جانب آخر نهر ديالى يأخذ ماءه من جبال إيران على بعد مائة ميل شرق معسكرنا في ديالى. هطول الامطار الغزيرة يجعل مياه نهر ديالى في المنطقة يرتفع ويملأ حوض النهر، وكنا نتجاهل ذلك.

في إحدى الليالي عندما كنا نعتني بحصان صغير سمعنا هديرا يزداد شيئًا فشيئًا، حملقنا في الظلام وبالكاد شاهدنا النهر وقد بدأ بالفيضان، ولكن معسكرنا كان مقاما على مرتفع من الأرض لذلك ذهبنا الى النوم مطمئنيّ البال. في صباح اليوم التالي بدأت عبّاراتنا السلكية بعملها وذلك بتعبير مجموعة من الكلولية الهنود الى ضفة النهر

الأخرى حيث مكان عملهم. لم يكن ما حدث بعد ذلك واضحا، سرعان ما واجهت العبّارة بعض الصعوبات وبجهدٍ كبير قام الطاقم بإرجاعها بنجاح، ولكن واحدمن الهنود كان قد سقط في النهر من العبارة وجرفه تيار الماء. كان الوضع مرتبكا بعد الفطور حين سمعت فجأة صراخا من الخارج، ركضت الى الخارج حيث ضفة النهر، سمعت أحدهم يصرخ أن العبّارة قد انقلبت وان احد الاشخاص قد جرفه النهر. تقدم عدة رجال وهم راكضون الى جرف النهر ويشيرون الى الماء حيث الرجل الغريق يجرفه جريان الماء. وبدون رويّه خلعت سترتي ورميت بنفسي في النهر الذي كان يهدر كأنه طاحونة. لم يكن ذلك عملًا شجاعًا ولكنه كان فعلًا عاطفيًا مفاجئًا، ربما كانت نوعا من الهستيريا قد اصابتني وشلّت تفكيري. لم أكن أعلم مكان الشخص الغريق وهل جرفته أمواج النهر وذهَبتْ به دوامات الماء؟ لقد تخيلت أني قادر على السباحة، وبدلًا من العوم في الماء انجرفت بعيدًا بدون فائدة تماما، مثل قطعة حطام. كنت أغطس معظم الوقت تحت الماء، كنت أُخرج رأسي بين الحين والحين فوق الماء. لقد جرفني التيار بسرعة عالية.

شاهدت جزيرة وسط الماء، لم تكن عندي قناعة أن اسبح ضد التيار ولكني سبحت بيأس عبر المجرى من أجل ان أصل الى الجزيرة. وبهذا الظرف الصعب تعلقت بشجيرة وسحبت نفسي الى جرف الجزيرة وأنا اكاد أفقد قواي من التعب، وألقيت بنفسي على الجرف وأنا ألهث من شدة الإعياء. وبفضل العناية الإلهية صادف وجود بعض الرجال العرب على ضفة النهر وقد شاهدوني فجاؤوا بقربة منفوخة – وهي اداة عبور بدائية – وذهب أحدهم الى إعلى النهر وبدأ بعبور النهر بعد أن قدّر المسافة وسرعة التيار، جرفه التيار حتى صار بالقرب مني وألقى بنفسه على الجزيرة ووضعني على القربة المنفوخة، وأمسك بي وأخذ يسبح وهو يسحبني مع القربة حتى

وصلنا الجرف. رافقني الرجل الذي انقذني حتى المعسكر ثم إختفى. لم استطع أن اقدم له مكافأة أو حتى أن أشكره. اما الرجل الكولي فلم يعثروا على جثته.

في نيسان ١٩٢١ نُقلتُ الى الرمادي مركز لواء الدليم وهي تقع على الفرات. كنت سائرًا في شارع الفلوجة في طريقي الى الرمادي، إقتربت من حاجز على ضفة الفرات كان قد أقيم في الربيع عندما ازدادت كمية المياه ووصلتْ درجة الفيضان. فجأة سمعت نفس الصراخ الصاخب الذي كنت قد سمعته في ديالى صباح أحد الايام. توقفت للحظة وانتابني الرعب وفي نفس الوقت الرغبة للاستدارة للخلف ثم الركض، هل سأجد نفسي مدفوعًا للقفز الى الفرات العظيم لأنقذ أحد الأشخاص من الغرق ؟ وفي محاولة يائسة للسيطرة على النفس، مشيت مذعورًا الى ضفة النهر، إنه قارب صغير فارغ قد انفلت حبل مرساته وانحدر شيئًا فشيئًا مع مجرى الفيضان.

كانت مهمتي في الرمادي هي صيانة الجسر العائم فوق الفرات، وهو الجسر الوحيد الذي ينتصب فوق النهر العظيم في الأراضي الممتدة نحو مائتين وخمسين ميلًا اي من الحدود السورية الى سدة الهندية ومن وجهة نظر عسكرية فإن لهذا الجسر الوحيد أهمية كبيرة. يتكون الجسر من خمسة او ستة قوارب خشبية متينة تقع قرب جانبي النهر، أما الجزء الأوسط منه فقد دعّم بقوارب مصنوعة من القصب ومطلية بالكامل بالقير. إنها تقنية قديمة فقد طلى نوح سفينته بالقير، كما أن أُم موسى النبي صَنَعت له قاربًا صغيرًا من البردي وطلته بالقير. انها اذن تقنية تمتد الى الاف السنين، إن ذلك يعمد على استعمال المواد المتوفرة محليًا، مثل القصب والقير، غير ان صناعة القوارب تحتاج الى مهارة خاصة.

لم اتعلم في مدرسة (تشاثام) بناء القوارب من البردي والقير، ولكني مسرور ان اترك صيانتها الى طاقمي من العرب الذين اتكلم معهم بضع كلمات بلغة عربية غير

سليمة رغم صعوبتها.

كان نهر الفرات في ذلك الوقت يتدفق بفيضانه الربيعي. وكانت المفاجأة ذات صباح عندما لم اجد الجسر في مكانه أُكتشف اخيرًا ان جماعة (عصابة) من العرب الذين قطعوا حبال الجسر. وتبين ان الجزء الوسطي من الجسر المصنوع من الزوارق القصبية المطلية بالقير لم تستطع ان تصمد لضعفها أمام الضغط الهائل الذي أحدثه النهر اثناء الفيضان، انهم قاموا بقطع الاسلاك التي تربط ذلك الجزء بباقي أجزاء الجسر المصنوعة من الخشب القوي ولكن أين الجسر الآن؟ وجهت السؤال الى العرب، وأجابوا بذهول "عليك ان تبحث عنه وتجده" وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجوههم.

قمنا بجمع بعض اجزاء الجسر التي رست على الجرف أو منعتها بعض الشجيرات من الانحدار مع التيار بعد ان انحسرت مياه الفيضان سحبنا اجزاء الجسر وأعدنا تجميعه كما كان وكأن شيئًا لم يحدث. لم يكن هناك عمل كثير لأقوم به في الرمادي، لذلك أشتريت فرسًا قزمًا لأقوم بزيارات الى القرى المجاورة حيث بيوت الرجال الّذين يعملون معي في صيانة الجسر. أجبرتني وظيفتي في صيانة الجسر أن أقوم بمحاولات جدية لتعلّم بعض الكلمات العربية العاميّة، وقد نفعتني تلك الكلمات في أثناء زيارتي للقرى. وبوقت قصير أصبحت قادرًا على القيام بمناقشات بسيطة. المجموعة التي كانت تعمل معي في صيانة الجسر تتميز بفيض من الانسانية والكرم، إن ذلك مع البساطة في بيوتهم، جعلني اتعلق بالعالم العربي.

السيطرة الجويّة

كان تمرد العرب عام ١٩٢٠ يعود الى أسباب ودوافع مختلفة. عندما تقدم الجيش البريطاني بجنوده الهنود كان تقدمه بطيئًا، كانوا قد عبروا نهري دجلة والفرات وتركوا خلفهم طريقًا تتزايد خطورته وكذلك المواصلات عبر النهرين. كانت المناطق الريفية على جانبي الأنهر مسكونة من قبل عشائر بدائية تعيش حالة تشبه الحرب، وكانت الحكومة العثمانية عاجزة عن السيطرة عليهم بشكل كامل. ولأجل منع العشائر من التداخل في خطوط المواصلات للجيش فقد تأسس نوع بسيط من انواع الادارة يتمثل بـ (الضباط السياسيون). يتكون من ضباط الجيش وقد عينوا في بعض المناطق المهمة وشبه المهمة، كان واجبهم هو الإبقاء على حالة الهدوء والحرص على عدم حدوث عمليات عدائية. العديد من الضباط السياسين الشباب المتحمسين كانوا تواقين لضمان ولاء العشائر العربية، وقد قاموا بلباقة بتزويق الحياة بالكلمات وجعلها مفعمة بالتقدم والرفاه وخاصة لشيوخ العشائر، وأغروهم بأن الحكومة البريطانية ستحقق لهم كل ذلك.

كانت الحياة الجيدة التي اكتسبتها مصر تحت الإدارة البريطانية قد لاقت صدًى حسنًا، وقد تنبأ البعض ان يكون مستقبل العراق مثل ذلك. إضافة الى ذلك فأن الدعم الوفير الذي منحته بريطانيا والمنافع التي جُنيت في أثناء الحرب عدّها العرب إعتيادية، وهي مصاحبة للسيطرة البريطانية. لم يكن رجال العشائر وكثير من الاخرين يدركون ان مشاريع الري الكبيرة والسدود والقنوات التي جلبت التقدم لمصر قد تطلبت اربعين عاما تقريبًا حتى اكتملت.

كانت هناك مبالغ شهرية كبيرة تقدم لرؤوساء العشائر خلال الحرب ، ولكنهم كانوا لا يصرفون شيئًا او يصرفون القليل وهم لا يدفعون أي ضريبة. رجال العشائر ليس لديهم فكرة عن حقيقة مالية تجبر الحكومة على إجراء الموازنة لميزانيتها. العديد منهم كان قد سمع ان الربيّات تطبع في الهند حيث دار سك العملة. إنهم يمتلكون فكرة مبهمة مفادها أن الحكومة تصنع النقود ومن أهم واجباتها أن توزعها على الجميع .

وحسب اعتقاد العشائر العربية العراقية فإن الحكومة قوة غامضة وعظيمة. في حين ان المفهوم الغربي للحكومة انها مجرد جماعة من الناس تقوم بتنظيم سياسة الدولة، وهي منتخبة رسميًا من قبل الشعب لتدير شؤونه، وتحمي الناس في الشارع من المشاكل التي قد تحدث. الحكومة التركية والحكومة البريطانية كلتاهما بالنسبة للعراقيين حكومتان مبهمتان وقادمتان من مكان بعيد، ولكن هناك فرقًا مهما وجوهريًا وهو أن الحكومة التركية التي كانت تحكم العراق كانت تطالب بالنقود من الناس، في حين ان البريطانيين يعطون النقود للناس.

ولكن مع الاقتراب المفاجئ للحرب جاءت خيبة الأمل وحل التحرر من الوهم. بدا البريطانيون بجمع الضرائب أيضا، وبطريقة فيها الكثر من الصرامة كما كان يتعامل بها الاتراك.

لعل من الاسباب الرئيسة للقلق في جنوبيّ العراق هو ان البريطانيين قد تبنوا سياسة سيئة الحظ في التعامل مع العشائر. تم تقسيم البلد سابقًا الى عدد من الإدارات العربية الصغيرة مثل الإمارات، منها خزعل وزبيد ولاسيما السعدون. وكانت هناك بعض الإستقلالية للأمراء العرب مع معارضة أداء الضريبة للحكومة التركية، وكانت لأولئك الأمراء حرية شبه كاملة مع عدم التدخل في معاملة الأمراء لعشائرهم.

في النصف الاخير من القرن التاسع عشر والسنوات الاولى من القرن العشرين،

قامت تركيا بمحاولات نشطة لعصرنة إمبراطوريتها مقلدة الدول الاوروبية. تماشيًا مع هذا الهدف فقد قررتْ ان تحطم المنظومة العشائرية، وتجعل السكان تحت سيطرتها مباشرة. حاولوا تطبيق الاصلاحات بتصرفات سلبية مأساوية ونفاد صبر وضيق صدر، لقد آلو على انفسهم تحطيم الهيكل الاجتماعي الموجود في البلد، وبدلًا من إتباع الحكمة والقيادة الرشيدة لنقل الناس الى حالة أفضل إتبعوا أسلوبًا مغايرًا كان الهدف الاول منه هو الإطاحة ببيت الامارة العربية التي كان لها من القوة بحيث يمكنها ان تتعايش بشكل سلمي ضمن إطار حكومة عصرية. نجح العثمانيون بتدمير الأمراء بوساطة المكائد والخداع، وذلك بتنصيب العضو الأصغر من العائلة المتنفذة ليكون هو صاحب السلطة والنفوذ، ثم يدعمونه بالمال، وبهذه الطريقة يذكون الصراع العائلي.

كانت النتيجة هي فقدان العشائر لرؤسائها التقليدين، وسرعان ما تمزقت العشائر بعداوات داخلية مُرة. إنقسمت العشائر الى أقسام صغيرة مضطربة، أما الحكومة المركزية فلم تكن قوية بما يكفي لتتولى هي بنفسها السيطرة المركزية. الشيوخ الصغار لا يملكون السلطة الأبوية، الأمراء تقاتلوا فيما بينهم وسرق بعضهم بعضًا من دون ان يطولهم العقاب.

في هذه الاثناء وصل الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الاولى. كان للعشائر عدد كبير من المقاتلين ممن تحرروا من السلطة التي كان يفرضها عليهم أمراؤهم التقليديون، ووجدوا أنفسهم مقسمين بين عشرات بل المئات من رؤساء العشائر الصغار، كل واحد منهم له قريته او قُراه الخاصة، وله برجه الحربي وإعتماداته المالية وفي نفس الوقت له منافسوه. كان الأمراء الصغار لا يتحكمون باكثر من عشرين او ثلاثين من الاتباع.

في المنتفك كان الكثير من الناس يعيشون في زوايا الأهوار ولاتستطيع اي مجموعة من الجنود او الشرطة الوصول اليهم. كانت المهمة الاساسية هي ربح الحرب بالنسبة

للجنود البريطانيين. وهذا يتوجب منع العشائر من ضرب الجنود، وكذلك حماية خطوط المواصلات والحفاظ على القطعات المعزولة من هجمات رجال العشائر العرب. هذه الأهداف غالبًا ما تكون صعبة المنال، وقد تصل الى درجة الاستحالة حتى عندما نعلم ان الهجوم قد تم تحديده من إحدى العشائر فان رؤوساء العشائر الصغار الكثيري العدد يقومون بالتصرف بشكل منفرد ويقدمون الأدلة الزائفة ويلوم أحدهم الاخر. كان الكثير منهم مراوغين ولا نصل معهم الى نتيجة، لذلك كان من المستحيل مساءلتهم، وقد وجدنا الحل لهذه المشكلة وهو تعيين شيخ واحد لكل عشيرة. سار هذا النظام بشكل جيد ومناسب في أثناء الحرب. الشيخ الذي تم تعيينه كان يتسلم دعما ماليًا كبيرًا، واذا اقتضى الحال يتلقى دعمًا عسكريا مناسبا. من جانب آخر يكون هذا الشيخ مسؤولًا عن أية جريمة يقترفها أحد رجاله. وبهذه الطريقة تحقق الهدف، وهو جعل خطوط الإمداد والمواصلات آمنة طوال ايام الحرب، وربما لم تكن هناك طريقة اخرى يمكن اتباعها.

كان هناك عاملان ساهما في جعل العشائر مستائين وساخطين، مما ادى الى الانفجار في ١٩٢٠. العامل الاول: هو ان بعض الزعماء كانوا قد ذاقوا حلاوة الاستقلال خلال فترة الحكم التركي، حيث الفوضى وفقدان سيطرة الحكومة، لذلك لم يقبلوا، في ما بعد، أن يكونوا أقل أهمية، أو يكونوا تابعين لشيوخ أكبر. العامل الثاني: كان ان الشيوخ الكبار لم يكونوا جديرين بالثقة، كانت لدى الشيوخ الحاكمين نظرة قصيرة عن المستقبل، وكانت نظرتهم محدودة حول استمراية النظام الذي كان موجودًا، لقد وجدوا أنفسهم أغنياء، وغالبًا ما يكونون إستبداديين. فكرتهم ألاولى هي الأنتقام، والأخذ بالثأر من الشيوخ الأقل شأنا منهم والذين كانوا ضدهم إبّان الحكم التركي. يبدأون بظلم اتباعهم واضطهادهم واستعمال القوة في مصادرة الأراضي وأخذ النساء للزواج بهنّ.

يطمح الشيخ الى ان يُحترم ويُبجل استثناءًا من الآخرين. وربما يصح القول إن العشائر

المتمردة في عام ١٩٢٠ كانت قد تمردت ضد الشيوخ الحاكمين الأقزام والمستبدين اكثر منها ضد حكومة المركز.

تزامن استياء العشائر مع وقوع حدث سياسي في الجانب الأخر من شبه الجزيرة العربية. فقد قامت القوات العربية تحت قيادة الأمير فيصل بالعمليات العسكرية مع جيش (اللمبي) ضد الاتراك. جاء هذا التعاون نتيجة الاتفاقية في كانون الاول ١٩١٥ بين المندوب السامي البريطاني في مصر والشريف حسين امير مكة. طبقًا لهذه الاتفاقية اعطت بريطانيا وعدًا مبهمًا عن إنشاء دولة عربية مستقلة في نهاية الحرب العالمية الاولى، تقوم هذه الدولة بين الدول العربية الشمالية مع استثناء لبنان من هذه الاتفاقية لأن فرنسا كانت قد وعدت بأن يكون لها موقع خاص.

لتحقيق هذه الاتفاقية قامت الحكومة البريطانية بعد الحرب بتنصيب الأمير فيصل على دمشق وتشكيل الحكومة العربية في سوريا. لكن المجموعة التي ساندت فيصل امتعضت من الوجود الفرنسي في لبنان، فقامت مناوشات على الحدود اللبنانية، قامت فرنسا بدفع قواتها الى دمشق وطردت فيصل وأطاحت بالحكومة السورية، وقامت بنفسها بإدارة سوريا. كان هذا الفعل متناقضاُ مع التعهد البريطاني للعرب. قامت الحكومة البريطانية بالإحتجاج، غير ان الصمت خيّم أخيرًا على الموقف.

العسكريون العرب الّذين كانوا أسرى عند الجيش العثماني قاموا بتعزيز جيش الأمير فيصل وكان بضمنهم بعض الضباط. الكثير من العراقيين كانوا قد خدموا في الجيش التركي، والعديد منهم قد تم أسرهم من قبل البريطانيين ومن ثم الحقوهم بجيش الامير فيصل. هرب الضباط العراقيون من أتباع فيصل الى حلب عندما طرد الفرنسيون الأمير، ومن ثم الى الفرات الاعلى ومن ثم الى ما بين النهرين.

إضافة الى المرارة التي خلفها أخفاق العرب في تحقيق آمالهم في حكومة عربية في

سوريا ادّعوا ان الحلفاء قد خدعوهم وأخلفوا وعودهم بدولة عربية، فقد عملوا ما بوسعهم لينتفضوا ساخطين ويثوروا على الادارة البريطانية في العراق.

من الناحية العملية فإن العراق ما يزال ارضًا عدوة محتلة حتى تُعلَنْ معاهدة السلام مع تركيا، ذلك الوقت يمكن الإعلان رسميًا عن الدولة العربية. الضباط العرب الّذين شاهدوا أمالهم تخبو في سوريا، شكّوا بانه سيكون هناك نقض للعهد مرة اخرى، سيكون في العراق، المندوب السامي التنفيذي البريطاني السير آرنولد ولسن أرسل برقية عاجلة الى لندن بعبارات واضحة، لا لبس فيها عن سياستهم، ولكن الحكومة البريطانية كانت منشغلة في صنع معاهدة فرساي. هذه الحركة السياسية للاستقلال في العراق ممثلة بضباط من جيش فيصل قد حدثت بالتزامن مع استياء العشائر من الوضع فحدث التمرد.

هناك ثلاثة أسباب ادت الى ماحدث في ١٩٢٠.

١. زوال الوهم عند رجال العشائر ممن توقعوا ان تقوم بريطانيا بجعل العراق مصر ثانية.

٢. ثورة العشائر ضد الشيوخ الطغاة الّذين نصبهم الجيش البريطاني المحتل دون رغبة الناس.

ليس لأي سبب من هذه الاسباب أي اتصال مع الساسة او العرب الوطنيين. في الواقع أنها جاءت بنتيجة عكسية، فقد كانت رغبة العشائر هي الرجوع الى الانفلات الذي اصبح مألوفًا مع الإدارة التركية. في حين أن الاحتلال البريطاني جلب التقدم والنظام والقانون والإدارة العصرية.

٣. زوال الوهم عند المتعلمين العرب وفي الأغلب ضباط الجيش الّذين شهدوا (او شاركوا) في عملية تبخر أحلام العرب في الاستقلال. فازداد الارتياب وكثرت الشكوك كلما تأخرت مقررات فرساي وعدم قدرة الحكومة البريطانية أو تجاهلها في إصدار ضمان واضح لأقامة حكومة عربية في العراق.

لقد قُمع التمرد، وتم منح العراقيين قدرًا واسعًا من الحكم الذاتي.

صار هناك وزراء عرب شكلّوا الحكومة ورؤساء وحدات إدارية من العرب تم تعيينهم في كل منطقة من البلاد (ولاية) تحت عنوان (المتصرف). أما في المدن الصغرى والتي تُسمى قضاءًا فقد عين قائممقام. الزعماء الّذين لعبوا دورًا قياديا في التمرد صدر بحقهم العفو، وتُركوا يعيشون في سلام في بيوتهم.

التأثيرات بعد القتال لا تُمحى سريعًا. الشيوخ الّذين لم يشاركوا في التمرد كانوا يتطلعون الى معاملة تفضيلية في ظل الإدارة البريطانية. أُولئك الذين شاركوا في التمرد كانوا ينظرون الى المستقبل بقلق، ويخشون ان يتعرضوا للشبهات من قِبل السلطات البريطانية.

اعطى تأسيس الإدارة العربية املا جديدا للزعماء الّذين شاركوا في التمرد، ربما اعتقدوا انهم يستطيعون التكفير عن اخطائهم الماضية وأسسوا صداقات مع العرب ذوي المناصب الرسمية الجديدة، وصاروا يصرحونن علانية بأنهم الأكثر وطنية وأنهم مستعدون للموت من أجل الإدارة العربية الصحيحة بعيدًا عن التدخلات البريطانية. الشيوخ الّذين لم يتمردوا، وكانوا في خطر، قد تخيلوا الآن بأن المستقبل في ظل الإدارة البريطانية سيكون مضمونا غير انهم يشاهدون الان ان منافسيهم من المتمردين السابقين قد أسسوا صداقات مع الادارة العربية .

الشئ المهم، لاسيما في منطقة الفرات الاوسط، ان الشيوخ انقسموا الى معسكرين، اولئك الّذين لم يتمردوا اعلنوا قرارهم باسناد الإدارة البريطانية في حين اعلن المتمردون السابقون تأييدهم للحكومة العراقية، في الحقيقة كانت مجموعتا الشيوخ تلك تواقة لان تدعم اي نمط من الإدارة فقط اذا قدمت لها نفوذا. إتسع خط الانشقاق بين مجموعتي العشائر التي تقطن منطقة الفرات. في الواقع كانت تلك العشائر تتقاتل في ما بينها طوال

الوقت إبّان الحكم التركي والآن، يتذرعون بشتى الذرائع كي يستمر بعضُهم بقتال بعض.

الإدارة الجديدة قسمت البلد الى ألوية؛ وكل لواء له متصرف عراقي ولكن البلد بأجمعه لا يزال في نوع من الاضطراب، وأن الحكومة العراقية الجديدة لم تمتلك القوة التي تتمكن بها من صيانة النظام. كثير من السنين سوف تمر كي يمكن إنشاء قوة عراقية فاعلة من الشرطة والجيش، وخلال هذه الفترة فإن القوات البريطانية ملزمة بحفظ النظام.

لضمان العلاقة الضرورية بين الإدارة العربية والقوة البريطانية التي تساندها تم تعيين مستشار بريطاني ليساعد المتصرف في كل لواء. كان البريطاني أولاً يعمل تحت اسم (مستشار اللواء) ولكن هذا العنوان تغير الى عنوان جديد هو (المراقب الاداري). السلطة التنفيذية في كل لواء تتكون من المتصرف الذي يسعى مع زميله البريطاني الى التعاون في مهمتهما التي تأثرت كثيرا بانقسام العشائر الى مجموعتين، الاولى تعلن ولاءها للمتصرف، أما الثانية فتعلن ولاءها للمستشار.

في اذار ١٩٢١ عُقد مؤتمر القاهرة برئاسة المستر ونستون تشرتشل في محاولة لايجاد نوع من النظام بعد الارباك الذي كان نتيجة الحرب، والنظر في التناقضات التي حملتها الوعود التي أصدرتها الحكومة البريطانية. سنتان ونصف قد انصرمت منذ ان توقفت الحرب في ١٩١٨، حين انخرط المناقشون في باريس بصفقات ساسية لا نهاية لها، وقد افادت بشكل كبير القوى العظمى.

من جانب اخر ظلت الدول العربية في حالة عدم التاكد من شبه الاحتلال العسكري المؤقت. لم تكن المحاولات التي جرت في مؤتمر القاهرة بدون نجاح لإيجاد بعض المعالجات للنهايات السائبة.

تم إعلان العراق كدولة مستقلة بالرغم من انه تحت الانتداب البريطاني حسب قرار عصبة الامم، بعد ذلك بوقت قصير أُنتخب الأمير فيصل ملكاً وأصبح اخوه الملك عبد

الله حاكما على ولاية جديدة هي شرق الاردن. وكضابط في الجيش كنت اهتم قليلاً بهذه الشؤون في الدولة ولكن قرارت مؤتمر آخر غيرت كل وظيفتي. العراق بلد كبير، خمسمائة ميل طولاً وثلاثمائة ميل تقريبًا عرضًا، ولكنه كان خاليًا تماما من الطرق، فيه نهران كبيران، وكذلك العديد من القنوات والاهوار، وهناك الصحارى القاحلة الخالية من المياه، وكذلك هناك الجبال الشاهقة في كردستان.

يتكون سكان العراق من عشائر مسلحة وغالبا ماتعيش في حالة شبه حرب، معظمهم في حالة فوضى وبعضهم يقاتل البعض.

تم اعلان العراق دولة مستقلة، البرلمان ينتخب الملك والوزراء، والاخيران يخضعان للدستور كالنموذج البريطاني، ولكن لم يكن هناك جيش. كانت هناك تساؤلات سياسية مهمة في بريطانيا تتعلق بوضع الجيش البريطاني في العراق وامكانية دعمه ماليا، انها عملية سكب المال في رمال الصحراء. دون قوة مسلحة فأن الحكومة في العراق لن تكون قادرة أبدًا على القيام بإدارة الدولة.

تماشيا مع هذا الموقف اصدر مؤتمر القاهرة مقترحًا جديدًا وغريبًا هو السيطرة الجوية. في حالة تمرد العشائر – في الواقع ان تمرد العشائر هو شئ يحدث على طول الخط وبالرغم من توفر الأنهار والأهوار والصحارى كان التنتظيم سيئا .هناك حاجة ماسة الى شق الطرق، وإنشاء الجسور، والحفاظ على خطوط المواصلات الطويلة التي تمر عبر الاراضي التي تقطنها العشائر.

كانت القوة الجوية تواقة لبرهنة تأثيرها وأن تساهم في قوة حفظ السلام في العراق الى حين أن يتمكن العراق من تأسيس قوته العسكرية الخاصة به. إذا تمردت العشائر على بعد مئات الأميال عن بغداد فكيف يكون التصرف ؟ أثير الكثير من الجدل حول ذلك، وحول الحملات العسكرية. ان ارسال قطعات عسكرية يستغرق أسابيع وتكلف الملايين

من الباونات. ولكن من اجل ان يسيطر سلاح الجو الملكي على الموقف، كان يتوجب ان تقلع الطائرات من بغداد بعد الفطور صباحًا تقصف المتمردين ثم تعود الى بغداد عند الغداء. غير ان هذه العملية كانت مقبولة مبدئيًا وقد تم اعتمادها وتعيين قائد مسؤول عنها.

المقترح الذي وضِع في القاهرة بدا وكأنه حلٌ مثالي، ولكن حالما طارت الطائرات فوق ارض العراق ظهرت المشاكل. السهل الواسع للبلد العظيم يضم عددًا هائلًا من القرى والمخيمات، تبدو جميعها متشابهة من الجو تمامًا والعشائر موزعة بشكل عشوائي، ومن غير الممكن ان نحدد على الخريطة أيًا من العشائر قام بالتمرد. كل شيء يمكن ان يعتبر عدوا وهناك احتمال ان يكون قسم من العشيرة قد قام بالتمرد، ولكن القسم الاخر من العشيرة نفسها يكون في صف الحكومة. كيف، اذن، يمكن ان يميز قائد العملية الجوية العدو من الصديق؟ هذه المشكلة جعلت من خطة السيطرة الجوية كلها، فجأة، غير عملية.

الحل الذي تم اعتماده هو تعيين عدد من ضباط المخابرات، عرف بضابط الخدمة الخاصة، كل واحد من هؤلاء الضباط يحدد منطقة وتكون مهمته ان يتعرف عليها جيدًا وتصبح مألوفة لديه تماما. وفي حالة الانتفاضة المفاجئة في المنطقة المسؤول عنها، يقوم هذا الضابط بصعود الطائرة التي تكون في مقدمة السرب، ومن ثم يقوم بتحديد المنطقة العدوة والمنطقة الصديقة. ربما تكون هذه الخطة مفيدة، ولكن في ذلك الوقت لم يكن لدى سلاح الجو الملكي مثل هؤلاء الضباط، حتى لو تم تعيينهم فإن تعرفهم على المنطقة وعلى العشائر الساكنة فيها وطبيعة الارض في تلك القرى بشكل كامل وتام، قد يتطلب شهورًا، إن لم يكن سنينًا. لذلك اصبحت خطة تنظيم ضباط المخابرات وتهيئتهم أمرًا عاجلًا.

كانوا في الادارة العامة يعرفون ولعي باللغة العربية وتكلمها عندما كنت في الرمادي وزياراتي للقرى هناك، كذلك اهتمامي بالبلد نفسه. دفع هذان العاملان الادارة العامة الى ان تستدعيني لأصبح واحدًا من ضباط المخابرات وبما اني لا ازال اعتبر نفسي جنديًا فقد وافقت وانخرطت في مخابرات سلاح الجو الملكي في بغداد. وهنا وصلت مهمتي كمهندس الى نهايتها.

شيخ الشيوخ

في مايس ١٩٢٢ أُرسلت كضابط خدمة خاصة (ضابط مخابرات في سلاح الجو الملكي) الى لواء المنتفك في جنوبيّ العراق. كانت تسيطر على هذه المنطقة عائلة كبيرة هي عائلة السعدون، وهي من العوائل التي كانت تسيطر ايضا على بعض اجزاء العراق. وسأحاول ان أسرد قصة عائلة السعدون مع الإمبراطورية العثمانية حسب سماعي لها في منطقة الفرات الاسفل.

قبل ١٩١٤ كان العرب يعيشون لعدة قرون تابعين للسلطان التركي. اسس الاتراك مواقعهم العسكرية في المدن الكبيرة مثل بغداد والبصرة ودمشق ولم يعيروا اهتمامًا يذكر لبسط سلطانهم على منطقة العشائر. كان من المستحيل ان يسافر أحد من مدينة الى اخرى مالم يدفع ضريبة الى رؤوساء العشائر التي يمر عبر اراضيها.

استعملت السلطات العثمانية القوة العسكرية فأحرقت القرى وطردت الناس من اراضيهم، وظلت المعارك بين العثمانيين والعشائر سجالًا. كانت المواصلات بطيئة جدًا واخبار القتال تستغرق اسابيع حتى تصل للباب العالي في أسطنبول وحتى بعد وصولها لا تجد اهتمامًا يذكر لأن جل الاهتمام كان ينصب على المعارك في أوروبا.

دأب العرب على استنباط نظام للاستقرار يتماشى مع النقص الكامل للأمن الذي يبحث عنه الناس. هذا الاستقرار يكمن في حقيقة كون السلطان او الخليفة بعيدًا عنهم، وان الله قد اختار امير المؤمنين، لذلك ليس هناك من احد يحلم بانهيار الامبراطورية العثمانية.

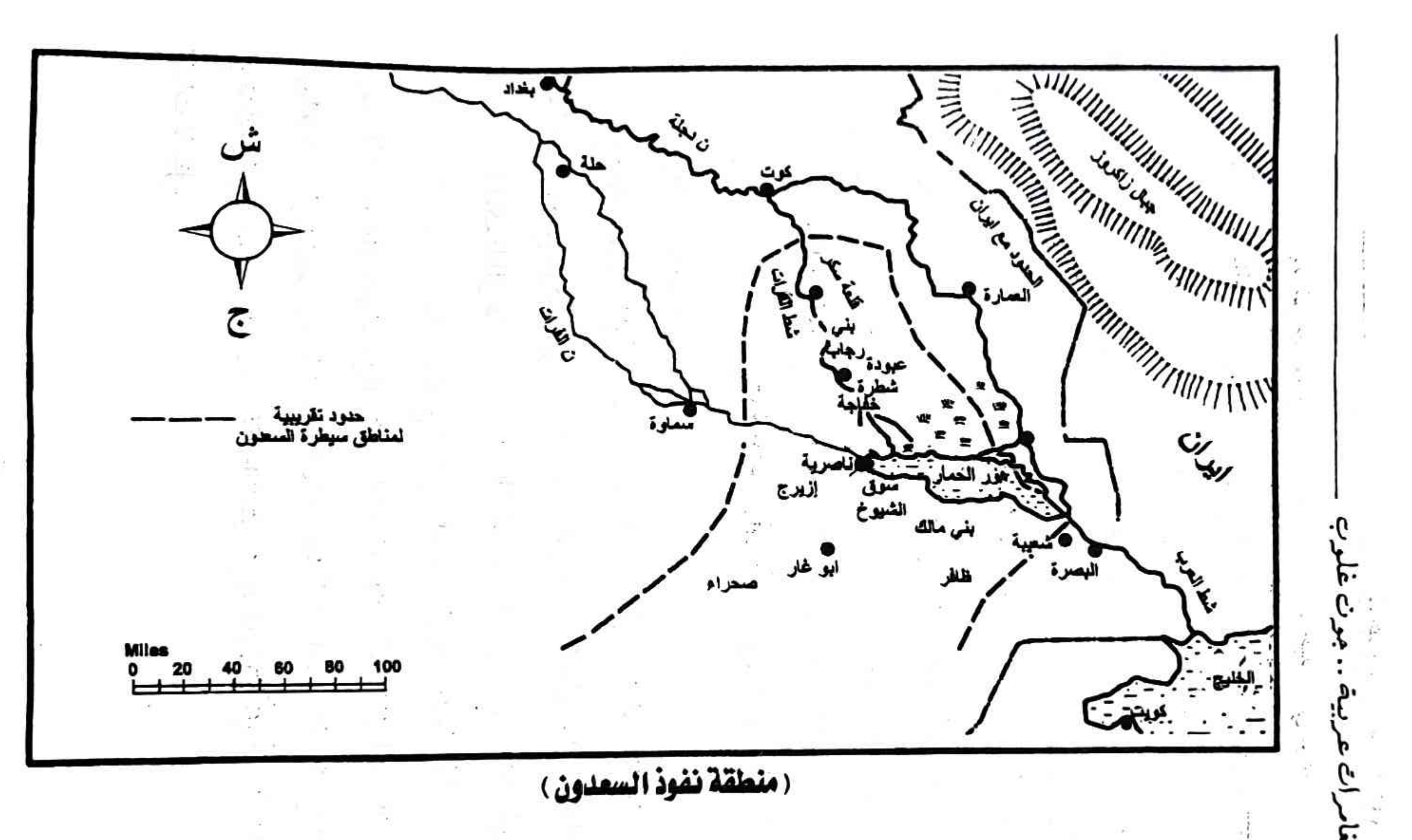
في احدى الروايات القديمة، ان أحدهم كان يدعى شبيب، في القرن السادس عشر هجر بيته في الحجاز بسبب ثأر دموي، أو نزاع عائلي واستقر في احدى ضفاف نهر الفرات الأسفل. ادعى شبيب انه الجيل السادس والعشرين من سلالة النبي محمد، وقد استقبل بحفاوة من قبل العشائر الساكنة في تلك المنطقة على الفرات. ابنه مانع طلب ابنة احد الشيوخ للزواج، كان شيخًا قويًا من عشيرة بني مالك كانت المنطقة كلها في ذلك الوقت تتحول بالولاء بين العشائر المتنافسة والتي يضمها اتحاد هش وخاصة بين الأجواد وبني مالك. تزوج مانع ابنة شيخ عشيرة بني مالك، وسرعان ما وجد نفسه متورطًا بمشاكلهم العشائرية. وفي معركة كبرى بين العشائر انتصر الأجواد انتصارًا كاملًا، وقتل مانع، أما عشيرة بني مالك فقد انسحبوا الى وسط الصحراء الغربية. ابن مالك والذي اسمه شبيب، مثل جده، وقد ولد في كنف بني مالك في منفاهم ،صار شبيب فتى ونجح في تهيئة نفسه كرئيس للعشيرة. في احد الايام انحدر من وسط الصحراء العربية الى حيث اعداؤهم المنتصرون وهم الأجواد، ودخل في معركة معهم وتمكن من الانتصار عليهم بشكل كامل. اندحر الأجواد وهربوا الى شرق نهر دجلة، اما بنو مالك تحت زعامة رئيسهم الحجازي فقد احتلوا ضفتي نهر الفرات واحتفلوا بالنصر. بعد مرور الوقت يئس الاجواد من عودة الماضي، فجاؤا الى شبيب متضرعين ومتوسلين ان يعم السلام بينهم، وان يعطيهم الإذن في العودة الى ديارهم على الفرات. كان شبيب رجل يملك طموحًا كبيرا وبصيرة نافذة اكثر من اي زعيم في العشيرة، فعفا عنهم ولم يثأر لقتل والده.

رحب بأعدائهِ دون ان يفرض عليهم غرامة او ديّة. الشرط الوحيد الذي فرضه عليهم هو ان يصبحوا كعامة الناس من بني مالك، ويقدموا له العرفان والولاء كسيد للعشيرة وله السلطة العليا. وكل من يدخل عليه يجب ان يقبل يديه. بعد ابرام المعاهدة بين شبيب والأجواد حل السلام ووضع حد لإراقة الدماء بين العشائر وتوقفت الإبادة بين الطرفين، والعشائر الاخرى كذلك التي تحالفت معها، وظل ذلك سائدا لعقود في جنوبيّ العراق، وقد تحولت الى المذهب الشيعي في الإسلام. صارت الاجيال التي انحدرت من نسل شبيب قد جعلت من نفسها طبقة متنفذة بين اتباعهم وقد جعلوا القابهم شيخ الشيوخ.

من التقاليد العربية المهمة التي كانت سائدة منذ القِدم، هو حبهم للشعر والادب الذي يتوافق مع حياة البدو كما هي الخيام والجِمال. الأجواد وبنو مالك اخذوا يشتغلون بالزراعة وجني القصب والصيد ورعاية الجاموس في الاهوار. وقد استمر احفاد شبيب لمئات السنين بهذه الاعمال حتى العشرينات.

في عام ١٦٩٤ استولى مانع ابن مغامس الأمير النحيف على المنتفك. واستولى على مدينة البصرة، ووسع نفوذه تدريجًا في الصحراء العربية حتى التلال في ايران، واصبح لفترة قصيرة الحاكم المطلق على جميع منطقة الفرات الاسفل من العراق. ولكن في عام ١٦٩٧ ثارت عليه العشائر ودفعته خارج البصرة ولكنه ظل في الفرات الاسفل.

يضم المنتفك مناطق متنوعة من الصحراء العربية ووداي الفرات من اسفل السماوة حتى الصحراء قرب البصرة ومنطقة شط الغراف. وشط الغراف هو أحد فروع دجلة، في منطقة الكوت يمر في مدن قلعة سكر والشطرة ثم يدخل ويختفي في الأهوار في الفرات الاسفل.



(منطقة نفوذ السعدون)

منطقة المنتفك كلها تشمل مساحة ثمانية الآف وخمسمائة ميل مربع تقريبًا بضمنها مناطق زراعية وأهوار وكذلك الصحراء. خلال القرن الثامن عشر ظهر بعض العرب المهمين مثل خزعل في الفرات الاوسط، وزبيد جنوب بغداد، ولكنهما لم يحققا نفوذاً وهيمنة كما هو الحال مع شيوخ المنتفك.

في وقت مبكر من القرن الثامن عشر كان الامير الحاكم هو سعدون بن محمد. الذي شمل اسمه، منذ ذلك الوقت، جميع الأسر التي تزعمت العشيرة ليحل محل اسم شبيب .حاصر سعدون البصرة واشعل حربًا مع العشائر المجاورة وقد أُخذ اسيرًا ليُسجن في بغداد، ثم أُطلق سراحه ليتمرد ثم يُقاتل ويُهزم ثم يُقتل. ولكن ماحدث بعد ذلك هو ان كل العائلة تبنت اسم سعدون. ولكن الضريبة التي أداها لما قام به من اعمال هي ان اسمه صار مرافقًا لأعمال الشغب والتمرد.

في عام ١٧٥٠ برزت حركة دينية متطرفة وسط الجزيرة العربية مدعومة بالسلاح بزعامة محمد بن سعود، من عشائر عنِزة. وفي عام ١٧٧٠ برزت فرقة جديدة عرفت بالوهابية وبدأت بنشر نفوذها على وسط الجزيرة كله كردة فعل انفعالية للتعصب الديني، وبين الاعوام ١٧٩٣ و ١٧٩٥ شنت عدة هجمات على الكويت.

كانت الامبراطورية العثمانية في هذا الوقت على شفير الانهيار، تزامنًا مع الحرب على روسيا، واجتياح نابليون لمصر، والعصيان المتكرر للجيش الانكشاري. كل ذلك جعل من المستحيل على الباب العالي ان يرسل قطعات عسكرية الى العراق.

في شباط ١٧٩٧ عُين الوالي العثماني ثويني بن عبد الله بن سعدون اميرًا على المنتفك، ويحكم البصرة على ان يقود جيشا من العشائر ليتغلب على الوهابييّن في الجزيرة العربية. وفي عام ١٨٠١ قاد قوة كبيرة من رجال العشائر، ولكن في مكان جنوب الكويت قُتل ثويني من قِبل احد عبيده، فتراجع جيشه تراجعًا مضطربًا. في

النصف الثاني من القرن التاسع عشر حلّت مرحلة جديدة فقد ظهرت رغبة عند حكّام اسطنبول، وان كانت ضعيفة، للتقدم والتجديد، فاخذوا يضغطون على سلطات بغداد لاتّباع سياسة اكثر عدوانية نحو سعدون. الادارة العثمانية تبنت سياسة لتدمير سعدون، وهذا السلوك صار تقليديا للحكومة العثمانية. وبدلًا من ان يرسخوا سيطرتهم ويصلحوا حال البلدان المغلوبة، وينشروا العدالة من خلال ادارتهم فقد حَرِص العثمانيون على تحطيم قوة الامير بالضربات العسكرية.

في عام ١٨٣٦ حاول والي بغداد ان يُنظم عمل زعيم المنتفك، لان قوته لم تسمح له بالإطاحة به، سعى الى تعيينه في الخدمة المدنية العثمانية بدرجة قائممقام او نائب حاكم. الخطوة الاخرى كانت فتح دائرة تركية رسمية للضرائب للحصول على مبالغ إضافية.

تمرد الامير منصور فاضطر الوالي الى إلغاء تعليماته، وتم تبني سياسة هادئة بعد ذلك، في حين ظل منصور متمردًا. اخذت السلطات العثمانية تقترب من اخيه الاصغر ناصر، وقد كسبوه بالمداهنة والإطراء، ومنحوه اللقب التركي (باشا). وقع ناصر في الفخ وعُيّن أميرًا على المنتفك خلفًا لأخيه منصور الذي ذهب لاجئا الى الصحراء مع رجال البدو من عشيرة (ظافر).

في عام ١٨٦٩ اصبح مدحت باشا الذي كان قد عُني بالاصلاحات واليًا على بغداد، وأتى بطريقة جديدة للتعامل مع الامراء من آل سعدون. الطريقة هي ان يبقى على نفوذهم على ان يقوموا بجمع الضرائب من المدن والعشائر الزراعية. وعرض مدحت باشا ان يتقاسم المبالغ المتحققة مع عائلة السعدون جميعهم ومنحهم لقبًا تركيا نافذا شريفًا. لمدة ثلاثمائة سنة ظلت العشائر تدين بولائها لامراء المنتفك لأنهم كانوا يمنعون التدخلات التركية في شؤونهم، ولكن بعد فترة ادركت العشائر ان ناصراً

(اصبح الان ناصر باشا) قد أصبح اداة بيد الاتراك، فانتفضوا متمردين ضده وضد اسياده من الحكومة، لكن ناصر باشا كان قد ذهب بعيدًا مع الاتراك ولن يستطيع العودة، وقد اطلق الاتراك على المدينة اسم الناصرية تملقًا وتزلفًا لناصر باشا. ولكّن العثمانيين استطاعوا ولأول مرة من تاسيس وجود رسمي في المنتفك.

لقد عانت عشائر المنطقة بأجمعها مرارة الانقسام بعد ان تفشت العداوة بين الأخوين منصور وناصر. ولقد دعم مانع المنّاع واخوه جرار، وهم من شيوخ الأجاويد، دعموا منصور بقوة. وقد التقاهم ناصر مع عبده الأسود واوقفهم في احد شوارع الناصرية وجرّهم على الارض وجردوا سيوفهم، وقام العبد الاسود بتقطيع مانع إربًا إربًا. عندما شاهد جرار مصير اخيه رمى بنفسهِ في الفرات. وبالرغم من أنه كان مقيد الرِجلين فقد قام بالغطس والسباحة في النهر وجرفه التيار الى مسافة بعيدة، زحف الى ضفة النهر ثم هرب.

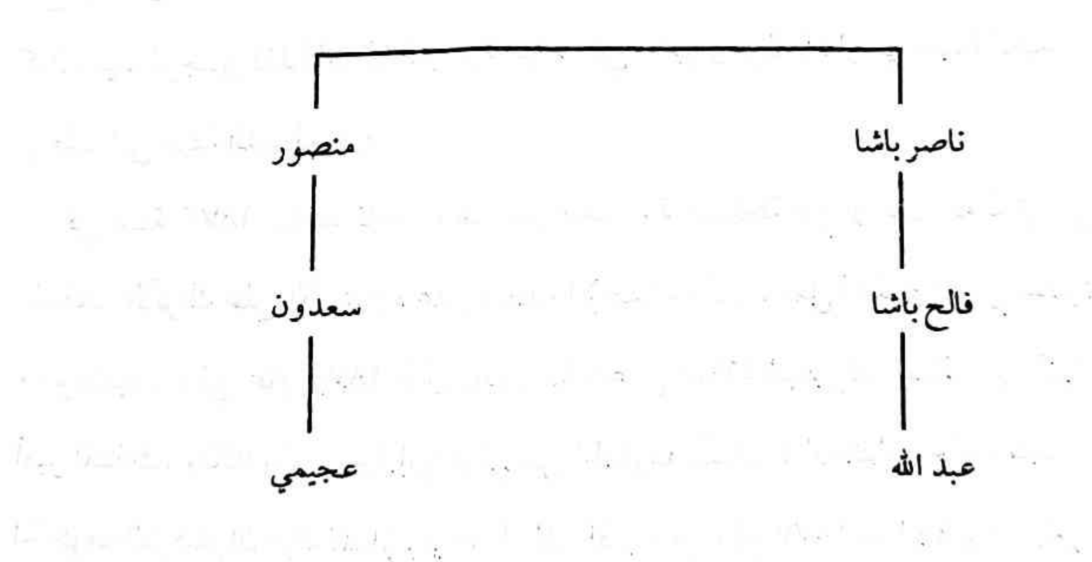
في سنة ١٨٧٢ ساعد ناصر باشا مع مجموعة مسلحة من رجال العشائر من المنتفك الأتراك على الاستيلاء على منطقة الإحساء على ساحل الخليج من بن سعود والوهابيين. وفي عام ١٨٧٥ عُيّن ناصر باشا على منطقة البصرة، إضافة الى كونه أمير المنتفك، ولكنه بخبرته وتجاربه توقع من الحكومة المستبدة ان تنقلب عليه. شعرت الحكومة التركية بان قوته قد ازدادت. لذلك اذلوه في عام ١٨٧٧ ثم اعتقلوه، ونفوه الى إسطنبول حيث أمضى بقية ايام حياته. بعد ذلك بوقت قصير سعت الحكومة التركية ان تدير المنطقة بنفسها ولكن عصيانًا جديدًا قد وقع وذلك بعد اختفاء ناصر. قاومت العشائر بشدة مطالب الحكومة العثمانية وتابعهم سعدون بتوزيع ريع الارض. من جانب آخر مات الأخ الاكبر لناصر وهو منصور الذي كان كثير التمرد والعصيان، فخلفه ابنه سعدون وهو ايضًا كان كثير التمرد والعصيان. وبمناورة من الاتراك نُصّب

فالح بن ناصر اميرًا واعطوه لقب (باشا) وطلبوا منه ان يواصل عمل ابيه الى جانب العثمانيين.

المنتفك الان مقسم الى فريقين من العشائر، فريق يتزعمه فالح باشا بن ناصر مع دعم رسمي من الاتراك، وفريق يتزعمه سعدون بن منصور، وكان شعاره (لا للتدخل التركي).

في عام ١٩٠٠ تحالف سعدون مع مبارك بن صُباح شيخ الكويت، الذي كان خائفًا ايضًا من انتهاك الأتراك لإمارته .

مخطط عائلة سعدون



في عام ١٩٠٣ توجه سعدون بن منصور الى عشائر الشطرة يبحث عن دعم من عشائرها، كانت العشائر الفلاحية لاتزال تميل اليه وتنظر اليه كرأس الرمح لتكتل العشائر التي تقف ضد الاتراك وتدخلاتهم. وقفت معه عشائر بني زايد وخفاجة، وارسل رسائل الى شط الغراف يسال العشائر هناك المساعدة من بني رجاب وعشائر الحُميد. اما عشائر العبودة فقد رفضت مساعدته ومالت الى فالح باشا بن

ناصر والاتراك. مجموعة من ارتال العساكر التركية بقيادة الكولونيل محمد ازلام بيك توجهت الى الشطرة، واندلع القتال بين سعدون تساعده العشائر من جانب، والقوات التركية مع عشائر العبودة من جانب اخر. وفي أتون المعركة وصلت بعض التعزيزات الى سعدون من قبل عشائر بني رچاب فأبيدت القوات الحكومية وقتل الكولونيل محمد ازلام. انسحب سعدون من الشطرة وعَبر نهر الفرات في أعلى الناصرية، ثم انسحب الى حصن كان قد بناه في أبو غار .

بالرغم من كل هذه المعارك الدموية ومقتل الكولونيل محمد ازلام وطابوره العسكري، استمرت المعركة مدة قصيرة كسب سعدون فيها اعجاب والي البصرة. أثار ذلك غيرة وغضب ابن عمه ومنافسه اللدود فالح باشا بن ناصر، ثم عاد سعدون الى الشطرة. استشاط فالح باشا غضبًا عندما وجد ان الاتراك يفضلون سعدون، وأرسل ابنه عبد الله ليقاتل سعدون، ناصرت عشائر خفاجة سعدون، أما عشائر عبودة فقد ناصرت عبد الله. اندلع قتال شديد في شوارع الشطرة. وقد بدا آنذاك أن والي بغداد كان يدعم فالح باشا بن ناصر، في حين ان والي البصرة انحاز الى جانب سعدون. تسبب هذا القتال العبثي في قتل الكثير من الضباط والمقاتلين من الجيش التركي الذي تورط في هذا القتال المجنون، ولكنه ايضًا وضع حدًا لقوة وهيبة عائلة السعدون. من جانب اخر، فقد سعدون بن منصور معظم شعبيته التي اكتسبها من ارتباطه بالعشائر عندما كان قائدا لهم حين قاوم التدخل التركي. إنسحب سعدون بعد ذلك مرة اخرى الى الصحراء حيث الحصن الذي كان قد بناه في ابو غار. والتقى هناك بقبيلة بدوية هي قبيلة ظافر وقد رحبوا به لكونه عدوًا لتركيا غير ان عجرفته ابعدتهم عنه. واخيرًا وصل المتمرد العجوز نهاية الشوط وقد تنقل وحيدًا بين عشائر إزيرج وعشائر حجّام. ومن ثم استسلم للاتراك حيث قاموا سريعًا بأسره ونفيه الى

حلب ومات هناك بعد فترة قصيرة. ظل ابنه الكبير عجيمي في المنتفك، حيث كانت تبدو له إشارات تنذره بمصير مشؤوم كوالده.

عندما نزل البريطانيون في البصرة في الحرب العالمية الاولى، نادى الاتراك العشائر العربية في الفرات للقيام بمقاتلة الغزاة وطردهم، كما فعلوا ذات مرة عندما استدعوا عشائر المنتفك لمقاتلة بن سعود في وقت سابق، غير ان الاتراك كانوا قد دمّروا زعماءهم الذين كانوا قد قادوهم انذاك. وعندما اصطدموا بالجيش البريطاني هزمهم في معركة الشعيبة خارج البصرة.

اعلن عجيمي بن سعدون انحيازه الى الاتراك ولكنه لم يستطع ان يؤدي دورًا مهمًا في العمليات، وذلك لعدم وجود عشيرة تتبعه. في نهاية الحرب العالمية الاولى عاد عجيمي مع الجيش التركي واقام في تركيا. خلال الحرب احتلت بريطانيا ارض الاعداء وقد تعاملت إداريًا مع العشائر. لم تستطع عائلة السعدون ان تقوم باي دور سياسي كما كانت عندما كانت تمتلك القوة والنفوذ.

الكثير من التقاليد التي كانت سائدة سابقًا عبر القرون ظلت باقية حتى سنة ١٩٢٢، اتذكر عبد الله بن فالح باشا كان سائرًا في شارع الناصرية والناس يتدافعون من حوله لتقبيل يده. كما كان شبيب الذي اصر على ان يقوم كل سكان المنتفك بتقبيل يده منذ أكثر من ثلاثة قرون خلت.

رجال الأهوار

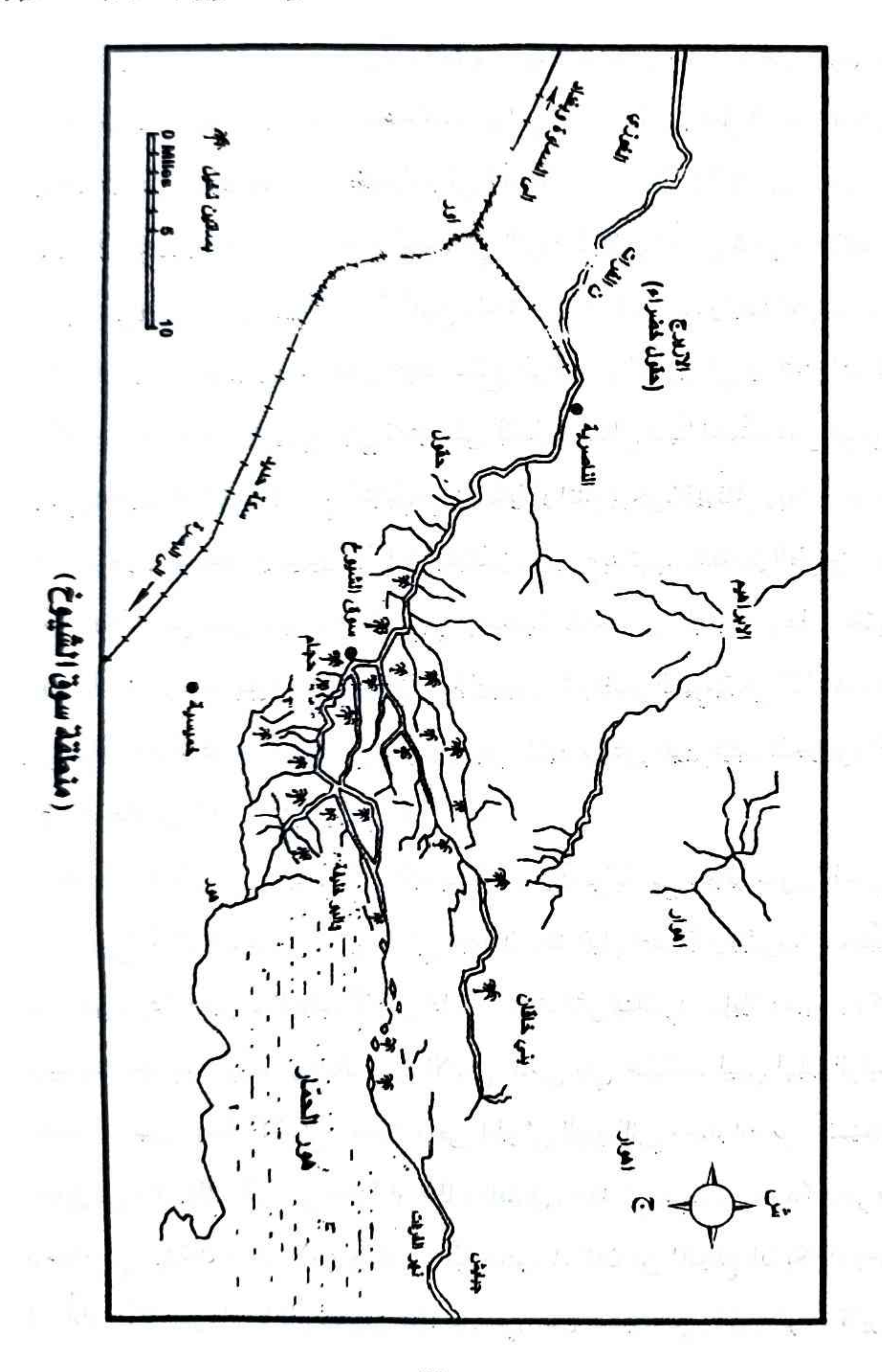
لقد وصفت بشيء من التفصيل المجد والنفوذ الذي كانت تتمتع به عائلة السعدون، وذلك لتوضيح خلفية الغدر والخيانة والعنف والفوضى التي عاشتها والفتها العشائر المحلية ومع اختفاء زعمائهم الاقوياء فإن الفوضى والارتباك قد سادا في المنتفك.

في اليوم التالي لوصولي كضابط خدمة خاصة في المنطقة، وذلك في شهر مايس ١٩٢٢ طلبت الاذن لمقابلة المتصرف وكان معه زميله البريطاني، وهو المستشار الاداري للمنطقة، وكانا يجلسان في غرفة المتصرف .حالما قدمت نفسي سمعت صوتًا عاليا لشخص يتشاجر خارج الغرفة ثم اندفع احد الاشخاص العرب الى داخل الغرفة. لقد اتضح ان احدى الطائرات التي أُرسلت لالقاء القنابل على مجموعة من رجال العشائر المتمردين قد اخطأت هدفها وسقطت على قرية ذلك الرجل، وقد قتلت امرأة عجوز وبقرة. كان وزن القنابل صغيرا يقدر بعشربن باوند، وعمليا لم تحدث اضرار. هذا يبدو مثلًا ممتازا على كيفية ان تكون السيطرة الجوية حيث يجب ان يكون التهديف جيدًا ودقيقا. لحسن الحظ لم اكن قد توليت مهمتي بعد فعزلت نفسي بتواضع في احدى الزوايا من الغرفة ولم انبس ببنت شفة.

يجري الفرات في مجرى ضخم من الحدود السورية حتى جسر الهندية، ثم ينقسم الى عدد كبير من القنوات ويروي منطقة تقدر بمائة وخمسين ميًلا طوًلا واربعين ميلًا عرضًا. مغطاة بحقول الحنطة والشعير والرز، وكذلك يروي بساتين نخيل التمر. هذه

المنطقة تعرف بالفرات الاوسط. في السماوة تتحد فروع النهر مرة اخرى في مجرى واحد ويستمر النهر يجري بهذا الشكل حتى عشرة أميال اسفل الناصرية. في هذه المنطقة يتفرع النهر الى عدد كبير من القنوات، حيث تنتشر بساتين النخيل بكثافة، ثم تتكون الاهوار المليئة بالقصب. والاهوار على شكل مسطحات مائية هائلة، هذه المنطقة من الاهوار تسمى هور الحمّار.

عشائر الاهوار في المنطقة اسفل الناصرية هم خارج السيطرة بدرجة كبيرة. ليس هناك اي اشارات بانهم يحملون السلاح ضد الحكومة بل بسبب ان هناك رؤساء عشائر صغار في الاهوار يعادي بعضهم البعض عداوة مرة. ضفاف القنوات والانهر الصغيرة مغطاة بعدد كبير من اشجار النخيل، اما الاراضي التي تقع بينها فقد زرعت بالرز والذرة والشعير، وعلى الاراضي الصغيرة بين القنوات بنى العشائر ابراج الحرب مع مجموعات من اكواخ القصب حيث تتكون القرى الصغيرة. تندلع المعارك يوميًا تقريبًا، او في الاقل اسبوعيًا بين رجال العشائر. تعتمد حياة المنطقة برمتها على الماء، وغالبًا ما يكون القتال للاستيلاء على ماء اكثر.



(منطقة سوق الشيوخ)

كثيرا ما تحدث هجمات في الليل أيام الحصاد، وذلك للسعي بصمت لجني محصول القرية المجاورة، ثم يحملون الغنيمة عائدين بها الى برج الحرب قبل الفجر. وعندما يتوجه الفلاحون المجاورون الى حقولهم في الصباح. يجدون ان ثمار جهودهم مدة اشهر، قد اختفت اثناء الليل. اما الفاعلون في القرية المجاورة الّذين شعروا بالانتصار على الآخرين، فانهم يرقصون رقصة الفرح، ثم لا تلبث ان تتحول. رقصة الحرب حول برج الحرب. وبسرعه يلوح الخطر حيث ترتفع الرايات والبيارق في بساتين النخيل، ثم تصدح الأناشيد والأهازيج التي تدعو الى القتال وتتعالى شيئًا فشيئًا، ومن ثم يردد النخيل صدى اطلاقات النار من البنادق. بعد ساعة او اثنتين يكون قد قُتل اربعة او خمسة رجال، ثم يأتي السيد ويقف بين الطرفين المتقاتلين، ويقوم بترتيب هدنة بين الطرفين. يعدّ السيد واحدًا من نسل النبي محمد، وهو شخصية مقدسة بين العشائر وهذه الحقيقة تجعله قادرًا على ان يفصل بالنزاع بين المتخاصمين. ثم تظهر الشرطة في المشهد وهي تلّوح بالقوة وبشكل مشوش، ثم يدعون رئيسي المجموعتين المتنازعتين للحضور الى المكتب الحكومي للقيام بالتحقيق في الحادث.

بعد ايام قليلة من وصولي الى الناصرية وصلت برقية من منطقة سوق الشيوخ تفيد بوقوع قتال شديد في عشيرة بني خايقان وقد قتل خمسة وعشرون شخصًا. منذ زمن، وقبل الحرب العالمية الاولى كان آل مغشغش يمتلكون سلطة ونفوذ، وكان لرئيسهم مجموعة مبهمة وغامضة من الاتباع تدعى بني خايقان. ليس لهذا الرئيس سلطة الا على اولئك الاتباع. وعند مجيء الجيش البريطاني وجد انه من المستحيل العمل في مثل تلك الفوضى وانتشار قطاع الطرق. وقد تم تعيين (فرهود) وهو من زعماء بني خايقان لحفظ الامن ومنحه راتبًا حكوميًا. كان من المتوقع ان يكون رجلًا شريفًا، ولكنه سرعان ما قام بسجن منافسيه، في حين كسب هو واقاربه ثروة كثيرة،

وقد التحق بني خايقان بتمرد ١٩٢٠. بعد التمرد تغير الزمن، الوضع الاقتصادي فرض ان يوضع حد لدعم الشيوخ ماليًا. عند عودة الامن صار لزامًا على فرهود ان يجد له بيتًا في قريته ليظل منفردًا معتزّلا الناس. في نفس الوقت كانت هناك عائلة اخرى هي عائلة (عفريت) تزعمت المجموعة المناوئة لفرهود. كان يفصل رؤساء الفريقين المتنافسين والمتخاصمين نهر صغير ساكن الماء، وهو فرع من فروع نهر الفرات، وينظر الواحد الى الاخر عبر بساتين النخيل المحيطة بالمنطقة، وهم ينتظرون اندلاع صراع قادم.

بعد وقت قصير تسلمتُ برقية حول معركة بني خايقان. ارسل المتصرف احد الموظفين الرسميين الى الخصمين المتنازعين لتقييم الموقف، وقد حصلت على الأذن لأرافقه. في اسفل الناصرية قارَب موسم حصاد المحصول على نهايته، كانت هناك على كلتا ضفتّي النهر العديد من قنوات الري، وكانت صالحة للقيام بالتنقل عبرها، وليس هناك طريق أرضي في المنطقة كلها. الفرات وحده هو الطريق الوحيد.

انطلقنا بوساطة زورق بخاري حكومي في وقت مبكر من الصباح ولا يزال الهواء يحتفظ بالبرودة قبل ان يصبح حارًا. كان سطح الماء الفضي في النهر يتموج بين ضفتي النهر الطينيتين، وكان ارتفاعهما ثمانية او عشرة اقدام، وعلى الجرف مع مستوى الماء عدد لا يُحصى من السلاحف وهي مستقرة على الطين. وتنزلق بسرعة مرتمية في النهر بقوة مما يؤدي الى انتشار الماء على شكل رذاذ يتطاير وكأن زورقًا بخاريًا قد مرّ على سطح الماء. تحت الناصرية بعدة اميال تقع مدينة صغيرة تدعى سوق الشيوخ، والتي كانت ذات يوم عاصمة المنتفك في الايام العظيمة لزعامة ال سعدون قبل تدخلات الاتراك والبريطانيين في شؤون العشائر. وقمنا في سوق الشيوخ بالتحقيق ومتابعة تفاصيل الحادث.

لم تتحمل ضفاف نهر الفرات ضغط المياه ايام الفيضان، فتندفع المياه الى الخارج.

تسعى الحكومة الى تقوية السِداد، فتجمع عمّالاً من العشائر. كان الحاج عطشان العفريت قد وصل مع اتباعه فشاهد عدوه واقفًا على ضفة النهر. وضع الحاج عطشان بندقيته على كتفه وضغط على الزناد واطلق النار على عدوه فخر صريعًا. اشعلت هذه الفعلة الحرب وقتل فيها خمسة وعشرون رجلًا.

كانت الحكومة من الضعف الى درجة انها لا تستطيع ان تستعمل القوة مع رجال العشائر، وكل ما تستطيع فعله هو التوسط لعقد هدنة بين الطرفين المتنازعين والدعوة لكلا الجانبين لتوقيع اتفاقية للحفاظ على السلام وأن لا يدع (فورة الدم) الى ان تدفعهم الى اعمال مثيرة. بعد ذلك وجدنا أن نأخذ الحاج عطشان معنا الى الناصرية في الزورق البخاري. طوال الطريق النهري كان حجي عطشان يجلس مع اثنين من رجال الشرطة وطاقم الزورق وهم يحكون له القصص المسلية واصوات الضحكات تتعالى ويتكلمون معه كلاما مضحكا. فكرت وانا متعجب كيف ان هذا الرجل كان ضالعا في عملية قتل وتسبب في معركة راح ضحيتها خمسة وعشرون رجلًا، ويبدو وهو فرِح وجذلان من دون اهتمام. رجال الاهوار ربما كانوا الاكثر وحشية وبذاءة، ولكنهم جميعا يمتلكون روح الفكاهة وعيونهم تومض وميضًا خاصًا.

بعد ستة ايام وقّع كلا الفريقين من عشيرة بني خايقان معاهدة تعاهدوا فيها من الان وصاعدًا ان يعملوا على صيانة السلم فيما بينهم. سُمح للحاج عطشان ان يعود الى بيته، ولم تمضِ سوى خمسة ايام حتى وِجِد مقتولًا. هكذا هي الحياة لدى رجال الاهوار عام ١٩٢٢ في المنتفك.

تعيش عشيرة اخرى هي الحّجام على بعد عدة اميال من برج الحرب العائد لعفريت ومغشغش. انها منقسمة على نفسها ايضًا، هناك رئيسان؛ الاول هو فرهود الفندي والاخر هو حجي ياسر الناصر وهو متحالف مع عفريت، اما منافسوه فقد تحالفوا

مع كَاصد الناهي الذي دخل في معاهدة مع مغشغش. كان كَاصد شخصية معروفة، وله من العمر خمسة وعشرون عامًا، وهو اعور، وله لحية كان قد صبغها بلون احمر برّاق مع الحنّة، وله ثقة غير محدودة بالنفس، وكذلك يمتلك إحساسًا إنسانيًا، وهو بالتأكيد وغدٌ جذِل. لقد نسيت كم من الرجال زعم أنّه قد قتلهم، أعتقد بين عشرين وثلاثين شخصًا. ولكن منافسه حجي ياسر الناصر كان اكثر ضراوة منه. كان قد قاتل في الحرب العالمية الاولى وسار من البصرة الى بغداد وهويقاتل. إنه رجل من سكان الاهوار وقد تهيأت له فرصة للحصول على بندقية بطريقة مشروعة أو (على الاكثر بطريقة غير مشروعة) ولكن حجي ياسر كان قد حصل على مسدس الي الماني الصنع مع ذخيرة كافية وقد درّب نفسه حتى أصبح ليس فقط راميًا من الطراز الاول حسب ولكنه ايضًا اصبح سريعًا في سحب المسدس؛ مما يجعل عدوه غير قادر على مقاتلته. إنه يتبع القاعدة القديمة وهي التصويب على عنق الهدف، والإطلاق على عدوه من مسدسه. عندما وصلتُ المنتفك كان عدد قتلاه ثمانية وثلاثون. بعدعدة اسابيع وصل العدد الى تسعة وثلاثين. لقد جعلته انتصاراته تلك قليل الحيطة وعديم الاهتمام وفي أحد الايام وعندما كان يسير في أحد بساتين النخيل، أطلق احدهم عليه النار من بندقية من خلف الاشجار وانتهى حجي ياسر قبل ان يعلم ما الذي حدث. بعد موت حجي ياسر، بُذلت محاولات لاصلاح ذات البين بين الفريقين المتنازعين من عشيرة الحجّام. استضاف حسين الناصر، وهو اخو حجي ياسر، منافسه كَاصد الناهي الى وليمة بمناسبة العيد واحتفالاً بالسلام بينهما. نُحرت الخرفان ووضعت أكوام اللحم في أواني كبيرة مملؤة بالرز وانتشر رجال العشائر النهمين الذين تربعوا على الارض بشكل حلقات حول الصحون.

كان كَاصد كبير السن كثيف الشعر أعور العين، يلتهم بنشوة طبقًا كبيرًا مملوءًا بالرز

واللحم، وبالرغم من أنه كان مسترخياً فإنه وبطبيعته كان حذرًا ومتوجسًا. وجاء وقت القهوة فجلس كَاصد متربعًا وقد أسند ظهره الى حائط مصنوع من القصب داخل الكوخ. كانت الاقمشة السميكة تغطي جدران الكوخ من الداخل لتمنع دخول الهواء البارد من النفاذ. كان الخادم الأسود التابع لحسين الناصر خارج الكوخ فاطلق النار على الضيف من الخلف.

هذه هي الظروف التي كان يجب عليّ ان أخدم فيها وان أتدرب لأستطيع أن أتعايش مع عرب الاهوار – بعد خمس سنوات وفي عام ١٩٢٧ لم يبقَ شيء سوى الذكريات لتلك الايام الخوالي – إنقصت سنوات عديدة عندما سمعت (الهوسة) وهي تشحن الناس للقتال، وتتردد في بساتين النخيل خارج مدينة سوق الشيوخ، وترتفع عالياً رايات الحرب وبيارقها في القرى.

لقد قيل الكثير عن الاستعمار البريطاني وكذلك عن الوطنيين من العرب. ولكن لم يقل أحد للناس إن قليلين من العراقيين الرسميين المدنيين والبريطانيين قد عملوا بعضهم مع بعض لنشر النظام والقانون وجعلهما يعّمان في تلك المناطق النائية مستعينين بالصبر والتعامل الحسن وغالبًا الابتعاد عن استعمال القوة.

تبدو طبيعة رجال الاهوار مختلفة كليًا عن العرب الاخرين وعن رجال العشائر كلهم من البدو الى الرعاة والى المزارعين. رجال الاهوار يبدون وكأنهم قد نحّوا جانبًا معظم التقاليد العربية، جسين الناصر تلقى نقدًا بسيطًا عن قتله كَاصد الناهي عندما كان ضيفا في كوخه وقد اكل معه الخبز والملح. هي جريمة تعجز الكلمات عن وصفها في عشائر اخرى واماكن اخرى.

كان رجال الاهوار في الفرات الاسفل يعيشون حياة البرية، ملتحين يقضون جل يومهم وهم نصف عراة، يجذفون في زوارقهم (مشاحيفهم)، لا يتورعون عن عمل

اي شيء، حاديّ الطبع ،شجعان، جذلين، ينظر اليهم الاخرون نظرة متدنية، يعترفون بأعمالهم الشنيعة ويسخرون من ذلك.

كثيرة هي تلك الايام الجميلة التي توفرت لي هناك، لا سيما عندما كنا نندفع بتهور بالزوارق (المشاحيف) خلال البردي، وننحدر فوق صفحة الماء اللامعة كالمرآة خلال القنوات المائية بين بساتين النخيل، حيث طيور الحمام وحقول الرز الواسعة .

في ذلك الوقت كنت اتساءل بتعجب كيف يستطيع الرجال أن يعيشوا مع الموت وهو يترصدهم في كل زاوية ؟ ولكن المرء يصبح متعودًا على كل شيء، كما تعود الجنود البريطانيون العيش في الخنادق ، حيث الفرصة ان يبقى حيًا ضئيلة، وكما تعود رجال الغرب الاميركي المتوحش حيث يحمل كل رجل مسدسه، لم تكن تلك الحياة مختلفة كثيرًا.

عند اجتياز سوق الشيوخ يتفرع الفرات الى قنوات كثيرة ثم تتكوّن ،فجأة، غابات من النخيل في مسطح مائي هائل يدعى (هور الحمّار). وعندما ينظر المرء الى الامام فأنه سيرى الماء على مد البصر وهو يغطي الافق. هناك بعض الجزر الصغيرة التي تشكل سلسلة تمتد في الهور.

زرت مرة هذه السلسلة من الجزر التي تمتد في الهور وانا راكبٌ زورقًا رفيعًا يسمى (المشحوف) وهو وسيلة النقل في تلك الاهوار. رجال الاهوار أناس فقراء ولكنهم مضيافون. في إحدى الزيارات لتلك الاكواخ الفقيرة، بعد وجبة تألفت من الدجاج والرز، نمت على الارض، وما إنْ غفوت حتى شعرت بألم وخزاتٍ، لقد كان الكوخ خاليًا وما ان نظرتُ حولي حتى وجدتُ كومة من الحشرات السود الصغيرة بالقرب مني. قفزت واقفًا على قدمي، كانت تلك الحشرات السود التي تتقافز ماهي الا كومة من البراغيث. نزعتُ ثيابي ونفضتها بقوة ثم لبستها وخرجت مهرولًا.

بين اكواخ القرية المصنوعة من القصب، كان عدد من الرجال يرتدون أسمالاً بالية وهم يضطجعون بصمت على الارض، اما الكلاب فكانت تنبح بين الفينة والفينة. القمر يسطع بالسماء الصافية كالبلور، منعكسًا على سطح ماء البركة، وسعف النخيل ساكن بلا حركة.

قضيت بقية الليل واقفا مرة ومتمشيا مرة، ثم اجلس على الارض لتأخذ عيناي سِنة من النوم ثم اصحو مرة اخرى. وفي الصباح شعرتُ بأني قد اصبتُ بالحمى القرمزية. من المحتمل ان دماء رجال الاهوار قد تحولّت الى مادة مضادة للمرض، او قد صارت بغيضة بالنسبة للبراغيث، او ان اجسامهم قد صارت منيعة على لسعة البرغوث. وبينما قضيتُ ليلتي وانا اعاني من الالام المبرحة كان رجال الاهوار ينامون بصمت وبلا انزعاج.

أخبرني البعض ان الرجال العرب، عادةً، ما يستعملون اكياسًا كبيرة من قماش الموسلين (وهو قماش خفيف جدًا) ويضعونها فوقهم في اثناء النوم، ويقومون بربطها من الاعلى، وينزعون ملابسهم ليناموا عراة تحت القماش الخفيف، ويناموا نومًا هادئًا هنيئًا طوال الليل بالرغم من طوابير البراغيث التي تتقافز في الخارج. ولكن اذا أقبل على احدهم عدو وهو نائم عاريًا في ناموسيته فان موقفه سيكون صعبًا.

شمال هور الحمار توجد خمسة اميال من المياه المليئة بالقصب، حتى يصل نهر دجلة الى مدينة العمارة. مما لاشك فيه منذ قرون خلت، كانت المنطقة كلها مليئة بالقرى والحقول، وتروى من نهر دجلة أو نهر الفرات. في بعض المناطق قد يكون الماء ضحْلا، ولكن مشاحيف الأهوار تندفع ميلًا بعد ميل بوساطة عصا الدفع، وهنا وهناك تبرز بعض المرتفعات البسيطة فوق الماء ربما هي بعض من آثار بابل القديمة.

من اجل استكشاف الاهوار الواسعة، من الضرورة، ان تستقل المشحوف. وهو

رزرق الاهوار، يسيطر عليه اثنان من رجال الاهوار، الاول يقف في المنطقة المنخفضة من تقوس المشحوف، والثاني يقف في مؤخرته. الرجلان يحملان عصا طويلة[1] تُقطع من قصب الاهوار، ويتحرك المشحوف عندما يدفعه الرجل بغرز النهاية السفلى للعصا (المردي) بأرض[2] الهور، فيندفع المشحوف برشاقة على سطح الماء. تركنا هور الحّمار الواسع متجهين الى الشمال عبر قناة ضيقة مغلقة من الجانبين بحيطانٍ من القصب، يرتفع الحائط القصبي الى ست او ثماني اقدام. بعض الاحيان تضيق القناة حتى يصبح عرضها بضع اقدام فقط، وفي بعض الاحيان يقوم قائد المشحوف بالاندفاع ببطء من خلال غابات القصب التي تحتك بجانبي المشحوف، وغالبًا ما يرتفع القصب لتحجب اوراقه الشمس. بعد ذلك ندلف الى الاهوار المفتوحة، وتصبح الشمس ساطعة فوق الرؤوس، الموجات الهادئة تتراقص في الاسفل. في بعض المناطق يكون ارتفاع القصب عشرين قدما بل قد يزيد ويكوّن جدرانًا قصبية لا يمكن اختراقها.

هنا وهناك في قلب الاهوار تتجمع أزهار قصيرة السيقان ترتفع قدمًا او قدمين فوق سطح الماء. وعلى المرتفعات الطينية الصغيرة بنيت اكواخ قليلة من القصب، وهناك زرائب محاطة بأرض رمادية اللون تغطيها القذارة حيث يطرح الجاموس فضلاته من الروث. تتكون هذه المجمعات من البشر، والجاموس والكلاب على تلك الجزيرة الصغيرة. يرتفع نباح الكلاب وهي تكشر عن انيابها وينتصب شعر رقبتها واقفًا كلما اقترب غريب لتنبيه اهل الكوخ الى الخطر. هناك بنات يرتدين ثيابًا سودًا

(١) تسمى المردي (المراجع).

(٢) يعني بأرض الهور (قاع الهور). (المراجع).

بالية ورثة وطويلة تكاد تلامس الارض وهن ينتقلن بين الاكواخ يعلو وجوهن وشم نيلي اللون، وتتدلى حلقات ذهبية من انوفهن[1] يحملن في ايديهن اطفالاً رُضّعًا. الذباب يتطاير حول عيونهن، وهناك خُرُز زرقاء اللون مثبتة في اغطية رؤوسهن لطرد الحسد والعيون الشريرة. وبالرغم من ان نساء الاهوار يرتدين ملابس تغطي اجسامهن من اسفل الحنك حتى اخمص القدم، فان رجال الاهوار يقضون معظم يومهم نصف عراة، حيث يلفون قطعة من القماش حول وسطهم كاشفين عن صدروهم سواعدهم ذات العضلات المتصلبة.

من المألوف ان العالم يقرن رجال العشائر العرب مع الصحراء والخيام السود ولكن هنا، في الاهوار، مجموعة من الاسر البدوية يعيشون دائمًا في غابات من القصب. اكواخهم مصنوعة من القصب ايضًا وينتقلون بوساطة الزوارق النحيفة (المشاحيف). يعيشون على ما ينتجه عالمهم المائي ومما يحصلون عليه من الجاموس، وما يصيدونه من السمك بوساطة الرمح ذي الرؤوس الشوكية الثلاثة[2]. الغريب الذي يشاهد هؤلاء الناس لأول مرة الّذين يعيشون في هذه المنطقة الّتي تكاد تكون معزولة تمامًا، ربما يعّدهم من الاقوام السفلى من الناحية البشرية، ولكنه سيكون مخطئا الى حد بعيد. هؤلاء الناس مفعمون بالانسانية، إنهم اناس بسطاء ملتزمون بقيمهم في الضيافة والكرم مع المرح، بصوررة عامة فإن العرب كلهم يعتزون، بشدة، بكرمهم، إنهم ينتفضون إذا شعروا بإهانة او تحقير من قبل الآخرين. وحتى لو كانوا يرتدون الاسمال البالية فإنهم يشعرون بكرامة الامراء. انهم لا يضحكون بصوت

---

(١) يشير الى مايسمى بالشعاعة (المراجع).

(٢) يشير الى ما يسمى عندهم بـ (الفالة) (المراجع).

مجلجل او يلعبون ادوار المهرجين امام الناس. رجل الاهوار يُعد من افقر الناس في العالم العربي، إنه، دائمًا، حاضر النكتة والمرح، إنه دائمًا قريب من الموت وهو غير مكترث به عند القتال بين العشائر او حتى عندما يبحث عن الثأر الدموي. رجال الاهوار يبدون مختلفين عن العرب الاخرين من وجوه متعددة، من الصعب تصديق انهم من اصل واحد. في الواقع كانت هناك قصة تفيد ان احد الخلفاء الاوائل استورد عددًا كبيرًا من الجاموس الذي يعيش في الماء من الهند، وجلب معهم عددًا كافيًا من الهنود لتربيتهم والعناية بهم، مهما يكن من حقيقة اصلهم[1] فانهم يُشكلون مجتمعًا له اهميته. العرب الاخرون اعتادوا ان ينظروا الى رجال الاهوار باحترام اقل. لم اعش مع رجال الاهوار منذ عام ١٩٢٢ ولكني سأذكرهم دائمًا بود.

نزولاً إلى الجذور

في كانون الاول ١٩٢٢ تم نقلي من لواء المنتفك الى الرمادي مركز لواء الدليم، وقد كنت قد عملت هناك عندما كنت مسؤولا عن جسر الفرات، في تلك الايام التي عملت فيها في الهندسة الملكية. ربما من المناسب ان اشرح عن دولة العراق الحديث الذي كان متكوناً من ثلاث مناطق رئيسة، هي المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية وهي منطقة جبلية وسكانها غالبًا من الكورد، ووداي دجلة والفرات الذي يقسم الى قسمين

(١) مهما تكن هذه القصة صحيحة، او لا، فإن القصص التي يتناقلها الناس قد تمثل صدًى لرغبات، أو ايدلوجيات، فهي لا تعتمد وثيقةً يُعتدّ بها. ومهما يكن فالوثائق والترسبات اللغوية خاصة التي يستخدمونها الان تشير الى أن سكان الاهوار الذين يسمون بالمعدان تعود اصولهم الى الجماعة العراقية الاولى؛ السامين (المراجع).

بوساطة خط يمر، تقريبًا، من الشرق الى الغرب خلال بغداد. شمال هذا الخط منطقة تحتوي على تلال متموجة مكسوة بالحصى، وصحراء تمتد عبر الفرات بعيدًا الى الشرق، والى منطقة وراء دجلة. الصحراء بين دجلة والفرات شمالي بغداد تسمى الجزيرة. الارض من بغداد تقريبًا وحتى جنوبيّ وادي دجلة والفرات تحتوي على تربة طينية ترسبت من الماء وهي أرض منبسطة. وهناك افتراض بأن الخليج كان يمتد حتى بغداد، ولكنه تراجع بعد ترسب الغرين الذي جلبه النهران عبر الاف السنين، وان اسم العراق الاصلي يعود الى هذه المنطقة الغرينية وحدها.

يقسم السكان الى قسمين بنفس الخط الذي يقسّم السطح، المزارعون الساكنون على ضفاف الانهار وسكان الاهوار في اسفل بغداد هم المسلمين الشيعة. اما الذين يسكنون شمالي بغداد فهم من المسلمين السنة. من الناحية الدينية فإن الفرق بين الشيعة والسنة هو كالفرق بين الكاثوليك والبروتستانت.

دول جوار العراق هي ايران – بلاد فارس – من الشيعة، بينما الأكراد والأتراك وسكان شبه الجزيرة العربية هم من السنة.

بعد سنوات من هدنة عام ١٩١٨ كانت امم العالم لا تزال تتنازع حول مفهوم السلام. الاتراك لم يكونوا يحركون ساكنا حول قضية لواء الموصل الذي كان مندمجا مع العراق. العلاقات كانت متوترة جدًا، وكان الخوف شديدًا من قيام الجيش التركي بغزو الموصل، وكنتيجة لتاسيس السيطرة الجوية، لم تكن هناك قطعات ارضية في البلد، والجيش العراقي لم يكن قد انشئ بعد.

بالرغم من ان الامبراطورية العثمانية قد تكبدت هزيمة منكرة في الحرب العالمية الاولى فإن تخبط قوات الحلفاء، التي احتلت اسطنبول، والغزو اليوناني للأناضول، بعد الهدنة، حفزت الروح الجديدة للمقاومة الوطنية التركية.

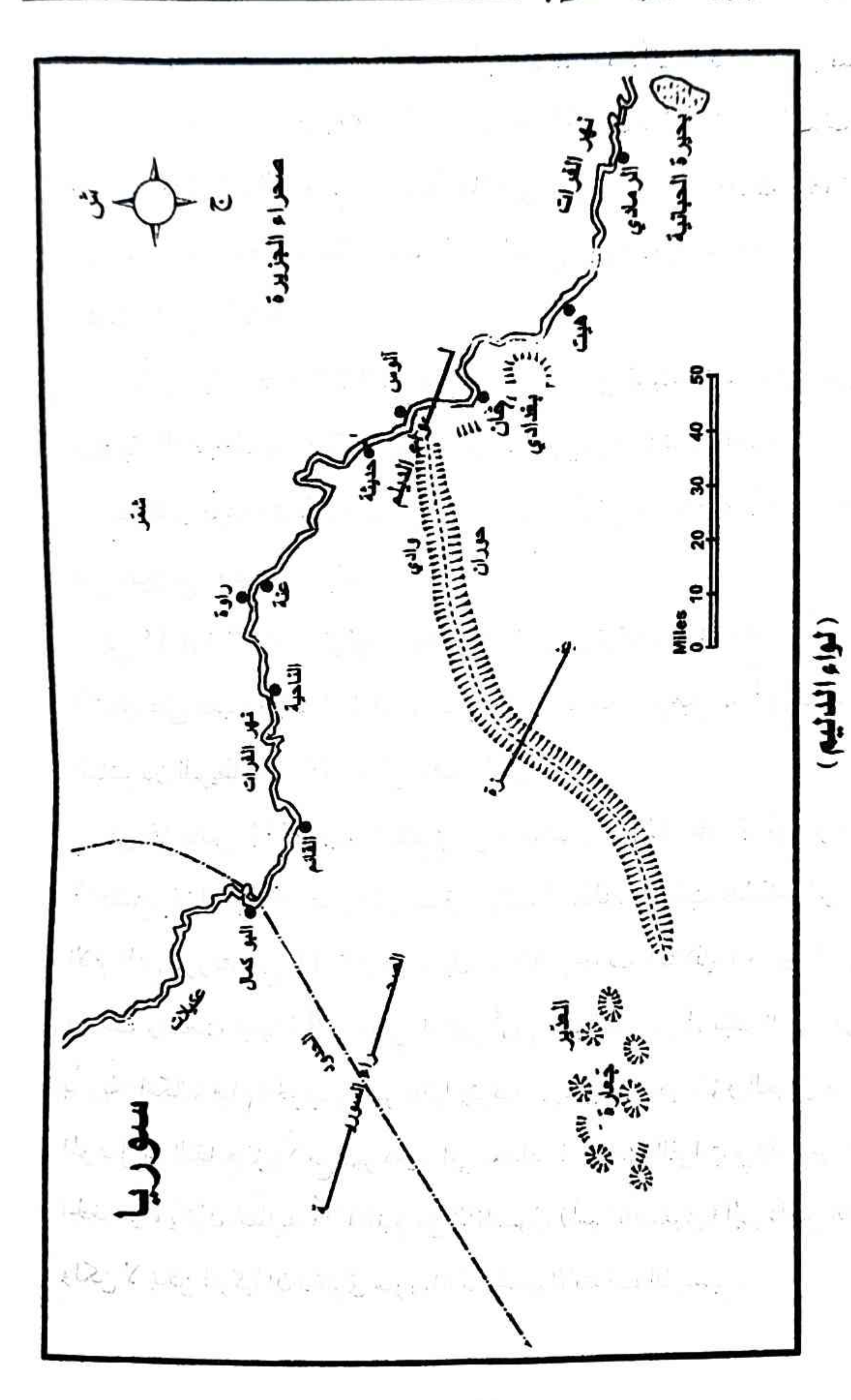
الوطنيون بقيادة مصطفى كمال باشا – عرف بعد ذلك بأتاتورك – وافقوا على تقرير المصير للمناطق العربية ممن كانوا ضمن إمبراطوريتهم السابقة، ولكنهم طالبوا بان تظل تركيا تحكم كل الأراضي التي تسكنها أغلبية من غير العرب المسلمين. هذا المطلب يعني ان منطقة الموصل ستبقى تحت الحكم التركي. بالرغم من ان الحكومة العراقية قد احتلت مؤخرًا المنطقة.

لم تكن هناك اكثرية تركية في منطقة الموصل، بل كانت هناك اكثرية غير عربية إسلامية. الأختلاف يعود الى وجود الكورد الذين لم يستشرهم احد.

حقيقة وجود احتياطي كبير من النفط تحت الارض في منطقة الموصل يدفع الى عمل معين مع الإصرار التركي.

في ٢٤ تموز ١٩٢٣ تم توقيع معاهدة السلام بين تركيا والحلفاء الغربيين. وقد تم الاتفاق على معظم نقاط التفاوض، ولكن مسألة مقاطعة الموصل قد أُجلت للتفاوض المباشر بين البريطانيين والأتراك في وقتٍ لاحق.

في ١٩ مايس ١٩٢٤ عُقِد اجتماع في اسطنبول لمناقشة عائدية الموصل. ولكن الاجتماع فشل في التوصل الى اتفاق. ونتيجة لذلك أُحيلت المشكلة الى عصبة الامم التي قررت في ١٦ كانون الاول ١٩٢٥ وجوب امتلاك العراق للموصل، وبذلك وضعت نهاية لتأزم دولي استمر أربع سنوات، طوال تلك الفترة نوقشت بحُرية؛ إمكانية قيام الحرب بين بريطانيا وتركيا. ربما تقوم تركيا بغزو العراق واحتلال الموصل ثم التقدم نزولاً مع نهر دجلة الى بغداد. أما وادي الفرات فربما، ومن الناحية الجغرافية، يكوّن خطًا بديلًا للتقدم من الاناضول (آسيا الصغرى) الى داخل العراق. ولكن لا يمكن لتركيا ان تخترق سوريا لانها تحت الانتداب الفرنسي.


ش
ج
صحراء الجزيرة
نهر الفرات
الرمادي
بحيرة الحبانية
هيت
البغدادي
الوس
حديثة
وادي
حوران
راوة
عنة
الناحية
نهر الفرات
القائم
البوكمال
سوريا
Miles
0
10
20
30
40
50

(لواء الدليم)

يمتلك لواء الدليم نقاطًا عدائية معينة مع تركيا وذلك لسببين:

الاول: كان هناك عدد كبير من المتنقلين (قادمين ومغادرين) الى اعلى وأسفل الفرات، بين بغداد وحلب، وهناك تقارير عن حركات القطعات العسكرية جنوب تركيا في منطقة أورفا – ديار بكر – ماردين، ربما يتم الحصول عليها من المسافرين من حلب.

الثاني: منطقة الجزيرة منطقة صحراوية بين دجلة والفرات، كانت ممتلئة بالعشائر العربية غير المسيطر عليها تقريبًا. ومن العشائر الرئيسة هي عشائر (شمّر). وكانت هناك شائعات تفيد انه عند مهاجمة الاتراك الموصل فإن هذه العشائر ستثير الاضطرابات، وتقطع خط الاتصالات، والامدادات الطويل بين بغداد والموصل، وربما يكون ذلك بين سامراء والشرقاط.

كان هذا هو الموقف في كانون الاول ١٩٢٢ عندما وصلت الى الرمادي مركز لواء الدليم. من شرق حلب حتى سدة الهندية المسافة هي أكثر من سبعمائة ميل (وهي بقدر المسافة بين لندن وادنبرة مرتين). ويتدفق الفرات في مجرًى ضيق يمتد بين تلال صحراوية من كلا الجانبين، مكسوة بالحصى. طوال هذه المسافة مترامية الاطراف يقع وادي النهر بعرض اقل من ميل، يتكون الوادي، في معظمه، من تلال صخرية، وهناك مساحات صغيرة مزروعة بمساحة مائة ياردة عرضًا بعض الاحيان ولاسيما في انحناءات النهر توجد مناطق سهلية صغيرة. في العشرينات كانت تلك المساحات الصغيرة تُسقى بوساطة (الكرود) وهي رافعات ترفع الماء من النهر بوساطة الحصان. الفلاحون يسكنون خيامًا سودًا مثل البدو، وعندما يرتفع منسوب النهر في فصل الربيع ويفيض على الضفتين يقومون برفع خيامهم ويذهبون مع عوائلهم الى التلال الصحراوية القريبة. ويعيش قرب الفرات، من دير الزور الى الفلوجة، عشيرتان فقط، العكَيدات من دير الزور الى البو كمال. والدليم من البوكمال الى الفلوجة،

وكلتا العشيرتين بنفس الدرجة من التطور.

أمّا من هيت وحتى الفلوجة. فإن إغلبية السكان من الدليم وهم من المزارعين، يزرعون الحنطة والشعير، ويسقون زرعهم من الماء الذي يرفعوه من النهر هناك بعض بساتين النخيل على ضفتي النهر. في الشتاء والربيع تتسبب الامطار بتغطية الصحراء بطبقة من الحشائش الخضر، فتتوغل الخراف بعض الأميال بعيدًا عن النهر، وتُستعمل الحمير لحمل التجهيزات والخيام الصغيرة السود والتي يحتاج اليها الرعاة مع عوائلهم.

يتدفق الفرات شمال هيت خلال مجرّى صحراوي ضيق ذي جرف حاد، وليس ثمة مساحة من الارض تمكن زراعتها على الضفاف. وهذا هو القسم البدائي من الدليم. الناس هنا لا يملكون أرضًا زراعية، وهذا القسم يختلف عن المناطق البدوية الأخرى حيث تكثر الاغنام وتستعمل الحمير لنقل الاحمال وليس الجمال.

تنتقل العكَيدات على طول ضفاف النهر؛ من منطقة دير الزور الى منطقة البوكمال، ويعيشون مثل الدليم في خيام سود، ويزرعون ضفاف النهر، ويدعون أغنامهم في الربيع تتوغل بضعة اميال داخل الصحراء. كلتا العشيرتين، في تلك الايام، تمتلك عددًا لا بأس به من الخيول، لأنها الوسيلة الوحيدة للتنقل هناك وكذلك لرفع الماء من النهر. عبر التلال الصحراوية المتموجة وعلى كِلا جانبي النهر يعيش قسمان مهمان من عشيرتين عربيتين كبيرتين هما (عِنزة) في الغرب و (شمَّر) في الشرق. في زمن الحكم التركي كان البدو يشكلّون مشكلة كبيرة للحكومة. الجَمل هو وسيلة النقل في الصحراء. وعندما يكون الماء نادرًا لايمكن استخدام الخيول للركوب. الجمل لا يمكنه ان يعيش بشكل طبيعي داخل المدن. وتبعًا لذلك فإن الحكومة لا تستطيع استخدام الجمال، وعليه فإن القبائل البدوية فقط هي التي يمكنها ان تتعامل مع الصحراء، ويكون

ذلك مستحيلاً على الاخرين. ينتقل البدو خلف الأفق الصحراوي الأزرق الشاحب، وخارج مدى بصر المناطق المسكونة. بعد اختيار هدفهم يظهرون في الأفق الأزرق بشكل غير متوقع، ثم ينقضّون على القرى ويحملون الغنائم، وفجأة يختفون قبل ان تأتي النجدة للقرى من المناطق المجاورة (قليلًا ما تأتي قوات حكومية) لإنقاذهم. وبما انه لا سكان القرى ولا الحكومة يملكون الجمال، فإن مطاردتهم ستكون مستحيلة. لتجنب مثل تلك الهجمات، كل القرى، تقريبًا، والعشائر التي تعمل في الزراعة كانت تدفع مبلغاً محددًا منتظمًا من المال الى البدو. إضـــــافة الى ذلك فإن قوافل التجار والمسافرين عبر الصحراء كانوا يدفعون مبلغًا معلومًا لتجنب الاذى. تُدفع هـــذه المبالغ الى البدو ويطلق عليها اسم ملطف وهو (خاوة) نسبة الى الأخوة[1].

كان هذا النظام معقداً ولكنه يطبق بحزم. مبلغ الخاوة الذي يتم جمعه من مختلف المناطق يقسّم بين زعماء البدو. احد شيوخ (عنزِة) كان معروفًا باخذ الخاوة من العكَيدات، والاخر كان ياخذ الخاوة من تجار بغداد وتجار حلب. لذلك وقبل ان يشرع التجار بالسفر مع قوافلهم عبر الصحراء يتصلون (باخوانهم) مثل شيخ عنزة ويدفعون له، فيقوم بتعيين مجموعة من البدو يكونون ملتزمين بحمايتهم من أي تدخل من قبل اي فرد من افراد العشيرة. هذا النظام بالطبع هو التزام شرف. يقوم البدوي بحماية (اخيه) حتى وإن كان ذلك سيكون خطرًا على حياته هو.

عنِزة هي مجموعة كبيرة من العشائر تمتد من الحجاز حتى الفرات والحدود التركية.

القسم من العشائر الذي يقطن الصحراء التي تقع مباشرة غرب الفرات يدعى

(١) وتستعمل لفظة (الأخوة) في الجنوب العراقي بتسهيل الهمزة فيقال (الخُوّه) التي أخذت منها كلمة (الخاوة) (المراجع).

(الإمارة) ورئيسها الاعلى هو الشيخ (فهد بن هّذال). فهد بن هّذال كان صديقًا للكولونيل الشهير ليچمان، وقد تلقى دعمًا ماليًا من قبل إدارة اراضي العدو المحتلة. إنه شيخٌ جليلٌ حكـيم كان يبدو وكأنه يعيش على السجائر والقهوة، وقد أكسبه كرمه مكانةً رفيعه وعزًا عظيمًا.

العكَيدات لم تكن راضية بالحماية التي يمنحها البدو وفرض السيطرة عليهم، ربما يعدّونه نوعًا من الإضطهاد. وقد ادركوا ان عنِزة ربما لم تـعد قادرة على ان تعاود الهجوم على المناطق البعيدة نسبيًا من حدود مضاربهم، وتعمل على نصب الكمائن للمسافرين.

كانت سمعة العكَيدات غير حميدة وترفض العشائر الأخرى الزواج من بنـاتهم. هذا الموضوع ربما جعلهم يشعرون بعقدة الدونيّة وبسبب هذا الشعور أصبحوا يتصرفون تصرف المستبدين في الريف، إنهم طوال الوقت يركبون خيولهم ويغيرون على البدو ويقطعون الطرق ويهاجمون الدليم ويسرقون قوافل التجار.

فرّقْ تَسُدْ، أو فرّق وتجنب الخضوع للحكومة، هذا ماكان يصبو اليه العرب كحقيقة سياسية مرة. حدود ما بعد الحرب بين العراق وسوريا داخلت ما بين حدود العكَيدات والدليم.

في الشرق الأوسط، البريطانيون والفرنسيون – حلفاء في مكان آخر – ولكن ونتيجة للتعهدات والالتزامات المضطربة والتي وضعت في أثناء الحرب، سببت الغيرة والريبة بين بعضهم والبعض الآخر. قدرت العكَيدات الموقف سريعًا واستمروا بأعمال السلب والنهب في العراق، في الوقت نفسه ارتفعت اصوات الشكوى من الفرنسيين بأن البريطانيين والحكومة العراقية يحثون رجال العشائر على الإغارة على سوريا.

هكذا كان الموقف العام في لواء الدليم كما وجدته عند وصولي الى الرمادي في كانون الاول ١٩٢٢.

لم تكن واجباتي كضابط استخبارات شاقة عندما بدأت العمل في الرمادي. أقوم بأرسال تقارير بين الحين والآخر، حول حركات القوات التركية في منطقة أورفا – ديار بكر، وكذلك بعض الملاحظات على موقف العشائر الى قيادة القوات الجوية في بغداد، ويبدو ان تلك الملاحظات قد أرضتها .ليست هذه كل واجباتي، فأن الحرب قد تندلع مع تركيا، وقد يخرج موقف العشائر عن السيطرة، أو ربما أُدعى فجأة لوضع كمية من المعلومات او المساعدة على قيادة هجمة جوية، أو قيادة طابورًا من العسكر على الأرض. لذلك الزمت نفسي في أن اتعّرف، بشكل شامل، كلّا من الناس وجغرافية المنطقة التي أقيم فيها.

أشتريت حصانًا عربيًا قويًا كستنائي اللون، واطلقت عليه اسم (الفيل) وذلك لجسمه القوي البنيان الكبير الحجم .وجلبت لخادمي (علي الياسين) دابة طويلة الشعر كستنائية اللون ضعيفة البنية، وهي مغايرة لحصاني القوي البنية الذي يشاركها الاسطبل، واطلقت عليه اسم (الجرذ). اصطحبت علي وهو يركب دابته الجرذ وأنا أركب حصاني الفيل، وقد لففنا اجسادنا بملابس عربية، ولففنا وجهينا بلباس الرأس العربي ولم تظهر إلا عيوننا للناظر .غادرنا الرمادي ونحن نسير على مهل، وكان هدفنا هو الاستكشاف والمغامرة. لم اكن انذاك تنقصني الرغبة في الرومانسية والمغامرة، كشاب إنجليزي في الشرق، أسير راكبا بمفردي في بلد اجهله وهو يغص برجال العشائر المسلحين، ثم اختلط معهم كواحد منهم.

ما إن اجتزنا آخر بستان للنخيل حتى بدت الأرض خالية، وصار سطحها الصحراوي مليئًا بالحصى، وقد وكزتُ برجلي خاصرة حصاني (الفيل) فأخذ يعدو

بأقصى سرعته مبتعدًا في الشمال الغربي. كان حصاني يحمل روح المغامرة ايضًا .لم يستطع علي ان يسرع بدابته فأخذ يضربها بعقبيه وهي، بالرغم من هزالها صارت تعدو سريعًا وهو يلّوح بعصاه التي امسك طرفها بيده اليمنى وكأنه يمسك رمحًا. ظل علي خلفي وهو يصيح بصوت جهير (أنا استسلم ايها الفارس). كنا ننوي أن نمضي الى الحدود السورية في القائم، كانت المسافة مائة وخمسين ميلًا، ولكنها بلا شك ستكون أطول لو اتبعنا مجرى نهر الفرات. كنا نسير في ارض الدليم، في حين أن خادمي علي من العكَيدات العشيرة العدوة للدليم. صحيح أن الحكومة قد فرضت سيطرتها اخيرًا ولم يعد هناك خطر كبير، ولكن مرافقي ظل متجهم الوجه، لكن في الواقع لم يحدث شئ يذكر.

عدد من المدن الصغيرة والقرى متناثرة في اعلى الفرات شمال الرمادي. مثلا هيت، وهي قرية قديمة جدًا تقع على منطقة مرتفعة. وهناك العديد من بساتين النخيل على شاطئ النهر شماليّ وجنوبيّ هيت. فوق هيت اثنتان او ثلاث قرى منعزلة على بعد عشرة او خمسة عشر ميلا، وهناك جزر صغيرة وسط النهر العظيم. التلال المنحدرة في الصحراء والتي يغطيها الحصى لها سفوح عمودية تتصل بالفرات حيث تتراكب فوقها موجات الماء.

منذ الزمن القديم كانت بعض المجاميع تعبر هذه التلال الصفراء وتنحدر الى الأراضي السفلى الصخرية المنحدرة نحو الماء ليسقوا خيولهم وجمالهم.

التجمعات السكانية في هذه المنطقة تتجمع في اماكن محدودة وخاصة الجزر الصخرية الصغيرة، وتتخذ من الطبيعة الجغرافية حامية لهم من عمليات السلب والنهب لممتلكاتهم بالرغم من حالة الفقر المدقع التي هم فيها .

كان الظلام قد أرخى سدوله للتو عندما وصلنا الى ضفة النهر المقابلة لجزيرة

صغيرة في (حديثة). كان النهر منخفضًا والماء قليلا بين الجزيرة وبين ضفة النهر الغربية، حيث تنتصب بيوت قليلة، وقد تعزز هذا المكان بتأكيد الحضور الحكومي ببناء مخفر صغير للشرطة.

كنا منهكين من التعب عندما نزلنا من ظهور الخيل على حافة الماء في النهر. كان الماء يهدر ويزبد وهو يرتطم بالجرف. خرج رجل من أحد البيوت وقد انبثق شعاع من الضوء من فتحة الباب؛ وشقَّ الظلام وسقط على الجرف حيث تتكسر عليه موجات الماء. صاح الرجل(مرحبا يا ولد) أجبناه (مرحبتين بيك) وكرر الترحيب وهو هاشٌ باشٌ متقدمًا نحونا، سائلا من أين نحن أجبناه بأننا مسافران، وسألناه أين يمكن ان نقضي الليل، أجاب عند الرئيس عبد الرزاق، سوف يرحب بكم كضيوف، واستطرد الرجل قائلًا (أنا سأدلكم). خضنا النهر عابرين الى الجزيرة عبر ممر منحدر صخري ضيق. فجأة سمعنا أصواتًا وشاهدنا، بشكل غير واضح، بعض الرجال يتقدمون نحونا وهم يحملون الفوانيس (حيّا الله الضيوف) صاح عبد الرزاق، وفتح بابًا خشبيًا لغرفة ريفية مخصصة للضيوف. كانت الغرفة بمساحة ثلاثين قدمًا طولًا واثنتي عشرة قدمًا عرضًا، مضاءة بضوء خافت بوساطة فانوس موضوع على منضدة صغيرة .وفي وسط الغرفة، على الارض، وضعت منقلة حيث النار تتوهج بلون احمر مائل للبرتقالي وتبعث بعض الحرارة في الغرفة. ليس هناك من مدخنة لذلك فان السقف والجدران قد تحوّل لونها إلى الاسود بسبب الدخان كانت ارض الغرفة غير مستوية تماما، وقد فرشت بقطعة طويلة من السجاد البالي حيث جلس عدد من الرجال وظهورهم مستندة الى الحائط .إجتزنا الباب قائلين (السلام عليكم) وقف الجميع على اقدامهم وأجابوا (عليكم السلام) وجلسنا على السجادة وأسندنا ظهورنا الى الحائط كما هو حال الآخرين. جلس مضيفنا قرب المنقلة وطلب الشاي، وقد وضع بعض الشاي

والسكر في إبريق شاي قد اسوَّد لونه ووضعه على النار، بعد فترة قصيرة كنا نشرب الشاي الساخن المحلى بالسكر، من دون حليب، في اقداح صغيرة يقدر ارتفاعها بإنجين. حصلنا على راحة مناسبة بعد يوم طويل على ظهور الجياد وتحت الشمس، كان ظهري يؤلمني وعيني متعبة جدا بعد ذلك وجدنا شايا حلواوساخنا ونارا موقدة حمراء وحائطًا يسند الظهر. وصحبة مؤنسة تمتاز بالبساطة مع الصداقة، كل ذلك جعل قلبي ينبض بالسعادة. كان الرجال الجالسين مزيجًا؛ ثلاثة منهم او اربعة قرويون من حديثة، إثنان من رجال العشائر يبدو أنهم من الدليم، ومن الواضح انهم بدو. وبالرغم من أن الدليم وعنِزة هم رجال عشائر فإن قليلا من التشابه بينهم. الدليم شبه مستقرين وهم يمتازون بالضخامة، والظاهر انهم يأكلون جيدا، ويلبسون ملابس اكثر، ويضعون على رؤوسهم غترا حريرية ثقيلة سوداء اللون موشّاة بالذهب للزينة وهي من إنتاج سوري، وينتعلون بأقدامهم احذية اوروبية. أما العنزي فكان انحف وأقل حجما وأضعف بنيةكان يلبس دشداشة قطنية بيضاء تمتد من رقبته حتى قدميه، وعلى رأسه غترة قطنية بيضاء بحاجة شديدة الى الغسيل.

كان العنزي يبدو انه شريك لعبد الرزاق، مضيفنا، في ملكية فرس. الشراكة في ملكية الفرس امر شائع عند العرب. هذا لايعني ان الشراكة في تناوب الركوب. انها تتعلق بولادات الفرس. اذا كان شخص يمتلك فرسًا ولكنه لا يمتطيها يوميا ولا يستطيع الاعتناء بها فإنه يبيع نصفها .المشتري يقوم بالاعتناء بالفرس ويركبها ولكن المالك يشترط ان يمتلك هو المُهر الاول الذي تلده، وربما الاول والثاني.

العشائر كوحدة ادارية هي اسهل من الحكومة،الشيخ، من الناحية النظرية في الأقل، منحدر من سلالة العشيرة، وكل فرد في العشيرة هو ابن عمه. وقبل حلول النقل بوساطة السيارات فإن الحاكم او مسؤول المنطقة كان مجبرًا على ان يقوم بجولاته

في المنطقة على ظهر الحصان، ويقضي الليل في القرى ويختلط بالناس، وعليه يكون قد اطلع على طريقة حياتهم ويكون على بيّنة من مشكلاتهم .

ولكن السيارة حلّت محل الحصان، وصار بإمكان الحاكم ان يقوم بزيارة اي منطقة ضمن إداراته خلال ساعة او ساعتين. لقد قامت السيارة بقطع التواصل المتبادل، والذي كان يجمع بين المسؤول والساكنين في المناطق النائية البرقيات والبريد والتليفون قد ادت الى اختفاء نظام الهيمنة القديم تمامًا .السلطات العليا يمكنها الان ان تتدخل بكل شيء عدد كبير من التقارير الشهرية والاحصائيات، تكون مطلوبة من الحكومة المركزية، قد خفصت مستوى مدراء المناطق الى ساعي بريد، فلم يعد لديه وقت يمضيه في تفقد المنطقة التي يديرها. ويقابل الناس ويستمع الى مشاكلهم. ويناقش امالهم وإخفاقاتهم حول نار قهوة المساء، إنه مجبر على التحقق من الحقائق باستدعاء المسؤولين عن القرى المتعثرين في أعمالهم لمقابلتهم في مكتبه.

وقد برز عامل جعل العملية اكثر سوءًا في العراق، وهو الزيادة في العمل الورقي الذي ترافق مع (الديمقراطية) التي ظهرت مع تشكيل الاحزاب السياسية في بغداد، والتي كانت قبلاً قد بدأت تنشأ في مناطق الارياف.

لم أكن مرتبطًا بالحكومة، كانت مهمتي،باختصار، فقط ان أتعرف الناس والبلد بشكل تام. إذا ظل كل شيء هادئا فإن عملي سيكون روتينيا. ولكن اذا ظهرت حالات طارئة او اشتعلت الحرب مع تركيا، فإن معرفتي بالمنطقة ستكون لها قيمة لا تقدر بالنسبة لهيأة القيادة العسكرية، لتوجيه ضربات جوية او في حركة الطوابير العسكرية على الارض. او للهمينة على رؤوساء العشائر.

لقد اصبحت الان واحدًا من رجال العشائراو القرويين او كاحد الشيوخ او الرعاة. لا احد يكترث بشابين يجولان في الارياف. كل شيء كان طبيعيا وودودًا.

لقد كانت السنين الاولى ممتعة جدًا بين العراقيين؛ بين البدوالفقراء وبين الإداريين والرسميين، لذلك فأنا احب ان ابدأ من الجذور.

كلاب وحيوانات

في اليوم التالي نهضنا مبكرين، وودعنا مضيفنا وداعا حارا .وقطعنا طريقا بطول اربعين ميلا تقريبًا مع الضفة الغربية من نهر الفرات الى مدينة (عنه). هذه المدينة كان يجب ان تكون من المدن ذات الخصوصية في العالم، لانها بطول بضعة اميال، ولكن عرضها ثلاثمائة ياردة فقط .السبب في هذا الشكل الغريب أنّها تقع على مرتفع ضيق بين مرتفعات شاهقة للتلال الصحراوية الصفراء وضفة نهر الفرات الهائل. صف البيوت غير متصل على طول الخط .وهناك بيوت متفرقة متداعية ايلة للسقوط، وفي الساحات بين البيوت هناك الخيول وبعض الحمير مربوطة، وهناك ايضا الدجاج وهو يبحث بين الازبال، بعض المساحات المزروعة باشجار النخيل، خرائب خالية، حوانيت مبنية من الطين، وهكذا هو الحال ميلًا بعد ميل. الفرات يتدفق بهدوء خلف البيوت والحدائق.

عنه هي ناحية من نواحي لواء الدليم. رئيس الوحدة الادارية فيها هو القائممقام. وكان قائممقام عنة انذاك هو حميد بيك، وهو رجل قميء متعكر المزاج، عيناه تبدوان مشقوقتين طوليا، أنفه مسطح قليلا وهو ايضا عريض الفم. وبالرغم من انه مولود في بغداد، يبدو كانه تجسيد حي للمنغول تابعي جنكيز خان او تيمور لنك الذي كان لا يعرف غير الذبح والحرق. يقول المثل (حُكّ الاتراك فإنك ستجد التتار) ولكن في حالة حميد بيك ليس هناك من حاجة للحك وبدون ان نذكر اي علامة بينه وبين

اسلافه الهمجيين. فانه يتظاهر بأنه متنور ثقافيا ولم يتعب من اطلاق صفات الجهل على اهالي عنه الفقراء.

هناك نوعان من الإدارة، الاولى هي الادارة الابوية المهيمنة، والثانية هي الادارة الروتينية الجامدة. لكن حميد بيك يمثل نوعًا ثالثًا يمكن ان نطلق عليه الادارة العثمانية العتيقة. انه مثال صارخ لنمط الاتراك الرسميين الذي يبدي الاحتقار للناس الجاهلين من الريفيين. انه نوع من الرجال التابعين للامبراطورية العثمانية عندما كانت قد نخرها الوهن والضعف، وأخذت منها الفوضى كل مأخذ، إنّه يدعي انه يتمتع بدرجة عالية من السلطة المطلقة ولكن بعدوانية وخداع.

رحب بي حميد بيك بحماس واضح، وخصص لي غرفة صغيرة في البناية الرسمية للحكومة لأنام فيها، وهذا يعدّ شيئًا من الامتياز للطاقم الحكومي في عنه، كانت غرفة صغيرة تشبه كوخًا ايلا للسقوط. دعاني القائممقام لتناول الغذاء في داره، حيث دخلنا غرفة صغيرة كانت جدرانها مغطاة بالطين بشكل خشن ومن ثم صُبغت بلون أبيض. وكان الاثاث يتكون من منضدة خشبية غير متقنة الصنع ومغطاة بقطعة من القماش، وهناك ايضًا خمسة كراسي خشبية.

العادة هي جلب انواع مختلفة من الاطعمة بأطباق متعاقبة بوساطة الخدم – هذا في اوروبا – اما في البيوت العربية فإن الطعام تُحضرهُ النساء حيث يتعذر حضورهن عند وجود الرجال من الضيوف. ونتيجة لذلك يوضع الطعام كله على المنضدة مقدما، لحوما، خضراوات، حلويات، فواكه. وعند انسحاب النساء فإن المضيّف يدعو الضيوف للدخول. كان يوجد على المنضدة العديد من انواع الطعام مثل الدجاج ومرق اللحم مع الخضراوات، طماطة، فاصوليا، وكذلك الرز الذي هو اساسي في طعامهم، العراق هو بلد منتج للرز.

بهذه المناسبة تمت دعوة ثلاثة اشخاص هم قاضي عنْه ومدير المالية وأنا. وضع حميد بيك لنا بوساطة الملعقة بعض الرز من طبق كبير، ثم وضع الرز لنفسه، ومن ثم وضع المرق. بعد ان اتى حميد بيك على كل ما في صحنه من طعام قام بملئه ثانية، ثم اخذ القائممقام يثرثر وقد كرر عدة مرات أن اهالي عنْه هم كالكلاب والحيوانات. وقد نصحني ان لا اكلم احدًا منهم، وفي الحقيقة فإنه الح في نصيحته بأن لا اغادر المبنى الحكومي طوال فترة مكوثي في عنه ولكني بالرغم من نصيحته خرجتُ مبكرًا في صباح اليوم التالي كي استكشف المدينة. كانت عنه في العشرينات باقية على عادات العرب القديمة. في الضيافة ليس هناك من حانوت في المدينة يبيع الطعام وليس هناك ايضا من مطعم او محل لبيع الوجبات السريعة. كل العوائل غير الفقيرة تفتح ابوابها، فإذا جاء شخص غريب فإنه يُدعى حالًا كضيف من اي شخص يقابله من السكان. وفي كل بيت يقع على الشارع تكون باب غرف الضيوف مفتوحة للترحيب باي ضيف يمر.

كان بعض اهالي عنْه من التجار الّذين يشترون ويبيعون لرجال العشائر. بعد الانتهاء من الصفقات التجارية فإن الغرباء يحلون ضيوفًا على اهل عنْه. شاهدني احد الرجال الطيبين من اهالي عنْه أسير في الشارع، فألح عليّ ان ادخل داره واشرب القهوة .ولم يمر إلا وقت قصير حتى امتلأت الغرفة بهؤلاء (الكلاب والحيوانات) كما وصفهم لي حميد بيك، ويبدو أنها كانت عواطف متبادلة بين حميد بيك وأهالي عنْه.

سكان المدن الصغيرة في الصحراء مثل عنْه وهيت وحديثة يعيشون على شراء الأغنام والاصواف والدهن الحيواني من رجال العشائر ثم يعيدون بيع تلك المواد في المدن الكبيرة المجاورة. وبثمن البيع يشترون بعض السلع مثل الملابس وغيرها من الاحتياجات ويبيعونها الى رجال العشائر.

كانت حالة الامن في الطرق الصحراوية غير مستقرة حيث كان بالامكان ان تحدث حالات سلب ونهب للقوافل التي تمر عبر الصحراء. كان على القوافل ان تدفع وهي مجبرة أتاوات مالية للعمل على حمايتها. قبل عدة اسابيع قام بدو من شمّر بنصب كمين، والاغارة على بعض السيارات على الطريق بين عنه والقائم، وقاموا بسرقة المسافرين. وفي ضوء التقرير عن هذه الحادثة قام حميد بيك وهو هائج بتجهيز مجموعة من الاشخاص المسلحين مع بعض رجال الشرطة وكأنهم ذاهبون الى معركة، وقادهم لملاحقة المغيرين.

عنٰه مدينة تجارية، غالبًا ما يأتي اليها رجال العشائر، وقد أعلن القائممقام الحرب على عشيرة (شمّر) باجمعها. كان من بين القادمين إثنان ممن قاموا بالغارة وهم ممتطون خيولهم، اوقفتهم الشرطة؛ أحدهم القي في السجن، وتمت مصادرة الحصانين. الرجل الآخر تركوه يذهب الى عشيرته ليخبرهم بأن رجلهم محبوس والحصانين محتجزان حتى تُعاد الممتلكات التي غنموها من الإغارة على السيارة.

عشائر شمّر من العشائر الكبيرة جدًا ومضاربها تغطي منطقة واسعة جدًا وان خبر اعلان الحرب عليهم من قبل حميد بيك يتطلب وقتًا طويلا للوصول اليهم. بعد عشرة ايام كان هناك تسعة رجال من شمّر قد اودعوا السجن في مدينة عنٰه، وقد تمت مصادرة العديد من ممتلكاتهم، التي كانت ثلاثة خيول وخمسة جمال ومسدسين وكيسين من التمور. اعطانا القائممقام الكثير من المعلومات عما كان يجري، وضرب المنضدة التي امامه بقوة وهو يصيح (ها .. أولاد الكلب .. سوف انتقم منهم) التفت يمنة ويسرة وهو ينظر الى مرافقيه وفمه الواسع يتحرك تحت عينيه المشقوقتين طوليًا في وجهه المنغولي. بعد ثلاثة اسابيع من السرقة جاء البدو الى عنٰه حاملين رسالة من (وادي بن علي) شيخ شمّر ومعهم تسع وتسعون ليرة تركية ذهبية. واحد

من المسجونين التسعة عائد لابن علي وقد أُطلق سراحه. بعد ذلك بوقت قصير تم تقديم ثلاثة وسبعين ليرة. وعلى مايبدو تم تسديد قيمة المواد التي سُرقت لذلك تم اطلاق سراح جميع السجناء وبعد ذلك، لم تقع هجمات من عشائر البدو لبعض الوقت.

كنت سائرًا في شوارع عنه ذات مساء، وهي شوارع مرصوفة بالصخر، وكان الليل قد حل على المدينة واذا باحد الاعراب يسير بجانبي ويسحب كمي ثم يهمس بأذني قائلا (كن حذرًا فإن حميد بيك خائن. إنه يكتب للاتراك وهو يدعوهم للمجيء واحتلال عنه) كنت اظن ان ذلك صحيح. ففي مثل هذه الايام حيث لا يوجد استقرار والقلق هو السائد، فإن هذا التتري الصغير من الطبيعي ان يقوم بتوزيع ولائه للجانبين. من جانب اخر، فإن الكثيرين في عنه قد اتعبهم هذا القائممقام وقد اشتكوه مرات عديدة الى الحكومة، وهو رد فعل طبيعي لنعتهم بالكلاب والحيوانات والله وحده يعلم الحقيقة. كان القائممقام مدمنا على شرب العرق، وهو مشروب كحولي يستخرج من تقطير التمور في العراق. وكان يترجاني ان اشرب معه، القاضي لكونه رجل دين كان يكتفي بشرب الشاي، ولكن معاون الشرطة كان يشرب مقدار شخصين. بعد عدة اقداح يصبح القائممقام منتشيا قليلا. كنا نجلس في شرفة المبنى الحكومي المتداعي، ننظر الى بساتين النخيل والى الفرات وهو ينساب بطيئًا وخلفه في الافق التلال الصحراوية التي تبدو سوداء بعد الغروب. يضرب حميد بيك المنضدة بعنف فتهتز الاقداح ويصيح (كلاب .. حيوانات .. سوف اريهم).

جلست على الارض فوق فراشي غير المرتب في إحدى الامسيات، وكتبت في ضوء الفانوس الشحيح في مفكرتي [لقد تم بناء الجو العام للامم منذ قرون، ان لم نقل منذ الاف السنين. ومع تأثير ودرو ويلسن فإن الغربيين استمروا بمطاليبهم بأن

الامم في اسيا وافريقيا يجب ان تقوم بالانفصال الكلي عن ماضيها وان تتبنى المفاهيم الديمقراطية الغربية. الحكومة البريطانية ومعظم السياسين البريطانيين مستمرون بإظهار ازدرائهم لأية دولة لا تنظم حياتها السياسية وفقًا لتلك الحياة المتبعة في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية. أسيكون فعلنا اكثر عمليا إضافة الى كونه سياسيا افضل لو تركنا هذه الامم تحكم نفسها بطريقتها هي؟ عندها سنبدو ليس اقل ضيق افق من حميد بيك الذي كان مقتنعًا بان بدلاته الاوربية وتمشدقه باللغة الفرنسية يجب ان تضعه في مكان مختلف عن اهالي عنه الطيبين].

في ١٠ نيسان ١٩٢٣، وبعد وصولي الى عنه بثلاثة ايام حدثت غارة جريئة هاجم ستة من الرجال الراجلين والمسلحين بالعصي فقط هاجموا الرعاة وهم يرعون ٤٥٠ رأسًا من الاغنام وعشرين رأس من الحمير عائدة الى اهالي عنه، وقد اعطوها للرعاة للخروج بها الى الصحراء غربيّ المدينة بميلين. ساق المهاجمون الرعاة معهم كي لا يعودوا ويخبروا اهل المدينة. وساقوهم مع الاغنام والحمير. في الساعة السادسة فجر اليوم التالي استطاع الرعاة الإفلات فعادوا ليبلّغوا مركز الشرطة في الناحية. تشكلت شرطة الصحراء باجمعها من البدو، وشغلوا مخفرًا في ناحية القائم. ارسلت عنه بعض الرجال من راكبي الجِمال وراكبي الخيول للبحث عن المهاجمين. ليس هناك في الناحية بريد او لاسلكي او تلفون، هناك فقط سيارة تقوم بمهمة ايصال المعلومات.

تبين بعد ذلك ان السُراق ما هم الا ستة فتية من العكَيدات، وإنهم من المراهقين دفعهم حماس الشباب ليستعرضوا رجولتهم، وانهم من سكان شاطئ النهر وليس لهم خبرة بمسالك الصحراء. انهم خرجوا من دون طعام او ماء، وهم غير مسلحين تماما. لقد ساروا في هذه الظروف مائة ميل ثم استداروا معتقدين انهم سيرجعون في نفس الطريق. كان ذلك في الثانية بعد الظهر، مشوا بقية اليوم بطوله وكذلك طوال

الليل وفي صباح اليوم التالي. حتى ذلك الوقت كانوا قد قطعوا ستين ميلا في طريق العودة واصبحوا في شمال شرق مركز شرطة القائم. كان الاولاد هالكين تقريبا من التعب وكذلك الاغنام، ومن شدة التعب امتطوا الحمير. الكل كان يشعر بالضعف والوهن نتيجة التعب والجوع والعطش. قبل الغروب نزلوا من الحمير وكانوا يعانون عدم النوم فلجؤوا الى الظل الذي كونته مجموعة من أكوام الصخور، ثم انطرحوا ارضًا بانتظار قدرهم المحتوم. ولم تمضِ الا ساعة حتى تم اعتقالهم من قبل شرطة الصحراء.

لقد كانت محاولة تنقصها الخبرة والبراعة، ولكنه عمل ينطوي على الشجاعة وقوة العزيمة، لقد نفذّوا عملا لايمكن تصديقه من قبل صبيان لا تتعدى اعمارهم الاربعة عشر عامًا. لقد ساروا مائة وستين ميلا عبر صحراء صخرية متموجة السطح، من دون ماءٍ او طعام في نهار كانت درجة الحرارة فيه ٩٥ درجة فهرنهايت وبدون توقف للاستراحة أو النوم حتى انهاروا و شارفوا على الهلاك.

عادت شرطة الصحراء بفخر مع الاسرى. احد الاسرى هرب في اثناء الليل، وهو صبي في الخامسة عشرة من العمر، ولكنهم عثروا عليه بعد اربعة وعشرين ساعة وهو مستلقٍ في الصحراء وفي حالة هذيان مع فقدان الوعي.

بالرغم من ان القبائل يغزو بعضها بعضًا، فإنها تمتلك اصولا تتعامل بها كقواعد. مثلا اذا أسر الدليم صبيانًا من العكَيدات، عليهم ان يعاملوهم كضيوف، ويتركوهم يرتاحون ليوم او اثنين في الخيمة ثم يزودوهم بالطعام والماء يكفيهم في اثناء الرحلة الى ديارهم. ولكن الذي حدث ان اولئك الصبية قد تم اسرهم من قِبل الحكومة التي تنوي جلب الحضارة لهؤلاء الجهلة المتوحشين.

عند وصول الغزاة الى عنه، كانت اياديهم مشدودة خلف ظهورهم وترافقهم

الشرطة وقد امتطوا جيادهم. كان ذلك دليلًا على عربدة تتسم بالوحشية. تجمع سكان عنة واحاطوا مع الشرطة بهم وهم مرتبكون تبدو عليهم علامات الارهاق الشديد نتيجة سيرهم لعدة ايام وهم جياع وعطاشى. لقد كان الاسرى اقرب الى الموت منهم الى الحياة وهم في هذه الحالة كانوا يتلقون الضرب والركل. وجاء رئيس العرفاء في شرطة عنه وهو يحمل بيده عصا طويلة، وقام بضرب كل منهم حتى كلت يداه. واخيرا رموهم في السجن.

في صباح اليوم التالي دعا حميد بيك حشدًا كبيرًا يقدر بمائة رجل الى مبنى الحكومة. ثم سحب الضحايا الى خارج السجن وجردوهم من ملابسهم حتى وسطهم، ثم دفعوهم حتى انكبوا على الارض ووجوههم الى الأسفل، وكان شرطيان لا يسمحان لأحد منهم ان يرفع رأسه أخذ القائممقام يطلب من الناس ان يشاركوا بجلد السجناء مع الشرطة، بعد ذلك ظهرت اثار الجلد على ظهورهم. ظل الناس يتوافدون على المكان، بعضهم من الموظفين الحكوميين بملابس اوربية. بعد ان كاد يُغمى على السجناء وقف حميد بيك على رؤوسهم تعلو وجهه تكشيرة خبيثة وصاح بنشوة (كلاب حيوانات .. هاها تسرقون الأغنام؟ خذ هذه .. إضرب ايها الشرطي اقوى. اولاد الكلب سوف اريكم) طوال العرض الذي قدمه حميد بيك، كان الفتية الضعفاء صامتين من دون بكاء او عويل ولا حتى زفرة خرجت من بين شفاههم، بعد ذلك جروهم الى السجن جرا. شعرت بالمرض تمامًا بعد هذا التهريج غير المتوقع. لقد بدالي الامر بسيطا جدا عندما قدمت الى العراق وشعرت بالرضى. كم ستكون الخدمة عظيمة عندما يقوم الانسان بمساعدة هؤلاء الناس وينورهم لوضع حد للسلب والنهب والتقاتل، ويقوم بقيادة رجال العشائر البدائيين ليحترموا القانون ويعيشوا اناسًا متنورين، ولكن هنا مجموعة من الصبية قاموا بالسرقة مع شعورهم بالبطولة،

في حين ان من يمثل الحضارة ويتحدث عنها هو من الساديين الذين يتلذذون عندما يقومون بتعذيبهم. في حين ان هؤلاء الصبية لو القي القبض عليهم من قبل رجال العشائر (المتوحشون) لكان قد تم العفو عنهم واعيدوا الى ديارهم.

كان حميد بيك يرمي الى ان تؤدي افعاله تلك الى استتباب الامن العام، وان يصبح الجميع مهتمين بذلك. وستكون النتيجة قوة معنوية له تؤثر في الناس وفي مراجعة الاعلى، ومن ثم يتفهمون ما يقوم به من اعمال. كانت ردود فعل القائممقام تنسجم تمامًا مع الخط العثماني في الادارة المتبع منذ قرون. العشائر لا تذعن للحكومة لذلك يجب تدميرها. ان مصالح العشائر ومصالح الحكومة متعارضة تماما. الاذعان من العشائر للحكومة في عرف العشائر هو اعتداء من الحكومة عليهم.

من دون شك كان حميد بيك متمكنًا من الناحية الرسمية، ولكن من وجهة نظره هي نوع من الازدراء واحتقار الناس في منطقته (إنهم لا يتمكنون من الحديث باللغة الفرنسية،ولا يمكنهم ان يذهبوا الى اسطنبول) انه مصمم على ان يحكم وهو بالفعل يقوم بذلك، ولكن حكمه كان عدوانيا يستند على البطش.

لقد بدا لي – حسب رأيي الشخصي – ان العثمانيين ومن يتبعهم من العرب، واغلبهم قد حكموا تحت إداراتهم، يفتقرون الى النظرة الايجابية وان العرب – حسب رأي العثمانيين – متمردون يخلون بالنظام، وهم لذلك يجب ان يُسحقوا. لا احد ابدًا يفكر ان يحول رجال العشائر من رجال يعيشون خارج القانون الى عكس ذلك، ويقودهم الى الطريق القويم والحياة الجديدة هذا يتطلب قيادة ايجابية تتمتع بروحية تتعاطف مع الناس. وهذا غير متوفر حتى الان تماما السياسة هنا دائما محدودة هدفها سحق المعارضة. العنف ربما هو نتيجة دائمة لفقدان القيادة الايجابية. الديمقراطية، للاسف، انتجت سياسيين فقط وليس رجال دولة.

في احد الايام سمعنا ان اغنامًا للدليم كانت في احدى مخيماتهم في الصحراء تبعد عدة اميال غرب عنه. علي الياسين وانا خرجنا لزيارتهم بعد الظهر ولقضاء الليل عندهم. وجدنا عندهم بعض الضيوف وهم مجموعة صغيرة من الدراويش ينتمون الى إحدى المجموعات السورية على نهر الخابور، ويطلقون عليهم ابناء شيخ عيسى، بعد الغداء اقاموا حلقة للذِكر اخذوا ينقرون على الدفوف وينشدون بعض الاشعار. بدؤوا بالإنشاد ونقر الدفوف بهدوء ثم مالبثوا ان اسرعوا واخذوا يرفعون اصواتهم شيئًا فشيئًا حتى وصلوا الى الذروة. كل واحد من الحاضرين شعر في حينها بالخوف داخليًا. احد الشيوخ وقف ثم امسك بيده سيخًا من الفولاذ طوله اربع اقدام تقريبا، وفتح ثيابه من الامام واخذ يتحسس معدته بخدر حتى يبدو انه وجد المكان بالضبط .بعد ذلك وضع ذبالة السيخ بعناية فق نقطة محددة من جانب بطنه، وجعل السخ يمتد بشكل افقي تماما، في نفس الوقت صعّدَ ناقروا الدف والمنشدون من نشاطهم بانفعال واضح ثم وقفوا على ارجلهم. فجاة انحنى الرجل الى الامام فصارت نهاية السيخ على الارض، وصار ثقل الرجل على السيخ، اخذ السيخ يدخل بطنه شيئًا فشيئًا حتى خرج من ظهره بطول ستة انجات تقريبا. كنا جميعا جالسين حول نيران المخيم، وكان الرجل يبعد عنا بحدود اربع او خمس اقدام، وقد اقتنعت من دون ادنى شك بان السيخ قد اخترق جسم الرجل، وقد شاهدته يخرج من ظهره. ثم استوى الرجل واقفًا والسيخ يخترق جسمه داخلًا في بطنه وخارجًا من ظهره بشكل افقي. بعد ذلك وضع الرجل كلتا يديه على معدته وصار يضغط عليها من الجانبين، قام مساعده بسحب السيخ تدريجًا واخذ الرجل يعطيه بعض التعليمات قائلاً (حسنًا اسحب .. اسحب بهدوء.. قف .. حسنا) حتى تم سحب السيخ بهدوء وتدريجًا من جسمه. بعدها جلس بالقرب من النار، وكان يبعد عني نحو اربع اقدام. لاحظت ان يديه

ترتجفان. ثم شرب القهوة، وشيئا فشيئا عاد الى هدوئه. عليّ ان اعترف هنا ان السيخ قد اخترق جسمه.

نمنا تلك الليلة مع رعاة الدليم، وفي صباح اليوم التالي عندما كنا عائدين الى عنه سألت عليا ان كان السيخ قد نفذ فعلا في جسد الدرويش. اجاب بان ذلك حصل فعلا. وسالته هل تستطيع ان تجعله يخترق اي مكان من جسمك ؟ اجاب هناك مكان واحد فقط .وفتح الجزء الامامي من ثوبه وقال لقد عشتُ مع ابناء الشيخ عيسى حينًا من الوقت عندما كنت صبيًا، وقد رغبت في ان اصبح درويشًا وتعلمت طعن نفسي. ويمكنك ان تشاهد هنا الندبة قرب معدتي. لم ارَ واسمع مرة اخرى عن مثل هؤلاء الدراويش في اية دولة عربية.

فوق عنٰه بأميال قليلة، ومقابل ضفة نهر الفرات تقع مدينة صغيرة تدعى (راوة). اهل راوة يختلفون في طباعهم عن اهل عنٰه إذْ إنهم حسنو المعاملة. يمر طريق القوافل من بغداد الى حلب عبر عنٰه منذ اربعة الاف سنة. الكثير من العانييّن يعملون كتجار او رجال قوافل وهم يزورون المدن في العراق وفي سوريا على حدٍ سواء. الناس في راوة يعيشون في الضفة الشرقية لنهر الفرات، والماء يفصلهم عن العالم الكبير وعن التجارة مع المدن. انهم يتعاملون في معيشتهم وتجارتهم مع العشائر البدوية في صحراء الجزيرة، ولا سيما عشائر شمّر وهم اقل حضارة واكثر خشونة من اهالي عنٰه.

راوة ايضًا مركز لفرقة من المسلّمين تحت قيادة روحية لرجل ضئيل الجسم كبير السن يدعى الشيخ محسن. وقد قمت بزيارة هذا الشيخ الوقور في احد الايام. دخلت الى غرفة الضيوف في بيته الواقع في شارع ضيق مجاور نهر الفرات الذي يهدر في مجراه. كان الشيخ رجل دين ذا مكانة خاصة عند اهالي راوة. كان بيته

مفتوحًا دائمًا، وباب غرفة الضيوف مفتوح ليل نهار، والجميع داخلون خارجون كما يحلو لهم. ابريق القهوة جاهز دائما على النار لسقي الزوار. كان الشيخ محسن ناسكًا معتزلًا الناس، وهو لا يملك شيئًا، اما مواد الضيافة فياتي بها الناس الى غرفة الضيوف. وحتى عندما كنت جالسًا في الغررفة جاء احد رجال العشائر وجلب نصف كيس من الطحين. بعد ذلك بنصف ساعة جاء نجّار فقير من اهالي راوة جالبًا كيسًا صغيرًا من القهوة.

جاء الشيخ وجلس معنا لوقت قصير، وكان قليل الكلام، وقد بدا إنه بلغ من العمر عتيا. كان نحيّلا ضئيل الجسم ذا بشرة جافة شاحبة كانها بشرة رجل ميت. وبالرغم من كبر سنه فإنه لا يزال يسبحُ في نهر الفرات كل صباح عند الفجر، حتى عندما يكون الجو شديد البرودة في فصل الشتاء، علما ان ماء النهر ياتي من منطقة جبلية ثلجية في اسيا الصغرى حيث ينزل الثلج شتاءًا. ابتسم لنا الشيخ محسن ابتسامة خفيفة، وهو الناسك الذي يعيش في الصحراء الصخرية حيث ينساب الفرات .

قمنا باستكشاف جزء من لواء الدليم من مدينة الرمادي الى الحدود السورية. وعلينا الان ان نستطلع الجزء الجنوبي من لواء الدليم وهي المنطقة الواقعة بين الرمادي والفلوجة. انحدرنا، علي وأنا، مع نهر الفرات الى الجنوب الشرقي، من الرمادي في المساء وصلنا خيمة كبيرة سوداء تعود للشيخ حبيب الشلّال شيخ البو محمد،وهم قسم من عشائر الدليم. بعد عشاء كبير تكوّن من الرز واللحم المطبوخ، جلسنا نتحدث داخل الخيمة وعلى الضوء المرتجف الصادر من النار تحت اباريق القهوة، وقد سالتُ عن تاريخ عشائر الدليم، استدعوا شيخًا ذا لحية بيضاء ليخبرنا عن الزمن الماضي، جلس الشيخ قبالتي وصار وجهه المدور المكسو باللحية البيضاء مقابل وجهي، وبدا يروي رواية رومانسية هي رواية موزة الجميلة.

في الايام الغابرة حين كانت عشيرة زبيد كبيرة الحجم وعظيمة الشأن تسكن في اراضيها القديمة الواقعة وسط الجزيرة العربية في نجد، كان هناك احد الشيوخ وهو جبرين وكان لديه ثلاث بنات، كانت البنت الكبرى تدعى موزة وهي جميلة جدًا لا توجد فتاة تضاهيها جمالا. اراد ان يتزوجها واحد من ابناء عمومتها، ولكن ابناء العمومة الاخرين اقسموا ان يقتلوه ان هو تزوجها. سيكون، اذن، هناك سفك للدماء بين العائلة. وهنا قالت زوجة الشيخ لزوجها: يجب ان تعمل شيئًا للحيلولة دون سفك الدماء. علينا ان نطوي خيامنا غداً وننسل هاربين ونذهب الى منطقة بعيدة حيث نكون غرباء بين القبائل في ذلك المكان البعيد. وبعدها اي واحد من ابناء العمومة سيلحق بنا فإن معنى ذلك أنه عاشق حقيقي وهو حينئذٍ يستحق ان يتزوج موزة الجميلة.

في اليوم التالي طووا خيامهم وجمعوا امتعتهم وحملوها على الجمال واستعدوا للرحيل، غير ان رجالًا من العشيرة جاؤوا الى جبرين وقالوا له الى أين أنت ذاهب يا جبرين؟ اجابهم جبرين، لقد وجدتُ واديا خلف ذلك التل، وقد نما فيه العشب الأخضر حيث سنرعى إبلنا هناك،وسأنقل خيمتي لأنصبها هناك. فقالوا له في أمان الله. ولكنهم عندما ذهبوا وراء التل ظلوا يسيرون عدة ايام حتى وصلوا ضفة نهر الفرات حيث مضارب قبيلة (مرعي) ونصبوا خيمتهم بالقرب من خيمة الشيخ. نظر الشيخ (مرعي) من خيمته فشاهد خيمة غريبة قد نُصبت، فنادى امرأة عجوزًا من اهل بيته وامرها ان تذهب لتزور الخيمة الجديدة وتاتيه بأخبارها، ومن هم الغرباء الّذين حطوا تحت حمايته.

كانت موزة جالسة على الارض داخل الخيمة في الجزء المخصص للحريم وأمامها القران الكريم على منضدة القراءة. كانت ضفيرةُ شعرها تتدلى و تكاد تلامس الارض عندما دخلت المرأة العجوز الخيمة وشاهدت موزة جالسة على الارض وضفيرة

شعرها تتدلى حتى الارض. عادت العجوز مسرعة الى الشيخ وقالت له: (والله في هذه الخيمة فتاة لا توجد فتاة اخرى بحُسنها) .

في اليوم التالي زار شيخ عشيرة مرعي الخيمة وجلس في قسم الرجال وشرب القهوة ثم غادر. في اليوم التالي قام بزيارة جبرين مرة اخرى وقام بذبح جمل صغير واقام وليمة كبيرة وبعد الوليمة قال الشيخ (انا اريد ان اتزوج ابنتك، يا جبرين، وسأدفع لك، مهرًا، مالاً كثيرًا، اطلب اي مبلغ تحب وستحصل عليه اذا زوجتني ابنتك، وليس لك ان ترفض، لك هنا خيمة واحدة وليس لك من ناصر، وعشيرة مرعي تحيط بك من كل جانب عديدها بالالاف، وانت وحيد لا يمكنك قتال العشيرة كلها، واذا حاولت الهرب فيمكن ان أجهز ضدك مئات الفرسان للأمساك بك).
ولكن جبرين رد عليه بأن الفتاة لها ابناء عمومة من الزبيدات يريدون الزواج بها، ولا يمكن ان ازوجها الى غريب. رد عليه الشيخ قائلا والله العظيم لا شيء سيحول دون زواجي منها، رد عليه جبرين أعطِني ثلاثة ايام لأفكر في الامر، فاجابه الشيخ، حسنًا لك ذلك.

تشاور جبرين مع زوجته عما سيعمله. اشارت عليه الزوجة ان يوافق على تزويج الفتاة للشيخ ويأخذ منه النقود لانهم لا يستطيعون ان يقاتلوا العشيرة كلها او يقوموا بالهرب، ولكن الزوج رد عليها، والله هذا لا يحصل، وسأقوم بقتالهم. وفي اليوم الثالث لبس جبرين درعه وحمل رمحه ثم امتطى فرسه، وقال، لقد اخترت القتال ضد قبيلة مرعي. فقاتلهم فردًا فردًا بطريقة التحدي بعد ان تحدد ميدان القتال، صرع ثمانية، منهم ولكن التاسع استطاع ان يطعن جبرين برمحه فخر صريعًا من فوق فرسه. بعد ذلك جمع الشيخ عشيرته في خيمة الشيخ الكبير وشربوا القهوة. غطت موزة وجهها وجاءت الى الخيمة وقالت: السلام عليكم ردوا عليها: وعليكم السلام، وقالت: يا

شيخ لدي عندكم طلب، اجابها الشيخ قوليه. قالت امهلنا اربعين يوما تمر اربعون ابي، بعد ذلك افعل ما شئت. اجاب الشيخ، ذلك على رأسي، سيكون ذلك لكِ.

عادت موزة الى الخيمة وجلست وكتبت رسالة الى (ثامر) و (جبر) و (جناب) ابناء عمومتها، وهم شيوخ عشائر زبيد، وشرحت لهم في الرسالة كيف ان والدها جبرين قُتل وليس لها غير الاربعين يوما وسيجبرها شيخ عشيرة (مرعي) على الزواج. ذهبت الى ناقتها وطلت وبرها بالنفط الاسود حتى بدت وكأنها ناقة جرباء. طوت الرسالة ووضعتها تحت السرج ثم تركت الناقة لتأخذ طريقها. سارت الناقة جنوبًا نحو ديارها القديمة في مضارب (زبيد) وكانت تتبع الطريق نفسه حيث جلبهم (جبرين). عندما كانت الناقة تقترب من مضارب القبائل او تأتي الى الابار في الصحراء كي تشرب الماء وتستريح من السير، كان الناس يصرخون انها جرباء لا تدعوها تقترب من قطعاننا، ثم يقذفونها بالحجارة ويضربونها بالعصي، وظلت الناقة تسير نحو الجنوب. وفي احد الايام كان شيوخ (زبيد) واقفين قرب احد الابار في الصحراء وضوء الشمس يتوهج وقت الغروب، وهم ينظرون الى الرعاة والخدم يسحبون الماء من البئر بوساطة الدلاء الجلدية ويسكبونه في الاحواض سمعوا صوت ناقة يصدر من منطقة قريبة. كانت ناقة موزة تعرف ذلك البئر لانها كثيرا ما شربت منه، ولكن عندما اقتربت من البئر وشاهدها القوم صاحوا انها جرباء .. ابعدوها .. ولكن (ثامر) شاهدها وعرف انها تكاد تموت من شدة العطش، ولكنه لم يعرفها اولا وقال: حرام ان تمنعوها من شرب الماء، اتركوها تشرب، ولكن ابعدوها من قطعاننا. تركوها تقترب من حوض الماء ثم تشرب وتشرب لانها كانت عطشى بسبب سفرها البعيد ولم تتمكن من تذوق الماء منذ مغادرتها مضارب (مرعي). امتلأت معدة الناقة بالماء واطلقت زفرة عظيمة ثم تحرك السرج من على الناقة ومال ثم سقط على الارض، وسقطت الرسالة

ايضًا. قرأ ثامر الرسالة وكذلك جبر ووجداها من موزة تخبرهم فيها عن كل ماحدث وكيف مات جبرين وليس لديها الا اربعون يوما وبعدها تُجبر على الزواج من شيخ عشيرة (مرعي).

تداعى القوم في ما بينهم واخرجوا راياتهم وجمعوا قومهم وغادروا مضاربهم. سارت ناقة موزة امامهم وسلكت الطريق نفسه. كل ليلة يضعون الناقة وسط خيمة مخافة ان تهرب ويعدموا الدليل. بعد عدة ايام وصلوا الى ضفة نهر الفرات. لم ينم ثامر تلك الليلة، وبينما هو سهران لاحظ الناقة وهي تجهد نفسها لتنهض وتحل وثاقها لانها كانت مربوطة من ركبتها، ولا تستطيع فكاكا، ومن ثم النهوض والسير. ادرك ثامر بأن المكان بات قريبًا، وان الناقة ادركت انها تستطيع الوصول اليه هذه الليلة ولا حاجة لمسير يوم اخر. ايقظ ثامر خاصّة رجاله، وفك وثاق الناقة وتركها تسير وهم وراءها وتركوا بقية القوم نائمين. تبعوا الناقة في ظلام الليل، ثم سمعوا نباح الكلاب عن بُعد، طلب ثامر من رجاله ان ينبطحوا على الارض، في حين قام وحده، بالسير خلف الناقة وعلى مسافة شاهد هياكل معتمة لعدد غير محدود من الخيم. ثم قادتهُ الناقة الى احدى الخيم التي كانت معزولة بعض الشئ عن الاخريات، وكانت خيمة منخفضة، وقفت موزة امام الخيمة وهي تندب وتبكي وقد امسكت بحبل الخيمة وهي تحدق صوب الجنوب لقد انقضت الاربعون يومًا، وغدًا ستُزف الى شيخ عشيرة (مرعي). عاد ثامر الى خاصة قومه وقادهم بهدوء الى خيمة موزة واشارت اليه على خيمة الشيخ الكبير لعشيرة (مرعي) والى خيم الشيوخ الاخرين. هجم ثامر وقومه على الشيوخ وهم نيام فذبحوهم جميعًا وكانت مذبحة عظيمة .

في صباح اليوم التالي عندما استيقظ (جبر) واخوه (جناب) ووجدوا ان الناقة غير موجودة، وان ثامر ورجاله قد اختفوا هرعوا الى اسلحتهم وحملوها وذهبوا

الى مضارب عشيرة مرعي. وجدوا ثامر يدق القهوة في هاون ضخم في خيمة شيخ عشيرة مرعي الكبير.

ثامر هو الجد الاعلى للدليم واخواه (جبر) و(جناب) هم الاجداد الاوائل للجبور والجنابيّن وهم لايزالون يقطنون نهر الفرات. صمت الرجل العجوز الذي كان يروي القصة، وخلال الرواية لم ينبس احد ببنت شفة من الرجال الحاضرين في الخيمة الكبيرة. وعندما انتهت القصة كسر صوت مضيفنا الصمت قائلا (اسقنا مزيدًا من القهوة .. ضع خشبًا على النار.. لا نريد ان ننام هذه الليلة المقدسة).

تخويل بالغزو

لم تبذل الادارة التركية اية محاولة للسيطرة على العشائر البدوية في الصحارى وقد ظل الجمل هو الوسيلة الوحيدة للتنقل. واصبحت عمليات السلب والنهب من قِبل البدو للمناطق الزراعية لا تُطاق. قامت الحكومة العثمانية بمحاولات للانتقام والثأر من كل فرد من العشائر يقوم بالاقتراب من المناطق المسكونة. هذا جعل العشائر البدوية الكبيرة تتصرف وكأنها اقوام مستقلة. انهم يقومون باعلان الحرب على العشائر الاخرى او يوافقون عقد السلام، بحجة ان تلك الغارات الحربية لا تستهدف غير العشائر البدوية، قبل الفلاحين والمسافرين. في الصيف يصيب الصيهود[1] نهر الفرات في مختلف المناطق فتستطيع العشائر التي تقوم بالغزو بأن تعبره ذهابًا وإيابًا. ولكن في الشتاء والربيع يرتفع منسوب المياه في الفرات فتحتاج عشائر البدو التي

(١) كلمة الصيهود تعني في اللغة الحارّ، ونُقلت الى انحسار ماء الانهار في فصل الصيف (المراجع).

تقوم بالغزو الى عبّارات لعبور النهر. صارت مسألة غزوات البدو موضوع نزاع في وزارة الداخلية، الرسميون العراقيون، بشكل عام، ينظرون الى العشائر البدوية بعين البغض والريبة، ويطالبون بمقاتلتهم. ولسوء الحظ فإن هذه الفكرة يتبناها البدو ايضًا. عدد من البريطانيين الذين يعملون في وزارة الداخلية تبنوا وجهة نظر حول الغزوات التي يقوم بها البدو في الصحراء. لقد قالوا ان الغزو هو الرياضة الوطنية للعشائر البدوية، مثل كرة القدم او لعبة الكركت عند الانجليز. أن لا تشاهد شيئًا الا الخراف والابل وهي تلتهم الحشائش التي تنمو في الصحراء، فهذا في الواقع شيء يبعث على الملل الذي ينشأ من حياة رتيبة، انه يشبه العمل المتكرر في خطٍ صناعي. من الناحية النفسية يعاني سكان الصحراء الفراغ، لذلك يجنحون الى اعمال مثيرة مثل الإغارة على الاخرين وغزوهم، وهذا في اعتقادهم عمل يُفتخر به. توصل الرسميون اخيرا في وزارة الداخلية الى حل لافت للنظر، وقد وافق عليه الجميع، وهو ترك القبائل البدوية يُقاتل بعضها البعض ولكن بشرط واحد، هو عدم التعرض لغير البدو، مثل المزارعين والمسافرين والتجار وكذلك سكان المدن.

ولإجل المراقبة فإن سيارات اخذت تعبر الصحراء من بغداد الى دمشق، وفي نفس الوقت تطير طائرات سلاح الجو الملكي فوق الصحراء من القاهرة الى عمان ثم الى بغداد. وقد تم الوصول الى اتفاقية هي ان القوة الجوية الملكية ستقصف البدو الذين يقومون بتعكير صفو الامن، ووضعت تعليمات مكتوبة تم اعتبارها (قواعد القصف) والتي تعدّ تخويّلا رسميًا. تكونت هذه التعليمات من مقدمة وعدة اجزاء؛كل جزء مكون من فقرات رئيسة وفقرات ثانوية، وتضمنت كل التوقعات والاحتمالات، والشخص المخول بالغارة يزوّد بتفصيلات الموقف كي يتصرف في كل حالة.

قامت طائرات سلاح الجو الملكي بالطيران فوق الصحاري، والقت بعدد كبير من المناشير فوق جميع مضارب البدو .أُعطيت تعليمات واوامر للقائمين بالعملية ان يكتبوا تقارير في مخافر الشرطة كلما امكن ذلك، هذه التقارير تتضمن معلومات وافية حول عملهم والاهداف التي تعاملوا معها. مخفر الشرطة في القائم، بالرغم من انه يقع على ضفة الفرات، محاط بالصحراء من كل جانب، ولقد قضيت عدة ايام في مخفر شرطة القائم الصحراوي وفي اوقات مختلفة واطلعت على بعض التقارير. الوزارة لم تعر نقطة واحدة اهتمامها وهي ان البدوي لا يستطيع القراءة.

في منطقة شاسعة تمتد الصحراء السورية بمساحة تقدر بخمسمائة ميل طوّلا واربعمائة ميل عرضًا، وقد يكون هناك اثنان فقط من الرجال ممن يتمكنون من القراءة والكتابة. الكتّاب الذين تم تشغيلهم في المنطقة هم من الموالين للشيخ الكبير ابن هذّال امير عنِزة، وابن شعلان وهو، ايضًا، من شيوخ عنِزة.

نَفَّذَ سلاح الجو الملكي مهمته بدقة، وكان الطيران لساعات بشكل عادي فوق الصحراء، تم فيه اسقاط رزم من المطبوعات على كل مضارب يقع بصرهم عليها. كانت الرزم ترتطم بالارض وتبقى على سطح الارض الرملي وهي تبعث الريبة. وهذا الموضوع كله مثل واضح على البيروقراطية. ارسلت نسخٌ الى الرسميين المدنيين والى الشرطة وانتشرت الاخبار، تدريجًا حتى تداولها البدو بشيء من التحريف.

في احد الايام كنت جالسًا في خيمة قيادة قوة الصحراء في القائم، جاء احد رجال الشرطة وهو راكب عجلة وافاد بان مجموعة قد عبرت الفرات وهي تبغي الإغارة، وهي الان على بُعد ميلين من مخفر الشرطة. تم ارسال بعض الرجال لجلب قائد المجموعة وكان بدويا تعلوه الاوساخ وهو فظ الطِباع. كان قد لفّ وجهه بغترته واخفى ملامحه كلها عدا زوج من العيون ذات نظرات ثاقبة عميقة. سار حتى صار

بالقرب منا، توقف قليلا ليُحيينا بصوت جهير عميق (السلام عليكم) اجبناه (وعليكم السلام) وبنبرة رسمية دعوناه للجلوس.

كل بدوي يبدو وكأنه إقطاعي ولكن بملابس رثة، وهو بسيط تمامًا سواء يتكلم مع ملك او مع راعٍ. كان هذا الغازي ملتحيًا وكان اسمه بنيّان الشلاّل. وهو من شمّر جَربة، وقد افاد بأنه عازم على الاغارة على عنِزة. وقد أَخْبَرْنا بنيّان ان يتجنب اذى المسافرين اوالمزارعين، وبعد فنجان القهوة غادر المكان. بعد ذلك بعشرة ايام جاء الى مخفر الشرطة اثنان من راكبي الجِمال، وكان رجال الشرطة متلهفين لسماع الاخبار فقالوا لهم (الله يحميكم – منين جيتكم ؟) اجابوا نحن من جماعة بنيّان. كان البدوي يتكلم ببطء واعطى المعلومات جزءًا بعد جزء وكان مستمعوه يستمتعون بالاخبار. كان الجملان يعودان لـ (مرتضى الروفيدي) وهو من عنِزة (وهو رجل ضئيل الجسم وعيناه ترمشان كثيرًا) وقد كان يذكرني بالرجال الايرلنديين. وربما يعود سبب ذلك الى الشبه بين كلمتي الروفيدي ورافيري. كانت الجِمال ترعى على مسافة من المضارب، هجم الشمّريون على القطيع بعد الظهر وساقوا زهاء ستين رأسًا منها. قامت عنِزة بمطاردة اللصوص بوساطة الخيول، حتى جعلوا الغزاة من شمّر في موقف حرج لأنهم كانوا على ظهر الجِمال اشتد الضغط على الغزاة فتخلوا عن عشرين من الجمال. وذلك لجعل المطاردين يتأخرون بعض الوقت، وقد فروا بأربعين رأسًا تحت جنح الظلام، وقد تحمل الطرفان بعض القتلى. هذه التفاصيل كلها تم تسجيلها بعناية من قبل شرطة الصحراء. كان البدويان متعبين الى درجة الاعياء فقام رجال الشرطة بإطعامهما رزًا ولحمًا في خيمة الضيوف. بعد ذلك ركبا جمليهما وحيونا ورد عليهم رجال الشرطة (في أمان الله). غادر البدويان حتى غابا عن الانظار في ظُلمة ليل الصحراء.

في حزيران ۱۹۲۳ نصب قسم من عشائر عنِزة الحمقى خيامهم على بُعد عشرات الاميال من مخفر شرطة القائم، وبمسافة متساوية البُعد في الشمال الشرقي من ضفة النهر، وهناك تقع مضارب عبد الله الدّحام من شيوخ شمّر. رجال البدو يتبعون طريقتين في الغزو والسطو على الغنائم من الاعداء. فإما ان يكون المغيرون يركبون جمالاً او خيولاً وينفذون غزوتهم نهارا بقيادة زعماء عشائرهم. ولكن هناك العديد من الفتية ممن هم فقراء جدا ولا يستطيعون شراء جِمال او خيول فيقومون بهجماتهم من اجل السرقة مشيًا على اقدامهم. هؤلاء الفتية يقومون بغزواتهم اما منفردين او مع واحد او اثنين من رفاقهم ويتسلحون بالهراوات فقط او الخناجر، وغالبًا ما يقطعون مسافات طويلة على اقدامهم عبر الصحارى حتى يجدو ضالتهم في مضارب الاعداء. يختبئون حتى يهبط الظلام فيزحفوا الى المخيم حتى يصلوا الى الجِمال الجاثمة امام الخيام،ثم يفكون الحبال من ارجل واحد او اثنين من الجِمال ويقومون بقيادتها بهدوء الى خارج المخيم، بعد ذلك يركبون واحدا والاخر يسر اماهم، ويسرعون الخطى ليخفيهم ظلام الليل، ولكن هذه المغامرة لا تخلو من خطورة لأن مضارب العشائر مليئة بالكلاب التي سرعان ما تبدا بالنباح فيهرع الرجال من العشيرة ويسحبون بنادقهم ويسرعون للبحث بين الخيام عن اللص المفترض. واذا بدأ الفتى السارق بالهرب عدوا فربما يسارع الرجال باطلاق النار عليه، واذا ظل رابضا بين الجمال فسيلقى القبض عليه. وفي هذه الحالة سيجلب الى الخيمة ويبقى لليوم التالي ليرتاح، وبعد ذلك يُترك ليذهب الى اهله بعد ان يُزود بطعام وشراب يكفيانه طوال السفر.

في بعض الاوقات، عندما يفشل اللص الراجل اول ليلة من التسلل الى المخيم حيث يكون القوم يقظين او ان كلاب الحراسة تنبح نباحا متواصلا حتى انبلاج

الفجر، ينسحب لينام طوال النهار في التلال ويحاول مرة اخرى في الليلة التالية حتى ينفدَ طعامه و شرابه، فإما ان يقفل راجعًا الى اهله صفر اليدين او يتسلل الى الخيمة، ولا يقوم البدوي بقتل الضيف في خيمته، واذا سأله احدهم لماذا جاء فأنه يجيب (أسرق واحدًا من جمالكم، ولكن الله لم يوفقني) .

كانت مضارب عنِزة تبعد عن مضارب شمّر بعض الاميال. وفي كل يوم، تقريبا، يقوم اللصوص الراجلون وهم يرتدون أسمالا بالية ويحملون العصي الخشبية وهم يتمتعون بالنشاط، وقد يقعون في يد الشرطة التي يقوم بعض افرادها في الحديث والمزاح مع اللصوص الراجلين ممن يعبرون الطريق، كمثل:

- الله يقويك يا فتى. من اين انت ؟
- من مضارب بني دحّام.
- الى اين تذهب ؟
- ربما يرزقنا الله بما يعيننا على قوت يومنا من المضارب التي امامنا
- ان شاء الله.
- يقول الشرطي مازحًا ..

نتيجة لهذه العلاقات الانسانية، نَمت علاقات صداقة بين الشرطة في مخفر القائم ورجال البدو لا سيما شمّر. في تلك الايام كان اثنان من التجار الاميركان يسافران وهما يقودان سيارة فورد من عنُه الى القائم، وفجأة برز من بين التلال مجموعة كبيرة من رجال شمّر الخارجين للغزو بقيادة متعب السعدي فأحاطوا بهم، كان الرجال يبدون بشكل بدائي، نحيلي الاجسام، قذرين وصلبين؛ كل واحد منهم يحمل بندقية معلقة على السرج امامه، انهم يبدون اي شئ عدا كونهم اصدقاء. الجميع قد لفَّ رأسه ووجهه بغترة ولا تبدو غير عيونهم للناظر، انهم غامضون ومرعبون كما

هي مجموعات كوكلس كلان[1]. ولكن ما إنْ تحركت السيارة حتى افسح البدو لها الطريق ظنّا منهم، خطأً، انهم من المحتلين البريطانيين. وقاموا بتحيتهم مع ابتسامة كبيرة قائلين لهم (مرحبًا). رجلا الاعمال الّذين كانا يتوقعان ان رقابهما ستُقطع لم يستطيعا تفسير السلوك اللافت للنظر الذي يتسم بالمودة وقامت بهِ هذه المجموعة، شئ لم يحدث الا في الافلام.

في الواقع كانت المجموعة في طريقها الى مخفر شرطة القائم لإعطاء تقرير للشرطة قبل الشروع بغارتهم لغزو عنِزة. بالرغم من ان عجيل الياور قد تم تعيينه من قبل الحكومة كشيخ لعموم عشائر شمّر في العراق وقد خُصص له راتب جيد لهذا العمل على ان يُبقي العشائر هادئة، لكنه لم يستطع القيام بهذه المهمة، فأحيانا تقوم العشائر ببعض الغزوات. في احد الايام شُوهد اخوه بالقرب من مخفر شرطة القائم مع مجموعة كبيرة من رجال الغزو، وكان المشهد يعطي انطباعًا على قيام هؤلاء الرجال بغزو عنِزة، كان النهر في حالة فيضان ولا يمكن الخوض فيه، قام اخو عجيل بإرسال رسالة الى القوة في مخفر القائم يعرض الآتي:

(نحن من اتباعكم الجنود، يرجى تجهيزنا بقوارب لعبور النهر من اجل غزو عنِزة).

شَعرت الشرطة بجرح في الكبرياء بشكل او باخر من هذه الرسالة. من الممكن، بعض الاحيانِ، غضّ الطرف عن بعض الممارسات، ولكن من غير المقبول ان تتعامل الشرطة واللصوص بشكل متساوٍ لأنه اذا اعطيت البعض انجًا فأنه سيطالب بذراع.

لسوء الحظ فإن التفاهم المتبادل مع رجال الغزو قد انهار بسبب ان شمّر قد خالفت قواعد اللعبة. ففي احد الايام قام رجال شمّر بالإغارة على مجموعة من سيارات فورد

(١) هي عصابات من الرجال البيض يقومون بقتل السود في اميركا في النصف الاول من القرن العشرين كانوا يغطون وجوههم واجسامهم بلباس ابيض ولا تظهر الا عيونهم من خلال الكيس على رؤوسهم. (المترجم)

في الطريق بين عنة والقائم. كانت القافلة تضم راقصة سورية قاموا بنهب مجوهراتها وحليّها التي كانت تحملها بين ثيابها الفاخرة. وكان هناك تاجر عربي استطاع ان يخلّص مائة ليرة تركية ذهبية. هرب اللصوص، ولكن الجميع عرف انهم من شمّر.

كان هذا العمل على الضد من القواعد التي تم الاتفاق عليها بأن تكون الغزوات بين البدو انفسهم، اغضب العمل الشرطة غضبا شديدا ورفضوا الاستمرار باللعبة مع اللصوص من شمّر. حتى البريطانيون الرومانسيون من الضباط العاملين في وزارة الداخلية من الذين جادلوا بأن الغزوات هي تعبير عن رياضة البدو، اصبحوا مجبرين على شجب سرقة الراقصة. هذه الحادثة المؤسفة حدّت من حماسة البعض لغزوات البدو المتبادلة.

في الحقيقة أنَ كون البدو اناسًا لا يقرؤون ولا يكتبون هي صفة اخذتها وزارة الداخلية بنظر الاعتبار، وقد لاحظوا ايضا ان البدو يتصفون بالفروسية وقواعدها، وهم يأخذون ذلك بنظر الاعتبار عند غزو بعضهم بعضًا ولكن ذلك لا يطبق عند غزو غير البدو، عندها يصبحون خشنين وقساة. عادة ما يكون البدو الغزاة مسلحين وبالرغم من ان هدفهم الاساس هو سرقة الإبل واخذ الغنائم من القبائل المنافسة، فإنهم قد يقومون بقطع الطرق ايضًا، وان التعرض لغير البدو هو بالطبع ممنوع حسب التعليمات والقواعد المطبوعة التي رميت على مضارب البدو من الطائرات، الا انهم سمعوا فقط نسخة مشوهة من تلك التعليمات لانهم غير قادرين على القراءة.

مشكلة اخرى برزت تعود الى ان معاهدة السلام بعد الحرب العالمية الاولى قد قسّمت شمال الجزيرة العربية الى (دول) وان الحدود بين تلك الدول قد رُسمت على الخرائط بقياس واحد الى مليون، وحتى المسّاح المتمرس اذا امسك تلك الخرائط فإنه سيجد نفسه وسط صحراء مترامية الاطراف، وسيكون من المستحيل عليه ان يحدد

في اي جانب من الحدود هو يقف. كان اسلاف هؤلاء البدو يتجولون من دون حدود او عوائق تم وضعها لهذا الجيل. هذه الخطوط الوهمية على الخرائط هي غير معروفة تماما.

زيارة لسيد محترم

في نهاية حزيران ١٩٢٣ صرتُ على دراية تامة بضفتي نهر الفرات من الرمادي الى الحدود السورية، وقد قطعت تلك المسافة على ظهر الجواد، وكنت ازور، لبعض الوقت، العديد من القرى او المخيمات لتناول الطعام او قضاء الليل. كان النهر يكوّن شريطًا ضيقًا عبر امتداد لواء الدليم. وقد بدأتُ بالإهتمام باستكشاف الصحراء الواقعة على جانبي النهر.

لم يكن الطريق البري الممتد من الرمادي الى دمشق قد تم تاسيسه بعد .

هناك بعض الرحلات القليلة تتم بالسيارات مثل الرحلة التي قام بها الميجر البريطاني (هولت). وبعض الموظفين العراقيين ممن يشتغلون بالسكك الحديدية، حيث كانت هناك فكرة لانشاء سكة حديد من دمشق او عمان الى بغداد .

كان الكولونيل البريطاني لچمان قد عبر هذه المنطقة وقد أُطلق عليه لقب اسد الصحراء السورية، وقد قُتل لَچمان في ١٩٢٠ ولكنه لم يترك وثائق مكتوبة على ورق. وليس هناك الا القليل من المعلومات الطوبوغرافية، فضلا عمّا وضعه الميجر هولت من معلومات عن خط سيره. لم يكن هدفي، بالاساس، طوبوغرافيًا بل بشريًّ . كنت اريد ان أُقابل واتعرف تلك العشائر البدوية المشهورة، التي يثير بعضها العجب ويثير بعضها المقت، واتعرّف من يمكنه ان يؤدي دورًا مهمًا في حال وقعت الحرب مع الاتراك.

في حزيران ١٩٢٣ نصب الشيخ فهد بن هذّال كبير شيوخ الإمارة، وهم جزء من عنِزة، نصب مضاربه في منطقة الجعّارة. قررت ان اقوم بزيارته. استعرت جملين من شرطة الصحراء في مخفر القائم، جملًا لي و الاخر لخادمي علي الياسين مع اثنين من الشرطة وهما من البدو، واحد من عنزة والاخر من شمّر. في ذلك الوقت لم تكن الحكومة العراقية قد بسطت سيطرتها بعد على الصحراء كلها عدا المناطق المحيطة بمنطقة نفوذ بعض الشيوخ. كانت الطريقة الوحيدة المتبعة انذاك ليستطيع المسافرون من غير البدو ان يحصلوا على امان جزئي عند سفرهم عبر الصحراء هو دفع مبلغ من المال الى رجال البدو لحمايتهم في المنطقة التي يسافرون فيها، و يقوم البدو بحمايتهم وممتلكاتهم الى الحد الذي قد يدفع البدوي حياته جراء تلك الحماية. ويمتنع السارقون من البدو عن السرقة عندما يعلمون ان شخصًا من قبيلتهم هو الذي يقوم بحماية اولئك المسافرين.

كان يرافقني علي الياسين، وشرطيان، احدهما هو مَطر من عنِزة والثاني غنّام من شمّر. غادرنا القائم في الساعة الثامنة مساءًا من اجل التمتع، قدر الامكان، ببرودة الهواء في اثناء الليل عند السفر. في مثل ذلك الوقت يكون للصحراء سِحر خاص. كانت النجوم تتلألأ في السماء الصافية. لا تَعرف اوروبا مثل هذا الجو الرائع؛ هواء بارد نقي بعد نهار مغبر حار. رؤية محدودة في الظلام، سكون مطبق لا يقطعه سوى الضرب الهادئ لخف الجمل على الرمال، المرافقون يتمتعون بخبرة لا يمكن نسيانها.

ما إن نترك عهد الصبا خلف ظهرانينا فإن لحظات حقيقة الواقع الممتلئ بمتعة الخبرة تنمو شيئًا فشيئًا. البدء في الرحلة الصحراوية جعلت قلبي يخفق بنفس المتعة التي كنت اشعر بها قبل سنوات خلت، عندما كنت اغادر المدرسة الداخلية في طريقي الى البيت في اثناء العطلة.

ينتشي المسافر بأول نسمة في الليل البارد، والفضاء الصحراوي المفتوح عقب نهار طويل شديد الحرارة وكثير الغبار والمعاناة من الام الظهر والتعب الشديد، ومن الجوع والعطش، ومن الاوساخ والقمل، كل ذلك يجعله يلعن تلك الرغبة في الاستكشاف التي حملتهُ على مغادرة الراحة والأمان، ليقوم بتلك المغامرة المجنونة. كم هي حلوة تلك المتعة التي تمنحها حياة الحضارة عندما يعود المرء اخيرا الى بيته سالما ليتمتع بحّمام ساخن وطعام نظيف ثم يدير جهاز الحاكي!

في ليلتي الاولى؛ في رحلة صحراوية حقيقية، ركبنا من الساعة الثامنة مساءًا حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، من دون استراحة. ولأني عديم الخبرة بالسفر في الصحراء فقد تركت كل شئ الى اثنين من شرطة الصحراء وكرست كل طاقتي لأكمل المهمة .في الثانية صباحا قام مطر بضرب جمله بالعصا على رقبته ليجعله يبرك على ركبتيه وصاح قائلاً: (نبغي إنّام). مددت جسدي على الارض المملوءة بالحصى، وغططتُ بالنوم واستيقظتُ على احد يهز ذراعي، إنها الرابعة فجرا والجِمال مهيأة وتنتظر المسير. كانت بقعة من التراب الابيض في مقدمة أنف مطر، وهذا يدلل على ان مطر قد انتهى لتوه من صلاة الصبح. كان حلقي جافًا وظهري يؤلمني بشدة، لقد شعرت بأني اصبحت اكثر سوءًا مما كنت عليه قبل النوم. ركبنا من الساعة الرابعة فجرًا حتى الثانية بعد الظهر. في الساعة التاسعة كانت الشمس ترسل اشعتها الحارة جدا، لقد شعرتُ بصداع شديد اضافة الى الام الظهر، ومع ذلك كاد النعاس يغلبني. قام مطر وغنّام بتبريك الجمال وهم يصدحون بأغانٍ بدوية. البدو بشكل عام صامتون رزنون محافظون لاسيما امام الاخرين، ولكنهم حركون وجذلون كتلاميذ المدارس عندما ينطلقون الى فضاء الصحراء، يغنّون بأعلى صوتهم ويضحكون ويمرحون، لاسيما عندما يشاهدون الأفق ويدركون انه لايوجد عدو يتربص بهم.

في الساعة الثانية بعد الظهر ولكوني من سكان المدن، فقد قدم لي البدويان امتيازًا في الاستراحة، وقاما بترتيب الملابس على العصي التي ثبتاها في الارض وذلك لحجب الشمس عن وجهي. في الساعة الثالثة وقفنا، مرة اخرى، عندما صرح مطر بهدوء ان الماء قد نفد ولم يبقَ منه شيء. وتساءل اين يمكن ان نجد ماءا .. ثم قال علينا ان نصل، في نفس الليلة، الى (حصين العدر) وهي عيون ماء، ولكنها قد تجف في فصل الصيف، اذا لم نجد ماءًا هناك فعلينا ان نسير ثماني ساعات اخرى، لنصل البئر الاخرى. نصف نهار بدون ماء، وفي درجة حرارة تصل الى ١٢٠ درجة فهرنهايت. كان ذلك يبدو لي مشكلة جدّية. لذلك كان علينا ان نغذُ السير قدر الامكان. واخيرا وصلنا الى عيون الماء في الساعة الثامنة مساءًا، وكانت حفرة عميقة وفي منخفض عميق، ومحاطة بصخور ناتئة وملساء. ركض غنّام ومطر نحو حفرة العيون ليستطلعوا الماء. نزلتُ انا من الجمل على ارض مسننة. لم اكن ادرك بأنني مُتعب جدًا وكنت أُعاني الام الظهر، وصداعًا في الرأس، وبعض القروح في جسدي جرّاء جلوسي المتواصل على السرج، وشعرت كما يشعر المرء عند اصابته بمرض لمدة طويلة، وقد قام لتوه من فراش المرض وهو يحاول المشي، خارت ركبتاي، وبعد خطوات معدودة كدت اسقط على الارض الخشنة المنحدرة، وهنا جاء مطر راكضًا نحوي وهو يصيح (ماء.. ماء) لقد وجدوا ماءًا كنت شديد التعب، عندما جلسنا نأكل، لقد قطعنا تسعين ميلًا في واحد وعشرين ساعة ونصف. ومن اجل تجنب إضاعة الوقت في النزول وتناول الطعام امتنعنا عن الاكل مدة اربع وعشرين ساعة. ربما كانت الام ظهري بسبب ركوب الجمل لأول مرة لقد زادني ذلك تجربة وخبرة. كان رد فعل اولئك البدو على التعب الشديد هو عدم المبالاة لدرجة غير معقولة.

حملنا ماءًا يكفي لثلاثة أيام، واستأنفنا سفرنا. كان البدو غير مبالين وقادرين على السفر في مختلف الظروف الصعبة مائة ميل عبر الصحراء، من دون طعام او شراب، وبالنسبة لهم ليس اكثر من نزهة المساء.

بعد عشاء سريع استأنفنا السفر خلال الليل، وقد شعرت بعد العشاء بتحسن واعتقد ان الجوع والعطش كانا مؤذين اكثر من التعب الجسدي، لقد كان ذلك هو السبب الحقيقي لاصابتي بالإعياء. واخيرًا في صباح اليوم التالي اهتدينا الى مضارب فهد بن هذال. عندما اقتربنا، من الخيام اخذ الرجال العرب بتعديل هندامهم وترتيب غترهم. وتوجهنا بصمت الى خيمة الضيوف انخنا جِمالنا بوساطة العصي ونحن نشجعها صائحين (إخ خ خ خ ... إخ خ خ) حتى جثت تماما على ركبها.

انحدرنا من السروج التي على ظهور الجمال ومشينا بهدوء وتمهل الى سقيفة كبيرة سوداء، وقفنا امام الخيمة وسلمنا (السلام عليكم) وجاء الجواب (وعليكم السلام) من عشرين او ثلاثين رجلا بصوت عميق. نهض الرجال الملتحون على ارجلهم لفسح المجال للضيوف. اسرَع احد العبيد لفرش السجادة ووضع سرج الجمل لأتكئ عليه. بعد ان جلسنا ران صمتٌ مهيب على المكان، في حين كان احد الرجال يؤجج النار لعمل القهوة والشاي. هنا صار مطر وسط رجال عشيرته، وأخذ يتبادل معهم السلام والتحيات التي يبدو ان لا نهاية لها. من الجانب الاخر للخيمة الكبيرة صاح شيخٌ ملتحٍ (سلام يا مطر) وقف الرجل وكذلك فعل مطر ومشيا حتى المنتصف، واخذ يقبل احدهما الاخر مع التحية لعدة مرات ومن كلا الخدين، ثم من الكتف الايسر ثم توقفا ووضع كل منهما يده اليمنى على صدره انهما يتبادلان سلاما اعتياديا.

- كيف انت ؟
- الله يخليك، وكيف انت ؟ الله يطول عمرك ..

- الله يخليك.
- كيف الصحة ؟
- الله يعطيك العافية ..
- الله يبارك بهالوجه
- الله يجنبك نار جهنم.

وبهدوء يعود الصديقان الى مكانيهما، ويأتي صوت عميق من آخر من الخيمة

- الله يقويك يا مطر ...

وتعود الاجراءات مرة اخرى ..

فهد بن هذّال كان واحدًا من شيوخ البدو العرب والمهمين في اثناء النصف الثاني من الحرب العالمية الاولى. تم تعيينه من قبل بريطانيا، ومنحه انتصار الحلفاء في الحرب مزيدًا من الهيمنة والهيبة. كان الشيخ الكبير في تلك الايام مريضًا، وطلبوا مني ان احضر لهُ طبيبًا عندما اعود، وغالبا ما كان يناديني (يا وليدي) بالرغم من انّي كنت في السادسة والعشرين. قضيت ثلاثة ايام ممتعة جدًا في الخيام في منخفض الجعّارة الكبير. كنا نأمل في الاصلاح ونقوم بتعليم البدو بعد ان يستقروا ويزرعوا الطماطة. امر الشيخ الكبير ان تُنصب لي خيمة خاصة، وخصص اثنين من عبيده ليقوما على خدمتي وجلب الشاي والقهوة باستمرار. هنا لدي غرفة جلوس صغيرة خاصة وقد جُهزت بمفارش زاهية الالوان ووسائد لتحل محل سرج الجمل. وامامي قطعان الماشية ترعى، جمال وخِراف وخيول في سفوح التلال الصخرية. دعاني الشيوخ الشباب لشرب القهوة معهم وتحدثوا عن مآثرهم في الغزو وتجادلوا حول سرعة كلاب الصيد السلوقية وسرعة الأفراس. الغزو والصيد بالصقور والمطاردة، كانت تبدو هي الممارسات المفضلة لشباب البدو الموسرين والسادة المحترمين.

المطاردات الشعرية البدوية شيء لابد منه مع القهوة في المساء وقراءة الأشعار بصوت جهوري للتغني بامجاد القبيلة. كان الشيخ فهد مريضًا جدًا وغير قادر على مغادرة خيمته، وقد امضيت عدة ساعات بالقرب منه وهو في فراشه، وهو يتحسر على الايام الخوالي. من المستحيل لمن يستمع لكلمات هذا العجوز الأرستقراطي دون ان يغمره شعور بصغر هذا العالم وتشابه الطبيعة الانسانية. مع تغير الاسماء والاماكن فان كلماته ربما يستعملها ايضا احد مُلاك الضِياع والاقطاعيات من عجائز الانجليز قبل جيل او جيلين مضت.

الصعود المفاجيء للعكَيدات كان نتيجة للسلوك المخزي الذي سلكوه، قال الرجل العجوز: اولئك الناس كانوا جيدين في ديارهم، ولكنهم ليسوا اناسًا محترمين. قامت الحكومة بقطع الجذور الاجتماعية القديمة بإعطاء نفوذ لأناس من المرتبة الواطئة والتضحية بالنبلاء. لقد قاد هو وأسلافه الصحراء على مدى قرون من الزمن، والان اي نذل من الرعاة يستطيع ان يجعل من نفسه سيدًا، ويكون محصنًا من العقاب. لقد ضحّى البلد بقادته الطبيعين. لقد تسيّد بعض النكرات، ممن لاهم لهم سوى المصلحة الخاصة، ليس بطريقة شريفة او منافسة نبيلة.

تم الترتيب لرحلة العودة بشكل افضل، إشتريت قِربة اضافية، في حين هيأ لنا الشيخ فهد خروفا مطبوخا مع بعض المؤن ووضعها في كيس خاص. صار بالأمكان ان نسافر براحة وسرعة، ونتوقف للطعام والنوم في الطريق. قطعنا مائة ميل في زهاء ثلاث وثلاثين ساعة من غير تعب او كلل. في طريق عودتنا توقفنا ايضا عند عيون الماء لسقي الجمال وملء قربنا، وتناول بعض الطعام، ثم استئنفنا السير حتى وصلنا القائم بسلام.

بعد عدة اسابيع علمنا اننا قد نجونا من المخاطر .فقد قامت مجموعة من البدو بالإغارة على المكان الذي كنا فيه، وكانوا من عشيرة ظافر بقيادة (حزّة بن عكاب) وهجمت على القطعان التي كانت ترعى وقتلوا اثنين من الرعاة، وسرقوا خمسين رأسًا من الأبل. قامت عنِزة بمطاردة الغزاة مدة يوم ونصف، ولكن المطاردين لم يفلحوا باللحاق بهم، بعد ذلك كفوا عن المطاردة .

قبل ذلك بعدة سنوات تنازع حزّة بن عقاب مع شيخ عشيرته (ابن صويّت) وجلي من عشيرة ظافر .ذهب لاجئًا الى بن هذّال، فمنحه حمايته وضمه الى قومه. بعد عدة سنوات تصالح مع بن صويت وعاد الى ظافر تاركا مضيفه. اما بخصوص الخمسين جملا التي غنمها من عِنزة فقد لاحظ ان البعض منها قد وِسم بالعلامة الخاصة بابن هذال الذي كان في احد الايام صديقا له وقد منحه حمايته. افرز تلك الجمال عن البقية وسار بها لمدة يومين ووصل الى مضارب فهد واعاد الجمال الى مالكها التي كان قد سرقها قبل اربعة ايام. بعد ان قتل اثنين من الرعاة من عِنزة رحّب فهد بحَزة وضيّفه. جلسوا حول الموقد وشربوا القهوة بوئام وهم يتناقشون بالحادث الذي جرى وهو الغزو وكأن الامر كان مجرد لعبة. قال الضيف (كمنا بين الصخور العالية التي تحيط بعيون الماء في حين ان بعض رجالنا استكشفوا مكان قطعناكم، شاهدنا اربعة من الرعاة، وهم يسقون من البئر، ابلغنا رجالنا بمكان القطعان وقررنا ان ندع هؤلاء الرعاة من دون ان نمسهم بأذى الا اذا شعرنا بخطر منهم).

بنــي حچـيم

في صيف ١٩٢٣ نقلتُ من الرمادي الى لواء المنتفك مرة اخرى، لأن احتمالات الحرب مع تركيا قد تضاءلت. كان الوضع في الفرات الاسفل غير مستقر. على بعد ستين ميلا، اعلى الناصرية، وعلى الفرات، تقع مدينة صغيرة تدعى السماوة. وكانت هذه المدينة عبارة عن سوق لأرياف المنطقة المحيطة بها .تقطن المنطقة عشائر كانت تعمل بالزراعة تُعرف ببني حچيم .عشائر السماوة، بشكل عام، يقطنون جميعهم في مناطق الفرات الاوسط والفرات الاسفل، ويُعرف عن هذه العشائر انها لم تخضع للحاكم إبان الحكم التركي. من بين تلك العشائر (بني حچيم) التي لعبت في وقتٍ ما دورًا في السياسة العشائرية، كما في حالة المنتفك، ان تأسيس الحكم التركي، جزئيًا في المنطقة ومحاولة السيطرة عليها، تسبب في تجمع عشائر بني حچيم تحت زعامة عائلة (المحسن) ولكن من دون ان تصبح حكومة قوية بما فيه الكفاية لتحل محل رؤوساء العشائر الكبار.

كان الموقف كثير التشويش لسنين طويلة من القتال بين العشائر والقوات التركية المتعاقبة، لم تكن هناك قوة كافية لتفرض سيطرة الحكومة .

بعد انسحاب القوات العسكرية بوقت قصير عاد الموقف المشوش. خلال السنوات من ١٩١٧ – ١٩٢٠ كانت القوة العسكرية البريطانية مسيطرة، ولو بشكل مؤقت، على تلك العشائر الفقيرة، ولكن المتمردة. في عام ١٩٢٠ قاموا بالتمرد مرة اخرى ولعبت تلك العشائر دورًا قياديًا في التمرد انذاك. كانت منطقة السماوة، بشكل خاص، منطقة

صعبة بالنسبة للعمليات العسكرية، لم تكن هناك طرق ابدًا، في حين كانت المنطقة خارج المدينة مقطعة بفروع نهر الفرات العديدة هذه الانهار الفرعية الكثيرة كانت تعيق العمل العسكري. اما في الشتاء والربيع فان معظم الطرقات في الريف تغمرها مياه الفيضان. المنطقة المحيطة بالرميثة منطقة تُزرع بالرز، وهي تحتوي على سواقي صغيرة تُستعمل للري وتغدو من شبه المستحيل للقطعات العسكرية ان تجتازها، سواء على الأقدام او على الخيل.

بعد اخماد التمرد في عام ١٩٢٠ قام رؤوساء العشائر في المنطقة بتسليم انفسهم للحكومة، ولكن بسبب الصعوبات فأن المنطقة لم تشهد تطويرا. كان استمرار الفوضى هو الغالب في تلك المنطقة، وكذلك وجود شيوخ المناطق الاذكياء وعديمي الضمير مثل شعلان ابو الجون رئيس عشيرة الظوالم. هذا الرجل هو المسؤول في عام ١٩٢٠ عن قيام عشائر المنطقة بالإنتفاضة، وقد تم اعتقاله ووضعه في الحبس في الرميثة، ولكن رجال عشيرته المسلحين هاجوا في المدينة ثم حرروه من السجن واعادوه بفخر الى العشيرة.

رجال العشائر دائما سريعو الهيجان ومتصلبون واي نجاح يحققونه ضد الحكومة يكون سببًا لقيام كل المناطق الريفية بحمل السلاح.

بعد تحرير شعلان ابو الجون من سجن الرميثة قام رجال عشيرته بإشعال نار التمرد في الفرات. حصل شعلان ابو الجون على العفو الذي اعقب الانتفاضة، وحصلت الظوالم على موقع كبير الاهمية بالنسبة للعشائر الاخرى.

تم تداول مقولة عش ودع الاخرين يعيشون بين العشائر والحكومة. وظلت العشائر، بشكل او باخر مستقلة، القسم الاكبر من شيوخ العشائر لم يدخل المدينة او يحاول الاتصال بالسلطات. والسلطات من جانبها ظلت حبيسة المدن والمكاتب ولم

يعملوا الا القليل من اجل ان يجلبوا العشائر تحت السيطرة. شعر قائممقام السماوة بأنه ليست هناك رغبة او حماسة من العشائر في التقرب من السلطة، وان المحاولات الهادئة لم تنجح، وان عليه ان يأخذ الامور بشيء من الشدة والصرامة، وان يجنح الى العقوبات الفردية.

جميع عشائر بني حچيم صرحت برفضها للسلطات الحكومية او حتى ان تدفع الضرائب. في عام ١٩٢٠ حملت جميع العشائر المتمردة السلاح. قامت الحكومة، بدورها، بفرض غرامات على العشائر لمشاركتها في التمرد. عشيرة بركات رفضت الدفع. أُرسلت قوة من الجند تُعرف بأسم (ليفي) من قبل الحكومة للقيام باعتقال شيخ عشيرة بركات، غير ان رجال العشيرة هاجموا الطابور العسكري الحكومي، وأجبروه على العودة الى السماوة. هذا النجاح شجّع رجال العشائر على الإغارة على قافلة من الشاحنات، وقاموا بسرقة اي شخص يسكن مدينة السماوة وكان هذا سببًا كافيًا لقيام الناس بمغادرة المدينة.

في عام ١٩٢٢ قامت الحكومة المحلية بمحاولة لجمع الضرائب، ولكن عشير الصفران وجيرانهم، عشيرة بركات، طردوا عمال جمع الضرائب مع الشرطة المرافقة لهم. أُرسل جامعي الضرائب مع ثلة من الشرطة ايضًا الى جمع الضرائب من منطقة البوجيّاش. وما إنْ وصلوا الى حقلٍ كان محروثًا وشاهدهم رجال العشيرة وهم يسيرون بين مرتفعين من التراب حتى بدأ صوت الرصاص يلعلع فتراجع جامعوا الضرائب وقفلوا راجعين. كان منظر طابور الشرطة وهم راجعون الى السماوة قد اثلج صدور رجال العشائر، وزادهم حماسةً.

غاد رجال الشرطة وقد جُرح واحد منهم، اما الاخر فقد قُتل حصانه. بدا الجميع منكسرين يعلوهم الغبار وصار شعرهم اشعثًا. احد نتائج هذا الحدث المربك هو

ماحدث لخط بغداد البصرة، وهو واحد من العناصر التي تعتمد عليها حياة العراق اعتمادا كبيرا، وكان يمر وسط اراضي بني حچيم. ففي اذار ١٩٢٣ قامت جماعة من البوجيّاش بانتزاع ثلاثمائة مسمار حديدي من تحت السكة الحديد التي تمر بأراضيهم، وحولوها الى خناجر اعتقادًا منهم إن تلك الاسلحة ستكون فعّالة في يد العشيرة المتمردة. ولكن إتضح ان تلك الخناجر لم تكن اسلحة ذات قوة مؤثرة تجاه الحكومة، او حتى تجاه الشرطة المساندة للحكومة. كان هناك كلام متداول بأن البوجيّاش، منذ القديم، لهم تاريخ حافل بالمشاكل، منذ زمن (دليّ) وهو رئيسهم الاقدم وهو محارب عظيم .هناك اعتقاد في العشيرة – لسببٍ ما – بأن سبع قوى عظيمة في العالم. الاولى حادثة بعض الثوار القدماء ضد الاتراك وغير ذلك، عندما يرقص رجال العشيرة رقصة الحرب يرددون اهزوجة تقول (سبع قوى عظيمة والثامنة هي دليّ)

في ١٩٢٣ حجي (عجّة) ابن دلي، ترأس العشيرة، وهو رجل لطيف وصغير ويمتلك روحًا انسانية ووجها صغيرا. ولكن لا احد كان يتوقع منه ان يغدو قوة عظيمة.

وجُه اللوم من منطقة السماوة الى وزير الداخلية عندما اخبر رئيس الوزراء ان الوضع في السماوة لا يُطاق. كان الجيش البريطاني قد غادر البلد، والقوة الجوية الملكية البريطانية يُفترض ان تصبح هي المسؤولة. ليس هناك من قوة ارضية عدا بعض السيارات المسلحة، والتي لا يمكنها، في أي حال من الاحوال، العمل في منطقة بني حچيم لعدم وجود طرق فيها.

كان الجيش العراقي قد تشكل لتوه، ولكنه كان قليل التدريب، ولم يستطع ان يخوض المعارك في تلك الفترة. بتعبير اخر ان القوات الارضية التي يمكنها ان تقاتل بني حچيم وتفرض عليهم النظام غير موجودة، وكان البديل هو الطائرات. وَجد مقترح استعمال الطائرات ترحيبًا من قبل القوة الجوية الملكية البريطانية. ولكن

السيطرة الجوية في العراق كانت لا تزال تجربة جديدة. هذا يعني أن القوة الجوية لا يمكن ان تعمل بفاعلية. من جانب آخر وفّر تمرد بني حچيم الفرصة لتجربة هذه الفكرة. لم تكن فكرة استخدام الطائرات ببعيدة عن السلطات المدنية التي كانت تخشى انه في حوادث اخرى تتطلب مجموعة صغيرة من القوات الارضية سيُزعم انه تمرد يصعب التعامل معه.

كانت الحكومة متحمسة جدًا للعمل من اجل سلامة السكة الحديد، وانه من المناسب ان يتم إجراء ضد رجال العشائر، لانهم كانوا يخشون القيام بعملٍ لتخريب خطوط السكة الحديد. ليس هذا حسب بل إن هناك خطورة على الجسر الحيوي الذي تمر عليه السكة الحديد فوق نهر الفرات في منطقة (بربوتي) على بعد اميال قليلة فوق السماوة. إذا تم تخريب هذا الجسر فإن خط السكة الحديد سيكون عديم الفائدة لعدة أشهر إن لم نقل لعدة سنوات.

عند التفكير الجدي في الموضوع والتخطيط له برزت مشكله كبيرة هي كيف ستُحدد الطائرات اهدافها ؟ لان جنوب العراق يتكون من سهل واسع منبسط تمامًا، تحدّهُ، غربًا، صحراء مترامية الاطراف ذات لون اصفر مسمر، تختفي، تدريجًا، عند افقٍ لؤلؤي رمادي بعيد. يخترق السهل الغريّني نهران ضخمان هما دجلة والفرات، يتفرعان الى فروع وقنوات متعددة تجري بين الحقول الخضر، وبساتين نخيل التمر، وينتشر هناك عدد لا يحصى من تجمعات العشائر. وهناك في منطقة السماوة مجموعة من المسطحات من المياه الطينية محاطة بمجموعات من الصرائف، وهي غرف صغيرة مصنوعة من القصب، وجميع الصرائف يَشبه بعضها بعضًا تمامًا.

كانت خارطة المنطقة قد رُسمت في اثناء الحرب، ولكن بمقاس رسم صغير تُبين المجمعات للعشائر الصغيرة التي تسكن الصرائف.

في هذه الظروف المعقدة سمعتُ بعض الإنذارات بأن القيادة الجوية العامة قد قررت ان اكون مسؤولا بشكل شخصي لكوني ضابط مخابرات لتحديد الاهداف للطائرات لضربها بشكل صحيح.

ذهبتُ الى السماوة وصعدت الى سطح اعلى بناية حكومية ونظرت الى الشرق والى الشمال فوق النخيل. القليل تمكن رؤيتهُ وهو سهل طيني بني اللون يشطره الى نصفين جدول للريّ، وتقوم ضفة النهر الترابية بحجب الرؤية الى منطقة ابعد. في المقدمة وعلى بعد ثلاث او اربعة اميال، مجموعات من الصرائف، كل مجموعة يتوسطها برج الحرب. من الواضح انه لا يمكن عمل اي شئ بوساطة المراقبة الارضية.

كانت العشائر مستقلة تمامًا عن الحكومة، لذلك فمن المستحيل تقريبا الحصول على اي معلومات من الدوائر الرسمية المدنية في السماوة. كانت هناك معرفة قليلة عن العشائر وعن طوبوغرافية المنطقة، لذلك ليس من الممكن تنفيذ اي عملية عسكرية او جوية دون استطلاع شامل مسبق. وصدرت الاوامر ان يبدأ العمل في الحال. من اجل اكمال المهمة، قضيتُ يومًا كاملًا خارج الرميثة متجولاً على ظهر الفرس برفقة اللوتينانت الطيّار غاي مورفي من القوة الجوية الملكية البريطانية لنطوف خلال الريف بين العشائر، وقد زرنا عشائر الظوالم وعجايب والزيّاد ثم بركات كان الهدف من هذه الجولة هو اعداد مخطط لخرائط وافية وصحيحة ليستطيع الطيارون تحديد كل قرية والتعرف على عائديتها لأي عشيرة ومن هو رئيس تلك العشيرة، وتحديد مَن مِنْ اولئك الرؤوساء يرفض الامتثال لأمر الحكومة. هذا لايعني ان المهمة كانت سهلة، فإن قوائم العشائر وأقسامها وشيوخها لم تكن جاهزة، علمًا ان المنطقة كانت مليئة بشبكة من السواقي، والقرى متتناثرة على مساحة واسعة.

مجيء قوة الشرطة الى هذه المناطق ربما يكون تلميحًا للعشائر بأن تتجمع ، والقيام بالهجوم على تلك القوة من جانب آخر، الوضع المضطرب في المنطقة يأتي من كون الشيوخ يعتقدون بأنهم حكماء بما يكفي لفهم أن الضباط البريطانيين الّذين يرتدون البّزات الرسمية لا تنبغي سرقتهم او قتلهم لأنهم يمتلكون حصانة. لذلك قررنا ان نقوم بالجولة، بدون خيلاء وبدون قوة ساندة. كانت جولتي مع خادمي علي ودليل بسيط من العشائر. لقد برهنت العشائر على ميلها للصداقة الى ابعد حد في الواقع، في كل تجمع كان هناك ميل للفوضوية، لكن هناك عددًا من الزعماء ربما بشكل سري يرغبون في تاسيس نوع من الادارة، لاسيما من الزعماء الذين يفتقرون الى القوة ومع الاسف هناك خوف يسري بين الناس من ان الحكومة عندما تسيطر عليهم ستجبرهم على دفع الضرائب. ولقد اتضح لنا ان المنطقة ربما تقبل ان تنضوي تحت سيطرة الادارة بعد تحقيق سلطة مدنية تقوم بتبديل القئممقام الذي في السماوة بآخر عالي القدرة اداريا، واتباع سياسة جديدة ذات اتجاه إيجابي، مثل التحقيق التدريجي للأمن وتحسين وضع الماء والري.

اختارت السلطات عشائر بركات والصفران لتجعلهم مثالًا للآخرين. ليس لأنهم أكثر تمردًا من الاخرين، بل بسبب انهم الابعد عن سكة الحديد، وعليه سيكونون اقل خطرا بقطع السكة كعمل ثأري. طلبتُ من القوة الجوية أن اطير فوق المنطقة، لكني لم أرَ سوى الارض المنبسطة المقطعة بوساطة قنوات وسواقي الري. وهنا وهناك مجموعات متشابهة من الصرائف تتجمع حول برج الحرب .كل مايمكن تحديده هو برج الحرب وليست هناك الإمكانية لمعرفة نهاية موقع عشيرة معينة وبداية موقع اخرى. وكذلك لايمكن تحديد موقع اي زعيم تمرد.

رجعتُ الى الناصرية راكبا حصاني (الفيل) في حين كان علي الياسين ممتطيًا

حصانه (الجرذ) وسرنا بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الفرات.

إدعت القوة الجوية انها قد تقضي على العشائر المتمردة، من دون الحاجة الى الاستعانة بالقوات الارضية. ولكني كنت ادرك ان زعمهم هذا مبالغ فيه. دعاني قائممقام السماوة مساءًا لتناول العشاء، وكان الضيوف هم ضابط الشرطة والقاضي. اخبرتهم اني عازم على الذهاب الى عشائر بركات والصفران بزيارة في اليوم التالي. صاحَ القائممقام مرتعبا بأن ليس من موظف حكومي قد زار هذه المنطقة والتقى تلك العشائر منذ اكثر من ثلاث سنوات. ضابط الشرطة من جانبه ذكر بمرارة ما عانته الشرطة من مشاكل وهي ترافق جامعي الضرائب ولا سيما في ريف البو جياش.

كانت خطتي ان ازور العشائر مع مراعاة الحذر. وكنت قد لاحظتُ ان المحاولات السابقة قد تمت مع اصطحاب قوة من الشرطة التي تحمل الاسلحة، وبذلك قد اخافوا رجال العشائر بتلك القوة. إنه من الخطأ ان تزج بقوة ضعيفة لأنها تشجع على مهاجمتها. اذ كان لابد من استخدام القوة الارضية فإن عدد تلك القوة يجب ان يكون كافيًا لسحق اي محاولة للمقاومة السخيفة. وليس من قوة مثل هذه في العراق، لذلك فإن الشيء الوحيد الممكن عمله هو ترك القوة تمامًا والقيام بزيارة العشائر كضيوف.

خرجنا صبيحة اليوم التالي انا وعلي الياسين واخذنا معنا ساعيًا حكوميًا يُدعى (جمّاز ابو الكود) .هناك العديد من الفوائد لاصطحاب (جمّاز) معنا لأول مرة عند زيارة عشيرة بركات. اولا هو من العشائر المحلية، وهو من اقارب الناس المقيمين في المنطقة القريبة. اذا قتلوه فستكون هناك مشاكل الثأر مع عشيرته. وثانيا هو يعمل عملًا بسيطًا في الحكومة كحارس محلي ولكنه لايرتدي بزة رسمية، وبهذا لا يُعرف انه يعمل لدى الحكومة عدا من يعرفه شخصيا.

علي الياسين بالطبع يرتدي ملابس عربية، اما انا فأرتدي ملابس الجيش البريطاني مع ملابس عربية القيها فوق كتفي ويكون منظري مبهمًا بعض الشيء.

كانت خطتنا ان نمر عبر المنطقة حيث تقطن عشيرة بركات ونذهب مباشرة الى برج الحرب حيث (خوشان الحميدي) شيخ العشيرة، وهناك ندعو انفسنا للغداء. هذه الخطة تحمل مخاطرة قليلة، واعتقد انه بقدر ما تخشى العشائر الحكومة، فان الحكومة تخشى العشائر ايضا. ان استدعاء شيوخ العشائر للمثول امام الحكومة المحلية يبدو في الوضع الحالي خطأً سياسيًا. في زمن الاحتلال التركي كانت سياسة الحكومة تقوم على مواجهة العشائر، وكانت لها سمعة سيئة حيث تخطف زعماؤهم وترمي بهم في السجون، او تنفيهم الى حلب او اسطنبول.

العراقيون الرسميون الذين عملوا مع الحكومة الجديدة هم انفسهم الذين كانوا يعملون مع الاتراك لعدم توفر غيرهم. لو ان الرسميين العراقيين المحليين قد تعاطفوا في نظرتهم نحو رجال العشائر وابدوا الرغبة في زياراتهم لربما تم التغلب على كثير من المشكلات. ولكن النظرة ظلت باعتبار ان رجال العشائر اعداء يجب القضاء عليهم. لماذا يرغب الرجال دائما في تحطيم الاخرين بوساطة العنف ؟

عشائر بركات والصفران

مشينا في طريق ترابي وسط منطقة عشيرة بركات، أخبَرنا (جمّاز) عن قصة بني حچيم وعن اعدائهم ومعاركهم. اربعة اميال خارج السماوة مررنا بالقرب من برج حرب منعزل وليس ثمة مجموعة من الصرائف، والتي عادة ما تتجمع حول البرج إنها تعود، كما اخبرنا جمّاز، الى رجل عجوز كان يعيش مع ابنته التي تجيد الرماية

وحدهما.

كانت حساباتي تشير الى عدم احتمال تعرضنا الى خطر من قِبل رجال العشائر، وكان ذلك صحيحا حتى الان بالرغم من ان هناك جوًا من الريبة التوجس حولنا، وكأن احدًا لم يشاهدنا. كانت هناك مجموعة من النساء يحملن فؤوسًا صغيرة، ويقمن بتقطيع الاخشاب من بعض الشجيرات ويجمعنها في قطعة من القماش مشدودة على شكل كيس كبير. النساء اللاتي كن يقطعن الخشب لم يلتفتن الينا حتى ولو بإلقاء نظرة عابرة. عندما كانت الشرطة تأتي الى هذه المنطقة فأن النساء يُطلقن الصراخ ومن ثم يهربون الى اقرب مكان يلجأن اليه ليختبأن.

يبدو ان شيخ هذه المنطقة فقير الى حدٍ بعيد. كان حصان الشيخ مربوطًا خارج البرج، وهناك بقرتان صغيرتان ترعيان مع بعض الاطفال القذرين وعاري الاجسام تقريبًا، وهم يلعبون. وصلنا الى ما يبدو أنه المضيف، وهو عبارة عن صريفة من القصب. برز رجلان او ثلاثة رجال من الباب المعتم للصريفة واخذوا خيولنا وربطوها في مكان قريب. واحد من الرجال عرف جمّاز وقال بانه سعيد برؤيته واخذ يصافحه. دخلنا من الباب المنخفض للمضيف، كان هناك ثلاثة او اربعة رجال جالسون، نهض الرجال فقلنا ..

- السلام عليكم ..
- وعليكم السلام

جلسنا، ولكن بدا أن منظر بزتي العسكرية جعل المناقشة مقيدة. لم تمضِ الا دقائق قصيرة حتى دخل رجل طويل نحيف في منتصف الثلاثينات من العمر، كان يبدو انه يمتلك السلطة، وصاح (مرحبا بالضيوف) وتقدم وصافحنا مرحِبًا، ثم التفت الى احد الاشخاص الجالسين وقال له بحدة (إجلب السجادة وافرشها للضيوف.. عباس اوقد

النار وضع عليها الابريق). وضع بعض الخشب على النار فتصاعد الدخان بكثافة، ثم تصاعد اللهب. احاطت النار بالابريق الاسود، كانت هناك ستة اقداح زجاجية في صينية معدنية. ذهب الشيخ خوشان الى البرج ثم عاد مع كيس فيه سُكّر وفي كفه قليل من الشاي اعطاه الى الشخص الذي يقوم بتحضير الشاي، ثم تقدم نحونا وجلس بجانبنا على الارض. مما لاشك فيه كان خوشان يبحث عن سبب في خلده لهذه الزيارة غير المتوقعة لقريته من قبل ضابط بريطاني وهو في بزته العسكرية، لأنه لم يُقم اي فرد من افراد الحكومة بزيارة مماثلة منذ اربع سنوات.

وبعد وقت قصير من تبادل الحديث، أخذ التوتر يختفي شيئًا فشيئًا. اخذ رجال العشيرة يشرحون وجهة نظرهم. قال خوشان (الحكومة على راسي) واخذ يعبر عن احترامه للسلطات (ولكن نحن لا نملك الماء لسقي زرعنا. كل القنوات تتفرع من النهر قرب الرميثة حيث اراضي البوحسن او الظوالم. ومن ثم فإن القنوات تمر في اراضي البوجياش. اولئك العشائر تأخذ كل الماء ولا يصل الى اراضينا شيئًا وتظل مزارعنا عطشى، لماذا لا تقوم الحكومة بتوزيع الماء بشكل عادل على الناس؟ .. الحكومة على راسي، ولكننا فقراء وهم يقولون إننا مدينون بالاف من الربيات كضرائب. كيف يمكننا أن ندفع ؟ ليس لدينا مال) قال جمّاز (لو انتم دفعتم كل عام لما وصل دينكم الى الالاف من الربيات) اجابه خوشان (يا اخي كيف يمكننا ان ندفع ونحن فقراء ؟) قال ذلك وهو يفتح كفه مستنكرًا ،ثم استأنف الحديث (الظوالم يأخذون كل الماء، وزرعنا قد مات) كل شيء كنا نشاهده كان يؤكد كلام الرجل حول فقرهم، السجادة البالية التي فرشوها، أبريق الشاي المسوّد القديم، ملابس رجال العشيرة الرثة التي يرتدونها. تأملت في هؤلاء الناس الفقراء، وهم دائمًا يُجبرون على دفع الضرائب، ولكنهم لا يحصلون الا على منافع قليلة من الحكومة ليس هناك ثمة طرق، ليس هناك رعاية

صحية، ليس هناك مدارس،ليس هناك امان لحماية حياتهم وممتلكاتهم. كل شخص يعيش مع سلاحه الذي يحمله حتى في البيت اما عندما يغادر عشيرته فأنه يحمل حياته على راحة يده.

قفلنا راجعين الى السماوة في المساء، شعرتُ في الاقل بأني اصبحت حكيمًا اكثر مما كنت في الصباح قبل الزيارة. كتبتُ لوزير الداخلية بأن الوضع في السماوة لا يمكن احتماله. رحب القائمقام بي وهو يفتح ذراعيه كأنني واحد قد نجا من الموت، وقد أبدى قليلا من الحماسة لأفكاري، وكان يتصرف كصبي صغير يتجاهل حقائق الحياة وصاح (أولاد كلب، الم يطلقوا النار على الشرطة؟). زرتُ في اليوم الثاني عشائر الصفران، كانت المسافة اليهم بعيدة، استغرقتْ وقتا اكثر. وقد نمنا تلك الليلة مع الشيخ (عزارة المعجون). بدا الصفران اكثر فقرًا من عشيرة بركات. ربما لأنهم أبعد عن قنوات الماء اذا اخذ الظوالم معظم الماء، والبوجياش يأخذون القسم الاكبر مما تبقى، وتأخذ عشيرة بركات ما تبقى من الماء القليل فإن شيئًا من الماء لا يتبقى للصفران. يجب ان تسيطر الحكومة تمامًا على الماء لضمان حصص عادلة في التوزيع ولكن حتى الان في هذه الحالة الباطلة، فأن العشائر تنظر بعين الريبة الى الحكومة، عشائر بركات والصفران يموتون من الجوع والعطش والحكومة تأبى ان تأتي لتحل المشكلة.

كان شهر تشرين الثاني ١٩٢٣ متعبًا بالنسبة لي، فقد امضيتُ جُل الوقت متنقلا بين اراضي عشائر الصفران وبركات؛ اضع الخطط مع رسم كل العلامات الفارقة على الارض وقرى الصرائف، وذلك من اجل قصف تلك العشائر، الا ان الاهداف رقم (١) رسمت لتغطي كل منطقة بني حچيم، وذلك لان الضربة ضد اول هدفين من العشائر يجب ان تثير الرعب لدى الاخرين لذلك طُلب مني ان أُدخل منطقة البوجياش ايضا.

كانت خرائطي يمكن استعمالها من الجو لذلك كان من الضرورة ان تتضمن كل العلامات والدلائل التي تشاهد بوضوح من الطائرة. مجموعة صغيرة من الصرائف، مثلًا، أُنشئت حول بركة صغيرة اتخذت شكلًا منحنيًا تمكن مشاهدتها من الجو، ولكن من الصعوبة ملاحظتها من الارض. ومن أجل ان اعزز المعلومات الطوبوغرافية فقد رجعت الى الناصرية وراجعت العديد من المعلومات التي تتعلق ببني حچيم ومنطقتهم.

كان عليَّ من حين لاخر ان اطير الى بغداد واذهب الى قيادة القوة الجوية الملكية لطلب المساعدة والاعداد لعمل الخرائط. خلال تشرين الثاني ١٩٢٣ اصبحت اكثر الفة مع بني حچيم وسوء حظهم. وبدات اشعر تدريجًا بأني مُذنِب لأني ازورهم واتجول بينهم وغالبا ما ارسم منطقة سكناهم على الخارطة تمهيدًا لضربهم بالقنابل، ولكن عزائي هو ان اخبرهم ماذا اعمل بالضبط وهذا لا يشكل اي نوع من الخيانة للحكومة،لأن الهدف الوحيد للعملية هو حمل العشائر على المجئ الى السماوة وتقديم الولاء. اذا تمكنت من اقناعهم بذلك، فأن كل شئ سينتهي، بدون الحاجة الى القصف، والكل سيكون سعيدًا. الأمل الوحيد هو ان يقتنعوا بالمجئ الى السماوة الان، وقد اخبرتهم ان عدم القيام بذلك يعني انهم سيتعرضون للقصف بالطائرات وسيتعرضون للدمار ولن تتاح لهم فرصة ليردوا. لقد اخبرتهم بصراحة وإخلاص بأني أعددت خارطة لاستعمالها في القصف، وسأكون انا في طائرة القيادة. وافقت الحكومة على ارسال تحذير لعشائر بركات والصفران عندما تكون الخطة جاهزة، والطلب منهم القدوم الى السماوة لتسليم انفسهم. قمت بشرح الموضوع الى الشيخ خوشان الحمادي والى الشيخ عزارة المعجون، واخبرتهم عندما يتسلمون الاستدعاء عليهم الذهاب الى السماوة في الحال وتسليم انفسهم.

في الوقت نفسه كان العمل يجري بأقصى سرعة، اصبح الفصل شتاءًا وموسم الامطار صار على الابواب، وهذا يعني صعوبة العمل في مناطق خدمة الطائرات، وان الجو الممطر سيعيق العمل، وهذا يعني ان العملية برمتها ستؤجل الى نيسان القادم، وحتى ذلك الوقت اي شئ يمكن ان يحدث. هذه الظروف لن تجعل من الضرورة، الاسراع بالشروع بالعملية فقط،بل جعلت من الضرورة ان تكون قصيرة قدر الامكان، وجعل الموضوع منتهيا بعد اربع وعشرين ساعة او على الاكثر ثمان واربعين ساعة، وايضا من اجل تقليل الخطر الناتج عن أي محاولة لتخريب جسر السكة الحديد.

في ٢٩ تشرين الثاني غادر بغداد قطار خاص الى البصرة مع مجموعة من القوات البرية مع القنابل والوقود لتأسيس قواعد ارضية متقدمة في الديوانية والسماوة وأور وجالديس (وفيها بيت أبي الانبياء إبراهيم الذي شيده قبل أربعة الاف سنة تقريبًا). ستكون الضربة في صباح ٣٠ تشرين الثاني،وكنت في طائرة القيادة القاصفة. كنت قد استُدعيتُ الى بغداد يوم ٢٨ تشرين الثاني، ولكن قبل مغادرتي ارسلت رسالة شفهية الى العشيرتين أخبرهم فيها ان العملية ستُنفَذ. وأخبرتهم ايضًا بأن عليهم الذهاب الى السماوة وحتى و لو قبل اربع وعشرين ساعة من الشروع بالقصف لتسليم انفسهم. وبقيت في انتظارٍ غير مجدٍ في بغداد لسماع خبر أن رجال الشعائر قد ذهبوا الى السماوة. وكنت اشعر أن الحكومة كانت تميل لأن ترى ضرب العشائر التي تحدتهم.

كان الظلام لا يزال يلف المكان صبيحة ٣٠ تشرين الثاني عندما ايقظوني من النوم واخبروني، بأن الطائرات يجب ان تقلع خلال ساعة. وكما يبدو فإن خوشان وعزارة لم ولن يأتيا الى السماوة لاجراء ما تريده الحكومة. كانت الخطة هي استخدام جميع

الطائرات المتوفرة وتقوم بالمهمة بشكل متواصل. تقلّع الطائرات من قواعدها في معسكر الهنيدي[1] خارج بغداد، ومن الشعيبة خارج البصرة، وتقصد هدفها لترميه بالقنابل. بعد ذلك يقوم السرب ٨٤ بالعودة الى اور ليتجهز بالقنابل ومن ثم يعاود القصف وهكذا طوال اليوم. كنتُ في طائرة القيادة ضمن السرب (٨) الذي سيقوم بالضربة الاولى. كانت الطائرة تحمل قنابل زنة ٥٥٠ باوند وهي اكبر حجم عُرف انذاك لمثل هذا النوع من الطائرات المستخدمة.

بعد الإقلاع نظرتُ حولي فوجدت خلفي مجموعة طائرات السرب، شاهدت الطيّارين يرتدون خوذات الرأس الخاصة بهم. حلّقنا فوق بغداد وكان يغلفها الضباب الخفيف مع الدخان، ونهر دجلة يتلوى كشريط فضي. سيأتي مباشرة الفرات الأوسط الذي تكثر فيه الروافد، حيث بساتين النخيل ومن ثم حقول الرز. بعد وقت قصير عبرنا فوق الديوانية. شاهدتُ روافد الفرات وكان احدها يلتقي بالنهر اسفل السماوة، وبعد ذلك بمسافة قصيرة شاهدنا بساتين النخيل الكثيفة ومجموعات صغيرة من الاكواخ التي تكوّن قرى البوحسن وعشيرة الظوالم. وهناك مضيف شعلان ابو الچون الذي تحيطه اشجار النخيل. وهناك عشائر البوجيّاش حيث نهر الفرات في أوسع مناطقه وهو يمر تحت جسر السكة الحديد في منطقة بربوتي. كانت الرياح شمالية، وقد أخذنا مكاننا فوق اهدافنا وصرنا بمواجهة الرياح وأصبحت عشائر بركات بمواجهتنا تماما. كانت الخرائط التي رسمتها قد تم استنتساخها ولصقت على بطاقات بحجم مناسب لتوضع في مقصورة الطيّار، وقد تسلم كل طيّار نسخة منها. كل هدف من الاهداف أُعطي رقمًا خاصًا على الخارطة، وكان هدفنا هو رقم (١٤) كنتُ ارى الطيّار وهو

(١) اطلق اسم معسكر الرشيد على معكسر الهنيدي فيما بعد. (المترجم)

ينظر الى الخارطة التي ثبتها على جدار مقصورته، وكان يستعد لإعطائي الاشارة برمي القنبلةاصبح الهدف رقم (١٤). في المرمى تمامًا، كنت اشاهدهُ وهو يقترب شيئًا فشيئًا، هناك بُرج الحرب وهناك مجموعاتٍ من صرائف القصب وهناك القناة وبعض اشجار النخيل المنعزلة .. أنني أعرف ذلك جيدًا.

سحبتُ السلك المتصل بالقنبلة، سقطت القنبلة نحو الهدف، فجأة ارتفعت الطائرة الى الأعلى في الهواء لأنها تخلصت من القنبلة الثقيلة. شاهدتُ القنبلة الضخمة وهي تسقط حتى اختفت عن نظري. رأيت الطائرات الاخرى تقوم بنفس الشيء فوق الهدف. بعد ذلك شاهدتُ نافورةً هائلةً من الدخان والغبار يرتفع في الهواء من الهدف رقم (١٤). خففنا السرعة من اجل ان ندور ثم نهبط في السماوة. أما قرى بركات فلا شك أنها الآن تتحول الى السُنٍ من النيران والدخان ترتفع في الهواء. وجاءت الاخبار من منطقة الصفران التي غطتها النيران هي الاخرى بفعل السرب ٨٤ انتهى واجب الطيران. كل الطائرات استدلت على اهدافها بوساطة الخريطة التي رسمتها. في تقريره الاخير الذي وضعه الضابط الجوي الى وزارة الطيران حول العملية، قال فيه بوساطة هذه الخارطة من الممكن بل حتى من السهولة التأكد من ان كل قنبلة تصيب اي هدف منتخب

استمر القصف طوال نهار ٣٠ تشرين الثاني وصباح اليوم التالي ١ كانون الاول حتى إلى ما بعد الظهر. خوشان وعزارا جاءا الى السماوة، كنت ماشيًا في السوق ذاهبًا الى سراي الحكومة عندما قابلتُهما فجأة وجهًا لوجه، وقد عجبت للأستقبال الذي استقبلاني به. كنت اتوقع ان يحدث صراع بيننا لما حلٍّ بهم من كارثة، ولكن العجيب انهما استقبلاني بضحكة عريضة وتقدما نحوي مسرعين لمصافحتي وهما يقولان (مرحبًا، مرحبا .. كيف حالك ؟ نحن كما ترى جئنا الى الحكومة كما أمرت .)

اجبتُ (لو جئتما قبل القصف لكان افضل، على كل حال أخبراني ماذا حدث؟ هل قُتِل الكثير ؟) اجاب خوشان (ليس هناك من قتلى عدا امرأة عجوز واحدة)، ولكني لم أكن اعلم إن كانا أخبراني بالحقيقة. وبالتأكيد فإن الجرحى كانوا قليلين جدًا. لقد كنت قد أخبرتهم من قبل اين سيكون القصف بالضبط. إضافة الى ذلك أننا، في الواقع، قد درنا حول السماوة وجئنا من الجنوب، فصار لديهم وقت إضافي بواقع أربع أو خمس دقائق. خلال هذا الوقت استطاع الجميع الخروج من القرية واختبؤوا بين السواقي في المناطق الزراعية. سألت عزارا (أين جماعتك الان؟) أجاب (لا نعلم، والله تطشروا). أفاد جميع الطيارين بأن المنطقة كانت خالية تمامًا ولا تبدو فيها أية حياة.

في مساء اليوم الاول من كانون الاول جاء جميع شيوخ البوجيّاش ايضًا الى السماوة لأنهم ادركوا أنه من المؤكد انهم سيكونون الهدف الثاني على القائمة. في ٢ كانون الاول قامت قوة مؤلفة من ثلاثمائة من رجال الشرطة بالخروج من السماوة الى المنطقة الريفية العائدة لعشائر بركات والصفران وتنقلت القوة من قرية الى قرية وقامت بتدمير كل بروج الحرب من على الارض. هذه القوة لم تجد اي شئ حي. لقد اختفت عشائر بركات والصفران من على وجه الارض. عادت قوة الشرطة الى السماوة في ٤ كانون الاول. صباح اليوم التالي جاء كل شيوخ عشائر بني حچيم الى السماوة. كان تأثير العملية على هذه المنطقة المشهورة بالاضطراب والتمرد رائعًا. في ١٠ كانون الاول وصل وزير الداخلية الى السماوة مصحوبًا بمستشاره المستر (السير بعد ذلك) كينهان كورنواليس. سبعون من الشيوخ وكبار رجال القرى اجتمعوا لسماع خطاب الوزير، حيث امر كل زعيم ان يعود الى دياره ويدك برج الحرب في المنطقة.

صحيح ان جميع الصرائف في منطقة بركات والصفران قد تم تدميرها، ولكنها

لم تكن غير منشآت من القصب يستطيع رجال العشائر من إعادة بنائها في غضون ايام معدودات ودون كلفة تذكر كان عدد الجرحى قليل جدًا. إنها منطقة تقاتل منذ ١٩٢٠. بدا تعاطفي مع العشائر يضعف بعض الشيء. العشائر تنقسم ضد نفسها، وتنشأ العداوات وتترسخ لمختلف المناسبات، ثم تعود الى القتال.

في ٣٠ تشرين الثاني عندما استمر القصف طيلة النهار، التجأ جميع رجال العشائر الى السواقي والقنوات في مناطق العشائر المجاورة ليختفوا هناك. وما ان، حل الظلام حتى عادوا الى صرائفهم ليشاهدوا الدمار الذي احدثه القصف. مجموعة من رجال الصفران اكتشفوا بين الأنقاض قنبلة كبيرة لم تنفجر. حملها رجلان بعناية ونقلوها مسافة ميل عبر الريف الى قرية اخرى حيث يقيم اعدائهم هناك. كان بعض الرجال جالسين ومتحلّقين على الارض حول النار. الرجال حملوا القنبلة غير المنفجرة وزحفوا حتى اصبحوا على بعد بضع يارادات من اعدائهم. جمعوا بعض النباتات والحشائش اليابسة وغطوا القنبلة بها، ثم اشعلوا فيها النيران. بعد دقيقة او دقيقتين انفجرت القنبلة وتسببت بجرح اشخاص اكثر مما تسببه يوم القصف بالطائرات. هذا الحادث يكاد لا يُصدق وقد كشف الأنهيار الاخلاقي لاولئك الرجال. إنهم يظلّون يطاردون اعدائهم بمرارة كبيرة.

ارسلت السلطات المدنية بطلب خوشان الحمادي وعزارة المعجون، وأخبرتهم ان على رجالهم ان يسلّموا كل اسلحتهم خلال ثمان واربعين ساعة. ولكن لم يحدث شيء. ربما ان الحكومة لا تملك الخيال لتتصور ماذا كان يعني هذا الانذار. في كل الفرات الاوسط؛ كل رجل من رجال العشائر كان يملك سلاحًا. كثير من العداوات قد قسّمت هؤلاء الرجال بما فيهم عشائر بركات والصفران لو تخلت هاتان العشيرتان عن سلاحها فإنهم سيصحبون هدفًا للعشائر من اعدائهم. والشرطة في هذه الظروف،

لا تستطيع حمايتهم. وفي هذه الحالة فإن رجال العشائر يفضّلون الموت على نزع سلاحهم، إنهم لم يعمدوا الى مقاتلة الحكومة، انهم فقط اختفوا.

وجدت السلطات نفسها في مأزق لقد ادهشت العملية رجال العشائر، واسرعوا بشكل طوعي للتفاهم مع الحكومة، ولكن الحكومة أصدرت أوامر إضافية جديدة لعشائر بركات والصفران. ولكنهم لم يستطيعوا ولم تستطع القوّة ان تجبرهم على ذلك. ونتيجة لذلك فإن نهاية العملية صارت بالضد من اهدافها.

كنت قد اقتنعتُ بأن الفرصة النفسية العظيمة لم يتم الامساك بها. لقد قامت الحكومة بعرض مؤثر للقوة، وان الجميع اراد ان يتفاهم معها، بدا لي أنها كانت لحظة التسامح والفرصة لإعلان عهد جديد. يدعى فيها الشيوخ للمآدب والنقاش معهم للتوصل الى نظام عادل ومنصف للري غير ان السلطة المدنية كانت لها نظرة ضيقة. أما الان فإن العشائر التي ينظر اليها بعين الكره قد هُزمت، وقد اعتقدت السلطة انه آن الاوان لوضعهم تحت الاقدام، والتأكد من أنهم لن ينتفضوا مرة اخرى.

الهبوط في الزرقة

أستدعيت لمؤتمر يضم الرسميين، وكضابط مخابرات لسلاح الجو الملكي سئلتُ اين ذهب عشائر بركات والصفران، نحن لا نعلم عنهم شيئًا حلّقنا بالطائرات فوق كل المنطقة وفي علو منخفض، ولم نرَ اي اشارة تدل على الحياة. على بعد عدة اميال شمال منطقة عشائر بركات، في صحراء الجزيرة، شاهدنا مخيمًا كبيرًا يضم خيمًا سودًا. كانت الخيم بحجم ضخم وهي تختلف عن الخيم الصغيرة الحجم والرثة لعشائر الصفران. خطر في ذهني ان هذه ربما تكون بعض عشائر السعدون

الارستقراطية، وهم الامراء السابقون للواء المنتفك المجاور. هبطنا مرة اخرى في السماوة وهناك اقترحت على قائد المجموعة ان نهبط بطائرة نوع (نيتاك) قرب الخيام لنتمكن من سؤالهم بعض الاسئلة عن عشائر بركات والصفران. لم يستقبل قائد المجموعة المقترح بترحاب في البداية وقال ان الطائرات لم تُصنع لتهبط في اي منطقة لم تكن معدة للهبوط. وان الهبوط في منطقة ريفية مجازفة غير ضرورية، اضافة الى ذلك فأن رجال العشائر القاطنين في هذه الخيم ربما يكونوا عدوانيين ويهاجمون الطائرات عندما تحط على الارض. آخرون كانوا متحمسين للفكرة وقالوا يمكن اختيار جزء مستوٍ من الصحراء للهبوط. وأخيرًا حصلت الموافقة على الهبوط في الصحراء وتقرر ان نستعمل طائرات ذات المقعد الواحد والتي هي (سنب المقاتلة). كانت الخطة ان تهبط واحدة من طائرات (سنب) لنرى فيما اذا كانت الارض ملائمة، وعندما يعطي الطيار الإشارة وهي الضوء الأخضر، فإن طائرة (نيتاك) ستهبط بعد ذلك، اما الطائرتان فستظل تحلّقان بالجو وتحومان حول المكان وهما جاهزتان لإستعمال الاسلحة الرشاشة لتقومان بالتغطية في حالة قيام رجال العشائر بعمل عدواني ضدنا.

حلّقنا اوّلا فوق الخيمة الكبيرة وحُمنا في الجو، واحدة من الطائرات الخفيفة استعدت للهبوط، رأينا شخصًا صغيرًا خرج من الخيمة وأخذ يلّوح بردائه، كانت تبدو انها نوع من التحية وهي ايضا علامة من علامات الصداقة. بقينا نحوم بطائراتنا ونحن نراقب الطائرة التي هبطت في شريطٍ مستوٍ من الارض. وما ان استقرت الطائرة حتى توهج الضوء الاخضر. حطت طائرتنا على بعد خمسين ياردة من الطائرة الاولى. نزلت من الطائرة بسرعة وتقدمتُ مسافة ثلاثمائة ياردة نحو الرجل الصغير، وأخذ ينحني ويلّوح بردائه. ولكن فجأة خرجت مجموعة تقدر بستة فرسان على خيولهم وهم يندفعون نحوي بأقصى سرعة.

عرفت إنهم غير عدائيين لانهم لا يحملون سلاحًا، اخذ احدهم يلّوح بردائه وما ان تقدمت لمقابلتهم حتى اندفعت الطائرة المحلقة بعلو منخفض جدًا، ومن صوت المحرك الهادر توقعت ان يفتح النار على الفرسان، ولكنه سرعان ما ارتفع مبتعدًا. وكما توقعت فان سكان هذا المخيم هم من عشائر سعدون. رحبوا بي بالرغم من خوفهم من الطائرات المحلّقة والتي تحوم فوقهم، عرضوا عليّ ضيافتهم التقليدية، قالوا (انه وقت الغذاء، شرفونا). كان بودي ان استجيب لدعوتهم لأني سأتمكن من ان اجعلهم يخبروني بكل ما يعرفون، ولكن الطائرات التي تحوم فوقنا بصوتها المزعج جعلت الجو مضطربًا جدًا ومثيرًا للأعصاب. كانت مهمتي محدودة وهي معرفة مكان عشائر بركات والصفران، ولكنهم اجابوا (والله لا أحد سمع أي خبر عنهم). كان أزيز الطائرات لا يسمح لنا بالدخول في حوار معهم، لذلك قمت بمصافحتهم وعدت مسرعًا الى الطائرة.

بعد يومين عنّت لي فكرة. نحن الان في شهر كانون الاول وهو الشهر الذي يذهب فيه الرعاة الى الصحراء غرب الفرات. كنت قد شاهدت سابقًا العديد من الصفران وهم يرعون هناك، فما يمنعهم الان من عبور الفرات مع خيامهم ويذهبون الى الصحراء. يتوجب عليّ، اذن ان اطير بعض الأميال جنوب الفرات وبالضبط ستة عشر ميلًا جنوب شرق السماوة. أتوقع ان الصفران هناك يرعون حيواناتهم. حددت مجموعة صغيرة من الخيم البالية تشبه خيم الصفران التي شاهدتها سابقًا في منطقتهم. اعطيت الاشارة للطيّار للهبوط في هذه المنطقة، اخذ يحوم حول المكان حتى اختار مكانًا مستويًا هبط فيه. لكننا لم نشاهد اي مخلوق في المكان. أخذت أُفتش عن شخص يمكنني ان أتكلم معه، إبتعدت عن الطائرة، فقد يشاهدونني وحيدًا وغير مسلّح فيتشجعون ويكلمونني. شاهدت اثنين من الرجال اتضح انهما من عشيرة

صغيرة تدعى (طوبة) وهي عشيرة فقيرة جدًا حتى افقر من الصفران. بعد حديث عام زال التوجس وحلت الطمأنينة، فسألتهم ان كانوا شاهدوا جماعة من الصفران في أي مكان، لكنهم أجابوا ان الصفران لم يعبروا النهر.

كان بني حچيم يقولون ان عشيرة الطوبة يركضون سريعًا حتى اسرع من الغزال. وكانت هناك قصة تروى عنهم مفادها ان فصيلا من الجيش التركي كان في مسيرة عسكرية على الفرات، ألقى القبض على رجل من طوبة واخذوه الى الباشا للاستجواب. كانت الطرق مفتوحة تؤدي الى الصحراء الواسعة. وقف الأسير وأطلق كلمات بذيئة على زوجة الباشا وولى هاربا، صاح الباشا بهياج آمرا فرسانه أن يلحقوا به ويقبضوا عليه، ولكن جميع جياد الباشا وفرسانه لم يتمكنوا من اللحاق به.

أخيرًا أدركنا ان محاولة العثور على رجال عشائر الصفران وبركات الهاربين بين عشائر بني حچيم هو كالبحث عن الإبرة في كومة قش.

يمتلك العرب كثيرًا من النبل تقليديًا تتعلق بحماية الهارب والشخص الذي هو في خطر. مجرد ان يدخل الشخص المطارد الى الخيمة او الكوخ ويقول (اني دخيل وتحت حمايتكم) فإن كل الموجودين يقفون للدفاع عنه. وبناءًا على ذلك فإن الصفران وبركات ربما فعلوا ذلك في مناطق العشائر المحيطة. إختفى التصعيد تدريجًا وبدأت العشائر تعود وتعيد بناء اكواخها القصبية وأنا لا أزال أعتقد ان الفرصة لم يتم استغلالها، وان مسألة ولاء العشائر يجب ان تُحسم. ولكن هذه الفكرة غريبة على عقلية الرسميين المحليين الّذين يعتقدون ان العشائر عدوة للتقدم، لذلك يجب سحقها.

استغرقت العمليات ستًا وثلاثين ساعة وقد وضعت حدًا للتمرد في الفرات الاوسط، ولكن اثارها لم تقف عند حدود السماوة وحدها، بل امتدت الى أعلى

الفرات وأسفله وحتى الأهوار، وعبرت دجلة. ادركت العشائر المتمردة ان عهدًا جديدًا قد حل وان التمرد والمشاكل اصبحت في الماضي.

يعتقد الاوربيون ان الانسان الفطري عنيف ومتوحش وقاسٍ، وهو يقوم بسحب المرأة من شعرها. ولكني وجدت الحميمية والأُلفة يمكن تكوينها مع مختلف رجال العشائر من العرب في الدول العربية، وهذا يجعلني في شك من حضارتنا المفترضة بأنها متفوقة. رجال العشائر بالطبع لم يكونوا مثل الانسان البدائي او رجل الكهف في عصر ما قبل التاريخ، ولكن تفصلنا عنهم مسافة كبيرة من الزمن. الفجوة الزمنية طويلة كانت ام قصيرة ليس نتيجة اختلاف أخلاقي او انساني. ان معاييرهم هي اعلى مما لدينا. هناك مواصفات محددة لحضارتنا المعاصرة. الاختلاف الملحوظ بينهم وبيننا هو في التعامل مع المرأة. قتل النساء يتعلق بقضايا الشرف عند العشائر، في حين اننا لا نفرق عند قصف المدن الكبيرة. والأرهاب يترك قنابل موقوتة في الاماكن العامة، او حتى قتل النساء من اجل اسباب سياسية. قد نُعَزي انفسنا بالاعتقاد بأن الجنس البشري ينمو وهو يميل الى الرحمة والشفقة، وقد يغدو اكثر تسامحًا وحبًا، ولكن خبرتي لا تقنعني بأن ذلك صحيح .

الفرق الحقيقي بين الشرق والغرب في هذا الموضوع، كما يبدو لي، هو أن الاتجاه العصري في الغرب يدعي ان الرجال والنساء في الواقع بعضهم مثل بعض. التأكيد عند العرب ينصَب على الفرق المؤكد في الجنس، وذلك ليس في مجال التنافس بل في التكامل، الواحد .مع الآخر الرجال والنساء يعيشون حياة مختلفة. في بعض الاحيان تُعامل النساء بطريقة اسوأ مما هي في الغرب، ولكن في بعض الاحيان تكون أفضل. الجنسان لم يكونا متنافسين

العمليات التي جرت ضد بعض عشائر بني حچيم قد جرت ضمن ما يُعرف بالأمن

الداخلي. ولكن التعهدات البريطانية المهمة في العراق هو مساعدتهُ في الدفاع ضد الاعداء الخارجيين. هذا الإلتزام بدا واضحًا بعد اربع سنوات عندما حاولت تركيا ان تستولي على لواء الموصل. بلا شك قامت بريطانيا بنصرة العراق في هذه القضية ... طُلب مني ان اعود الى الناصرية حيث كانت هناك بعض العواصف تتجمع في الافق.

غزو من اجل القتل

زهاء عام ١٧٤٢ كان رجل يُدعى محمد بن عبد الوهّاب يدعو بالوعظ الديني الناس في نجد إلى إحياء الدين الاسلامي. في البَدء استجاب قليل من الناس له، حتى أعلن شخص يُدعى محمد بن سعود، وهو شيخ صغير من عشائر عنِزة بأنه يناصر هذه الدعوة ويؤمن بها ويعمل من أجل دعمها وإسنادها حتى بالقوة المسلحة. في عام ١٧٧٠ كان معظم سكان مركز الجزيرة العربية قد انضموا الى تلك الحركة، سواء عن طريق الإقناع أم عن طريق الإجبار. أُطلق على هذه الحركة (الحركة الوهابية) وسرعان ما هاجمت هذه الحركة المدن على نهر الفرات. وفي عام ١٨٠٣ استولوا على مكة. وفي عام ١٨١٠ حاولوا الوصول إلى بغداد ودمشق.

كانت أوروبا، في ذلك الوقت، منشغلة بحروب نابليون والإمبراطورية العثمانية لا حول لها ولا قوة. قارع ممثل السلطان محمد علي، وهو حاكم مصر الألباني، الحركة الوهابية، ودخل في حرب معها، من عام ١٨١٢ حتى عام ١٨١٦.

وقد اعترى الجيش المصري التعب والإنهاك نتيجة لتلك الحروب. أما الحالة في نجد فقد ظلت مضطربة، وقد بسطت الاسرة السعودية نفوذها المتزايد هناك.

عندما نزل الجيش البريطاني في البصرة إبّان الحرب العالمية الاولى، كانت نجد

منقسمة الى قسمين، القسم الجنوبي وكان يحكمهُ عبد العزيز ابن سعود. في حين كان ابن رشيد يحكم القسم الشمالي، وكانت عاصمته حايل. قبل الحرب العالمية الاولى كانت الإمبراطورية العثمانية تمتلك حامية عسكرية في الإحساء على الخليج. ولكن في عام ١٩١٢ قام ابن سعود بطرد تلك الحامية واستولى على المنطقة، وأخذ يبحث عمّن يتحالف معه، إنْ قام العثمانيون برد فعل.

أسس ابن سعود بعض الروابط مع البريطانيين عبر المقيم البريطاني في بوشهر، وهو موظف في الحكومة البريطانية في الهند.

في عام ١٩١٢ دخل ابن سعود في حرب مع منافسه ابن رشيد، فقام بتنشيط علاقته مع الوهابيين المتعصبين ليقوموا بدورهم بمساعدته في صراعه ضد منافسه ابن رشيد. خَسِر ابن رشيد مواقعه على الأرض، فتوجه للعثمانيين لينصروه. ولكن الدلائل كلها كانت تشير الى ان ابن سعود سيتمكن من السيطرة على الموقف. وبالتعاون مع القادة الدينيين في الحركة الوهابية قام ابن سعود بتشكيل مجموعات من العشائر البدوية صارت تعرف بأسم (الأخوان).

وقد حرّم الاخوان التبغ والموسيقى، ولبس الحرير وكل المظاهر التي تنم عن الترف. وقد أقسم الوهابيون أن ينذروا حياتهم ليهدوا العالم الى مذهبهم حتى باستعمال القوة.

في شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤ قام الكابتن دبليو. أتش. آي شكسبير، وهو الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، بزيارة ابن سعود، وناقش معه التحالف مع بريطانيا.

إمتدت قوة ابن رشيد الى الصحراء الى غرب الفرات، وهذا كان يهدد خاصرة الجيش البريطاني الذي يتحرك الى أعلى ذلك النهر. في كانون الثاني ١٩١٥ أقنع شكسبير ابن سعود بمهاجمة ابن رشيد، ولكن نتيجة المعركة التي دارت في (جراب)

كانت مقتل شكسبير نفسه. بعد ذلك ظل ابن سعود في أرضه حتى نهاية الحرب. خيّم السكون بعد ذلك على المنطقة، كان جزء من ذلك السكون ربما يعود الى ان الدعم البريطاني قد تحوّل الى أمير عربي أخر هو الشريف حسين شريف مكة.

في صيف ١٩٢٠ جيّش ابن سعود جيشًا سار به الى حايل واحتلها وبهذا لم تعد دولة ابن رشيد موجودة، وأصبح ابن سعود هو الحاكم الوحيد لنجد، مركز الجزيرة العربية، وهو أيضًا، الجار للدولة الجديدة وهي العراق.

في السنة ذاتها ونتيجة للتسويات المختلفة لمابعد الحرب فقد استقبلت ثلاث من الدول العربية الجديدة حكّاما من عائلة شريف مكة، يعدّهم ابن سعود منافسيه في الحكم. صار الشريف حسين ملكًا على الحجاز، والأمير عبد الله أصبح حاكمًا على شرق الأردن، أما الامير فيصل فقد توّ ج ملكًا على العراق .إرتاب ابن سعود من هذا التعيين الذي شمل ثلاثة من عائلة الشريف حسين، وعدّه مكيدة بريطانية موجهة نحوه.

كانت بريطانيا تسيطر على السياسة وتديرها بشكل ميكافيلي وهي تسعى الى تحقيق مصالحها. كانت تعمل على تحقيق معاهدة صداقة بين العراق الذي يحكمه ملك من عائلة الشريف حسين، شريف مكة، ونجد التي هي تحت حكم ابن سعود. إلتقت وفودٌ من كلا البلدين في ربيع ١٩٢٢ في (المحمّرة) قرب البصرة، ولكنهم فشلوا في الاتفاق. وأخيرًا تم التوقيع على المعاهدة بين العراق وابن سعود في (عقير) في الإحساء. وقد تحقق ذلك بجهود خاصة من قبل السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق الذي عمل كوسيط. كان ملحق المعاهدة سلسلة من الوثائق سُمّيت (بروتوكولات عقير) وكان قد كتب مسوداتها السير بيرسي كوكس نفسه، وقد وضع الحدود بين نجد والعراق. قبِل ابن سعود الحدود ولكن على مضض. في خريف ١٩٢٢ كان موقف ابن سعود بشكل او بآخر كما يأتي:

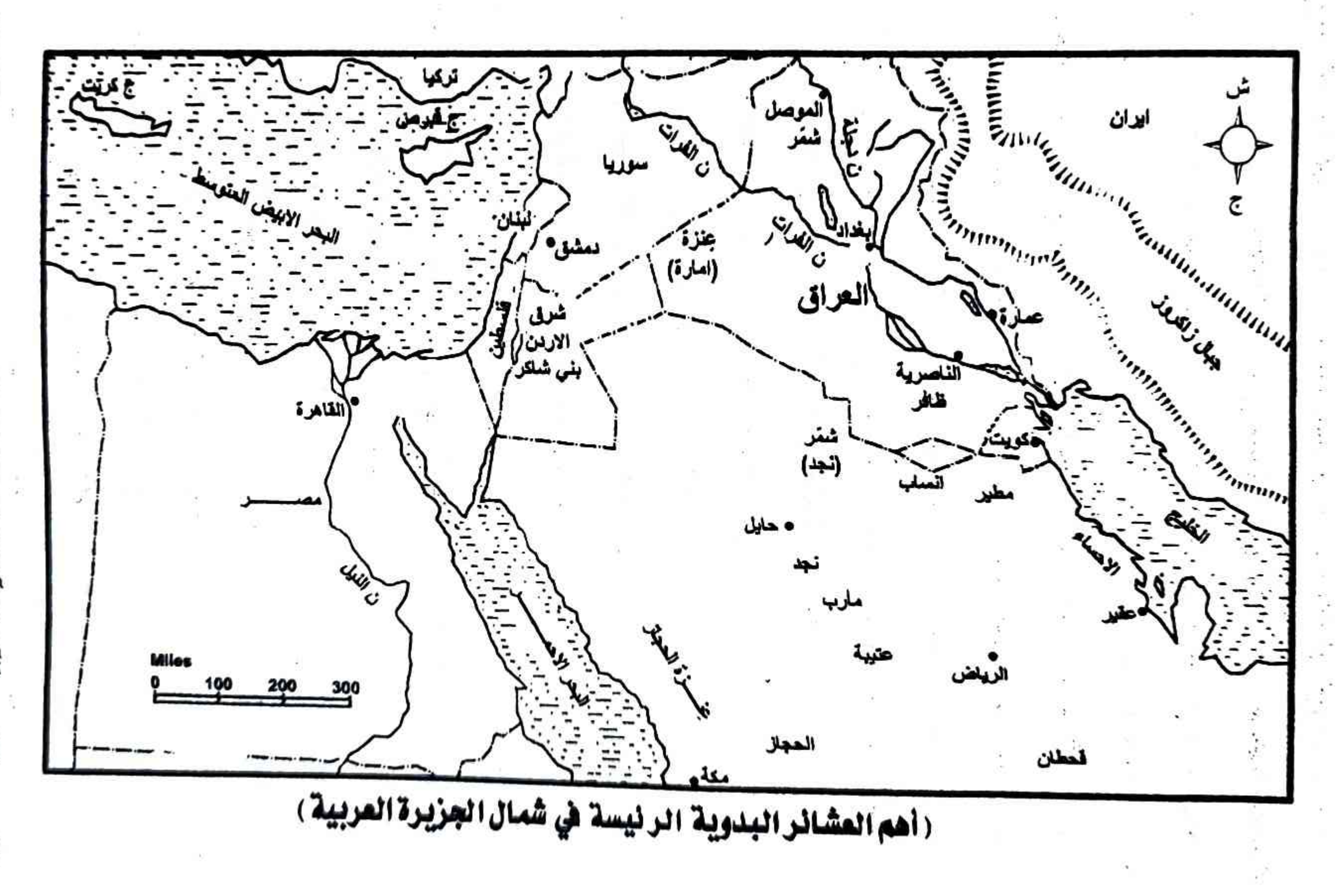
أ – نتيجة للتعصب الديني الذي ساهم هو في تنشيطه، فقد هَزم منافسه ابن رشيد واصبح بذلك الحاكم الوحيد لمركز الجزيرة العربية.

ب – ادّعى أتباعه المتعصبون بأن واجبهم الانتصار على كل العالم لصالح المذهب الوهابي، وهم لا يترددون في رفض الحدود السياسية التي وضعها أحدهم على الخريطة.

ج – كان عبد العزيز ابن سعود رجلًا ذا نفوذ وفطنة، وهو توّاق لتجنب الصِدام مع بريطانيا، ولكنه لم يستطع الاعتراف لأتباعه بذلك. ولمدة عشرة أعوام كان يُذكي في أتباعه التعصب، ويجد الآن من الصعوبة أن يتراجع عن كلماته. لذلك فإن الاخوان كانوا يجهرون بأنهم سيقودون حملة للانتصار على العراق ليصبح وهابياً كما انتصروا على ابن رشيد.

وجدت الحكومة العراقية، التي تأسست حديثاً في بغداد، أن هذه المشاكل هي مشاكل من نوع مختلف تمامًا، حيث أن العقلية العثمانية لا تزال مسيطرة عليهم، إنهم يتطلعون فقط الى التقدم واتباع الأسلوب الغربي الحديث. كانت العشائر غير متمدنة فيجب أن تُكتَسح، لا سيما العشائر البدوية في الصحراء. ماذا يهم إذا قام الاخوان بالإغارة على العشائر البدوية العراقية وقتلها؟ ليس للبدو أي فائدة او قيمة للحكومة العصرية بأي حال.

بعد التوقيع على المعاهدة والبروتوكولات في عقير مضت أيام الشتاء بهدوء بعد ترسيم الحدود الجديدة بين العراق ونجد. كنت في حينها في لواء الدليم مهتماً بإمكانية نشوب حرب مع تركيا بخصوص مشكلة الموصل.



(أهم العشائر البدوية الرئيسة في شمال الجزيرة العربية)

في خريف ١٩٢٣ عدتُ مرة اخرى الى منطقة الفرات الأسفل، وتنقلت بين السماوة والناصرية. تمتد الصحراء شمال وغرب الفرات زهاء سبعمائة ميل حتى النهاية الشمالية للبحر الأحمر. المنطقة الواقعة قرب الفرات تتكوّن فيها المراعي وتقطنها عشائر من البدو تعرف بعشائر (ظافر). في الشمال الغربي من هذه العشائر تقع عشائر (الإمارة) من عنِزة التي يرأسها فهد بن هذّال. وكنت قد زرته في القائم. وفي جنوب غرب عشائر (ظافر) تقع عشائر (شمّر) وكانوا يدعمون ابن رشيد، وهم الآن من الرعايا السعوديين. شمال (ظافر) تقطن عشائر (مطير) وهم يُعرفون كرعايا سعوديين، ومن بينهم بعض مجموعات الأخوان الوهابيين الأكثر تطرفاً، كانوا من العشائر البدوية الكبيرة التي تعتمد على الجِمال، وقد قضوا جُل حياتهم في الصحراء.

على طول ضفة الفرات يقطن الكثير من عشائر الرعاة الذين يقضون الصيف بجوار النهر حتى تضحي قطعانهم لا تطيق حرارة صيف الصحراء.

في تشرين الثاني وكانون الأول عندما يبدأ المطر بالهطول تكتسب الصحراء فجأة طبقة من الحشائش، وتتكوّن برَكٌ من مياه الأمطار في الوديان الصخرية.

ينتقل الرعاة في الصحراء حاملين خيامهم وأمتعتهم على ظهور الحمير، وهم يقطعون مائة او مائة وخمسين ميلًا، بعيدًا عن ضفة النهر وعن المخافر الحكومية.

خلال هذه الفترة وحتى نيسان تنتشر عشائر الرعاة في منطقة؛ سعتها ثلاثة آلاف ميل مربع، في صحراء مفتوحة تقع بين الفرات والحدود العراقية النجدية المحددة حسب بروتوكولات عقير.

خلال السنوات الطوال إبان الحرب بين ابن رشيد وعبد العزيز ابن سعود ظهرت نزعة ستراتيجية عند الوهابيين (الاخوان) ضد الرعاة العراقيين.

إذ تقوم العشائر الوهابية بتجميع أفرادها المهاجمين الذين يتكونون من ثلاثة

او اربعة آلاف من راكبي الجِمال لمهاجمة الرعاة العراقيين. كانوا يجهّزون أنفسهم وينتظرون الهدف المناسب. وعند الغروب يخرجون ويسيرون طوال الليل ليقطعوا زهاء سبعين ميلًا، ةومن ثمَّ يفاجِئون ضحيتهم عند الفجر بهجوم قاسٍ.

لم يُسمح لطائراتنا أن تجتاز الحدود بين العراق ونجد للبحث عن المهاجمين، لذلك أصبح الموقف كما يأتي.. يجتاز الاخوان الحدود تحت جنح الظلام ويصلون أهدافهم بعمق سبعين ميلًا داخل الحدود العراقية في الفجر.

بتعبير آخر، ان الطائرات لا تستطيع الوصول في الوقت المناسب لحماية مخيمات الرعاة من هجمات الفجر. العامل المضاف للهجمات هو خصوصية تلك الهجمات، فإنها تنتهي بمذبحة. الأخوان يقتلون جميع الذكور بدم بارد، حتى الأولاد الصغار بما فيهم الأطفال الرضّع. والنساء اللاتي لن يقتلن وينجين من الهجوم لا يبقى لهم غير النحيب والعويل ثم يسرن عشرات الأميال في الصحراء الخالية وهن مرعوبات وخائفات ليصلن الى قوم يجيروهن.

في كانون الأول ١٩٢٣ عندما عدت الى الناصرية من السماوة كانت عشائر الرعاة قد خرجت لتوها الى الصحراء غرب السكة الحديد، وليس هناك من مسؤول حكومي من أي نوع كان قد جاء الى الصحراء غرب السكة الحديد، وليس لأي شخص أدنى فكرة أين يذهب أولئك الرعاة.

كان الأخوان راغبين في توسيع غزواتهم في عمق العراق، وكانت معاهدة وبروتوكولات عقير تصون السلام عندما يكون هناك تدخل من الحكومة العراقية وابن سعود وبمساعدة الوسيط السير بيرسي كوكس ممثل الحكومة البريطانية. ولكن وصول الأمير فيصل وتنصيبه ملكًا على العراق أيقظ الشك في نفس ابن سعود وجعل تعاونه غير مؤكد.

لسوء الحظ ووفقًا لاقتصاد ما بعد الحرب، فإن الدعم المالي الذي كانت بريطانيا تمنحه لأبن سعود قد توقف. ليس من السهل تجنب الربط بين توقف الدعم المالي وتنصيب الأمير فيصل ملكًا على العراق.

نشأ في كانون الأول ١٩٢٣ بعض التأزم في العلاقة بين الملك فيصل وابن سعود نتيجة المنافسة التي لا نهاية لها بين الأمراء العرب.

تصاعدت الأعمال العدوانية في الصحراء. الخطوة الأولى التي يجب توفيرها هي الحصول على معلومات طوبوغرافية للمنطقة. قمتُ بعبور خط السكة الحديد متجهاً نحو الجنوب الغربي الى منطقة صحراوية بِكر. المسافر الوحيد الذي اجتاز هذه المنطقة من قبل هو (ليجمان) عام ١٩١٢، كان يصاحبني كالعادة علي الياسين وأحد رجال شمّر وآخر من ظافر لحمايتي. قضينا ثلاثة أسابيع تقريبًا نتنقل في الصحراء جنوبًا حتى منطقة (المغار) التي تقع في القمة الشمالية لمنطقة الحياد. ولقد زرنا وقضينا الليل مع العديد من خيم العشائر من بدو ظافر والرعاة. كان الرعاة مهتمين بشدة بالعلاقات بين الحكومة العراقية وابن سعود. العديد منهم سأل بصراحة لماذا لم تقم لحكومة العراقية بحمايتهم من غزوات الأخوان بالرغم من أنهم يأخذون منهم الضرائب.

عند عودتي الى الناصرية عملت جاهدًا لوضع خارطة جديدة بمقياس رسم واحد الى مليون لتلك الصحراء معتمدًا على المعلومات الطوبوغرافية التي حصلت عليها. لدينا الآن في الأقل بعض المعلومات الجغرافية التي تفيدنا في تقاريرنا المخابراتية.

في آذار ونيسان ١٩٢٤ غبتُ مدة شهرين في إجازة. في أثناء غيابي قام فيصل الدويش زعيم الأخوان في منطقة مطير، بغزوة كبيرة على عشائر الرعاة العراقيين في منطقة (أنساب). الكثير من العراقيين قُتِلوا وآلاف الأغنام والحمير نُهِبت وكذلك الخيام والممتلكات. عدتُ من الإجازة في نيسان ووجدتُ بقية الرعاة العراقيين

متجمعين وهم مرعوبون في الضفة الغربية للفرات.

في السنوات العشر الماضية كان ابن سعود يُعرف عالميًا كحليف لبريطانيا ويتلقى الدعم منها. لذلك فإن الغزوة التي قام بها أتباع ابن سعود كانت في نظر البدو العراقيين بموافقة ابن سعود، إن لم تكن بتشجيع منه، وقد شعر العراقيون آنذاك بمرارة شديدة من هذه المخادعة.

من جانب آخر كانت هناك غارات صغيرة في نجد قام بها اللاجئون من الأخوان بتشجيع مزعوم من الملك فيصل، حسب اعتقاد ابن سعود، وهو مدعوم من البريطانيين الذين يتولون الإنتداب على العراق. وبهذا كان ابن سعود والملك فيصل يتبادلان التهم واحدًا ضد الآخر، وكلا الجانبين يلوم البريطانيين.

في معالجة موضوع الغزوات من قبل الأخوان كان يتوجب علينا المعرفة اليومية لأماكن تنقل العشائر العراقية، وأن يتعاونوا معنا ويتبعوا تعليماتنا.

وهذه ليست بالمهمة السهلة، وذلك بسبب أن العشائر العراقية تشكُ بأننا في الواقع متحالفون مع الأخوان. إن المهمة تتطلب صبرًا وأن نقوم بزيارة العشائر للتحدث معهم، لأنه من الضروري أن نُقنعهم بأننا نرغب في مساعدتهم وليس خداعهم وخيانتهم.

في كانون الأول ١٩٢٤ أرسلت مفرزة من القوة الجوية الملكية مع عربة مسلحة لتقوم بالإستطلاع في الصحراء. هذه العملية ربما كانت مفيدة كعملية تمرين وتدريب في الصحراء، ولكنها لم ترتبط بأي حال من الأحوال بالموقف الدفاعي. تقدمت العربة المسلحة الى بعد سبعين ميلًا من الحدود، ولم يقتربوا من منطقة الخطر. عادت المفرزة الى بغداد في منتصف كانون الأول ليكون الأفراد في ثكناتهم في أثناء أعياد الميلاد.

موسم الغزوات على وشك أن يبدأ، الرعاة العراقيون قد خرجوا فعلًا الى الصحراء. حتى لو قامت الطائرات بضرب القوم الغازين فستكون النتيجة قليلًا من

الجرحى بين راكبي الجِمال. ولكن إذا قامت العربات المسلحة بضربهم على الأرض فستُلحق بهم هزيمة تمنعهم من القيام بالغزو الى الأبد. العربات المسلحة هي الحل لمشكلتنا. ولكن ربما لأن تلك الفكرة كانت حماسة مني، لم يهتم بها أحد.

تسلمنا تقارير متعاقبة من غزوة كبيرة سيقوم بها الأخوان بقيادة فيصل الدويش زعيم عشيرة مطير، ولسوء الحظ فإن مطرًا غزيرًا سقط على الصحراء؛ في منطقة تبعد سبعين ميلًا عن الحدود. غُطّت التلال المنتشرة في المنطقة بالحشائش الخضراء اليانعة. أثار رعبي أن مجاميع عديدة من الرعاة قد نزحوا الى منطقة المراعي تلك. وبسرعة قمتُ بإرسال رسائل مع الجمَّالين أُحذر فيها الرعاة من البقاء في المنطقة لأن غزوة كبيرة على وشك أن تبدأ وأمرتهم في الرسالة أن يعودوا أدراجهم. عاد الرسول وأخبرني بأن المرعى جيد جدًا، والرعاة رفضوا العودة. ليس لدي من وسيلة أخلّصهم فيها، وانا أعيش حالة اليأس قررت أن أذهب بنفسي اليهم وأحاول إقناعهم بالعودة. غادرت محطة تل اللحم مع اربعة من راكبي الجمال عشية عيد الميلاد ١٩٢٤ لأزور مخيمات الرعاة، وأعود بهم من هناك. أمضينا الليلة في مخيم صغير مع عشيرة ظافر، نهضنا مبكرين في صباح اليوم التالي على أمل أن نمضي الليلة التالية في مخيم متقدم من مخيمات الرعاة في مكان يدعى (جو هادية). كان الوقت يقترب من ظهر اليوم التالي، عندما صعدنا أحد التلال الصحراوية وشاهدنا فجأة حركة في الوادي، كان الوادي مملوءًا بالخراف والحمير والجياد والرجال والنساء والأطفال، وهم يهرولون على أقدامهم بأسرع ما يستطيعون متجهين نحو الشمال وهم يهشون على مواشيهم وتتعالى بينهم أصوات البكاء والنحيب. على بعد ميل منهم، في الجنوب، شاهدنا طابورًا طويلًا من راكبي الجمال، وهم يرفعون رايات الحرب، ويطاردون الرعاة الفارّين. إندفع بعض راكبي الجمال من الجانبين الى الأمام وذلك

لتفريق الرعاة الهاربين ليبتعدوا عن مواشيهم والنجاة بحياتهم والهرب من الموت. إقتربنا من الهاربين لنتبين ما يحدث، معظمهم كان يبكي ويولول ويردد (الدويش، الدويش، الأخوان).

ولكن البعض منهم، ممن تمالك نفسه، استطاع أن يشرح ما حدث، وقال بأن المخيم الجنوبيّ للرعاة تعرّض للغزو في الصباح الباكر، وقام به عدد من راكبي الجمال، وأن رجال المخيم جميعًا قد قُتلوا. وكان مخيم هؤلاء القوم يقع في الشمال من المخيم المنكوب وكانوا عاجزين عن الوقوف بوجه المهاجمين، ولم يستطيعوا إلا الهرب. المهاجمون الآن على بعد ميل من موقعنا، إنهم يتوقون لقتل ضحاياهم ومن ثم يجمعون الماشية والحمير.

أصاب رجال البدو الأربعة الذين يرافقونني الهلع، وأخذوا يستعجلوني في ركوب الفرس والهرب وترك الرعاة لمصيرهم. لم أشأ أن أضع نفسي في هذا الموضع الخسيس، وأخذل أولئك الناس التعساء وأهرب، لاسيما أن الحكومة التي أعمل لخدمتها هي المسؤولة عنهم.

(عقود من السنين مرّت منذ يوم الفاجعة ذاك، ولكني ما أزال أرى بعين عقلي أولئك النسوة المرعوبات، وهن يحملن أطفالهن ويسحبن البعض الآخر، ويكاد الإعياء يأخذ منهم كل مأخذ، ويقعن مغشيًا عليهن، وراكبوا الجمال يُمعنون في ضربهن.. الجميع مرعوب ويصرخ.. يا الله.. يا محمد.. يا علي.. يا رب إرحمنا..).

مَرّت ساعتان فأصبحنا في وسط القوم الهاربين، واخيرًا يبدو أن المطاردين قد توقفوا قليلًا. حل المساء عندما قررتُ أن أذهب بأسرع ما أستطيع على أمل أن أُبلّغ بالخطر، ليقوموا بتجهيز الطائرات لقصف الغزاة في اليوم التالي. أصاب الإعياء جمالنا، وقام أحد مرافقيّ باستعارة حصانين من البدو، واتجهنا بأسرع ما نستطيع

الى محطة قطار (چليبة) التي وصلناها بعد الفجر مباشرة ونحن بحالة تعب شديد. بعد خمس دقائق أعلن موظف البرق أن الخط الى رئاسة القوة الجوية يمكن استعماله. قمنا بالإبلاغ عن الغزو الذي قام به الأخوان، وطلبنا استعمال الطائرات في الحال. ولكن هذا الجو المشحون بالقلق أنساني أمرًا مهمًا هو أن الليلة الماضية كانت ليلة عيد الميلاد. وصلت برقيتي الى بغداد ولكن جميع الدوائر كانت مغلقة، ونصف العاملين كانوا في إجازة. وقد قضيت اليوم في محطة القطار الصغيرة في (چليبة) على بعد خمسين ميلًا من غزوة الأخوان الكبيرة.

في صباح اليوم التالي كانت ثلاث طائرات تقوم بقصف الغزاة. بطائرات قليلة جعلنا الغزاة أقل أذى، ولكن أخيرًا جعلنا قيادة القوة الجوية والحكومة العراقية تعترفان بأنَّ هناك غزوًا وهناك مذابح.

وما إن مرت أيام أربعة حتى تسلمنا تقارير تفيد بأن غزوة جديدة للأخوان قد حدثت، وقد ذبحوا فيها الرعاة من عشيرة (زيّاد) في السلمان. أُرسلت ثلاث طائرات من بغداد للتحقيق.

طارت فوق آبار السلمان ووجدوا صفوفًا متعددة من الخيم وصفوفًا متعددة من الخراف والجمال. كان الغزاة من عشيرة (حارِب) قد خيموا مدة أربعة أيام للاستراحة بعد إنتهاء المعركة. لم تكن الطائرات تحمل سلاحًا، كانت فقط للاستطلاع وقد مسحت الأهداف.

بعد أيام قليلة نُفِذَت غزوة أخرى على رعاة بني سلامة في منطقة (إشبچة) ولكن أخبار تلك الغزوة لم تصل الى الحكومة إلا بعد اسبوع، بعد أن وصل عدد من الناجين المنهكين حد الإعياء الى الفرات سيرًا على الأقدام. هذه الغزوات والمذابح المتعددة حرّكت الحكومة وقيادة القوة الجوية لاتخاذ ردود أفعال سريعة. وكما اقترحت في

تشرين الأول الماضي فقد تم تأسيس مخفر متقدم وأرضية للهبوط في منطقة ابو غار، ثلاثين ميلًا خلف السكة الحديدية في المنطقة الصحراوية.

نصب الجيش العراقي أجهزة لاسلكي تتصل مباشرة بإدارة القوة الجوية العامة. أُرسل احتجاج بريطاني شديد اللهجة الى ابن سعود طالبين منه منع غزوات أخرى يقوم بها الأخوان. عامل آخر جاء في صالح الحكومة العراقية وهو إعلان الحرب من قبل ابن سعود على الملك حسين ملك الحجاز حيث تجمعات الإخوان القوية.

من وجهة نظر الرعاة كان ربيع ١٩٢٥ كارثيًا بالنسبة للعشائر العراقية. الحزام الصحراوي على امتداد سبعين ميلًا شمال حدود العراق مع نجد كانت تكتسي بالحشائش الطويلة والأزهار البرية. ولكن ظلت عشائر الرعاة متجمعة في منطقة حول ابو غار، ولكن المطر تأخر. وفي كل صباح تحيط بالخيام الصغيرة الخشنة مجموعة من جثث الخراف والجمال والحمير الميتة التي ماتت من الجوع، في الحقيقة إنه منظر يحطم القلب.

حياة البداوة

انقضى ربيع ١٩٢٥ مع درجة قليلة من الخطر في جنوب الصحراء. دخل ابن سعود مع جميع قواته بما فيهم الأخوان حربًا ضد الملك حسين ملك الحجاز، كانت هناك رغبة في السلام، عند الحدود مع العراق حتى نهاية الحرب في الحجاز، كان الرعاة قد عادوا الى ضفاف نهر الفرات، أما عشيرة ظافر البدوية فقد ظلت ترعى جمالها في ظل الأمن في الصحراء. بعد ذلك فجأة في ٢٢ حزيران ١٩٢٥ جاءت جماعة غازية من عشيرة مطير، بدون سابق انذار فساقت ألفًا وسبعمائة بعير من عشيرة

ظافر، ثم عادوا وعبروا الحدود مع نجد قبل وصول تقارير حول الحادثة الى العشائر الأخرى، ومن ثَمَّ الى الحكومة. الحكومة العراقية غضبت لهذا الإنتهاك بعد الوعد الذي أعطاه ابنَ سعود، قبل ثلاثة أشهر بأن يعم السلام المنطقة؛ ثم تأكد لعشيرة ظافر بأن جمالهم ستعاد اليهم وأن لا تقع غزوات أخرى. ولكن مرَّ الصيف وجاء الخريف ولم ترد أي إشارة لإرجاع الغنائم المسروقة. في هذه الأثناء واجهت عشيرة ظافر المجاعة، فنظموا أنفسهم على شكل مجموعات صغيرة لغزو نجد واسترجاع بعض الجمال منهم.

قامت الحكومة البريطانية بمحاولة حل المشاكل بين العراق ونجد فأرسلت بعثة دبلوماسية برئاسة السير جلبرت كلايتون لمناقشة الحدود بين العراق وابن سعود. الحرب لا تزال قائمة في الحجاز، ولكن الوفد البريطاني التقى ابن سعود في (بحرة) في الطريق بين مكة وجدة.

وُقِعَّت اتفاقية (البحرة) في تشرين الثاني ١٩٢٥ ووافق الطرفان على إنزال العقوبة على من يقوم بالغزوات. كلتا الحكومتين كانت قد وعدت من قبل بمثل هذا الوعد. ولكن الإتفاقية الجديدة، التي تم توقيعها توًا، كانت في ظرف هادئ وخالٍ من التوتر. إضافة الى ذلك كان من الواضح أنه بعد انتهاء الحرب في الحجاز، كان ابن سعود يود سلامًا حقيقيًا مع العراق. لسوء الحظ فإن جِمال عشيرة ظافر لم تعُد، لذلك أصروا على تعويض خسائرهم بسرقة بعض الجِمال من نجد، ولكنهم كانوا خائفين من أن يتخذ الأخوان من ذلك سببًا للقيام بغارة مرة أخرى. وظل الرعاة يخشون الإندفاع الى خلف الحصن في أبي غار.

أخبرتنا مصادرنا الإستخباراتية في نجد أن ابن سعود أصدر أوامر مشددة بعدم الإغارة على العراق، علاوةً على ذلك غادر جميع الأخوان الحجاز. ونتيجة لاتفاقية

البحرة أعلنت الحكومتان البريطانية والعراقية السلام في منطقة الحدود واتفقتا على وجود عربات مسلحة في المنطقة، وعدد قليل من الطائرات تقوم بأعمال الدورية.

لقد تغير الموقف منذ سنة ١٩٢٤؛ إعتقد الرعاة أنّ البريطانيين هم حلفاء ابن سعود وهم متفقون على تدميرهم. أما الآن فهم مرتاحون لأننا نحاول أن نساعدهم، ولكنهم استنتجوا أن ابن سعود هو أقوى منا وأنه في طريقه للاستيلاء على العالم.

بعد المناقشة مع (عجيمي بن صويّت) شيخ عشيرة ظافر، تم وضع خطة. لقد أكّد أنّ الرعاة سوف يموتون في الأرض المكسوة بالحصى قرب حصن (أبو غار) خشية الغارات القاتلة إلا إذا قمتُ أنا نفسي بقيادتهم الى الخارج، وقد تطوّع بنفسه أن ينتقل مع أتباعه المقربين الى منطقة الحياد، إذا ذهبت أنا معه.

يتشابه العرب البدو مع الرعاة، إنهم يستعملون خيامًا مصنوعة من شعر الماعز الأسود، الحكومة فقط تستعمل خيامًا مصنوعة من الكانفس الأبيض. التجهيزات اتي استعملتها للعمليات في الصحراء كانت عربة نوع فورد، وخيمة حجم مائة وعشرين باوند بيضاء اللون ويرافقني سائق واثنان من رجال البدو.

عجيمي بن صويت ومرافقوه من عشيرة ظافر، هدّوا خيمتهم في (أبو غار) ونصبوها على بعد خمسين ميلًا الى الجنوب من (لُقطة) بالقرب من خيمتي الصغيرة البيضاء. إكتشف الرعاة تلك الخيام في منطقة رعي ممتازة فَي (لقطة) وسألوا (ما هذه الخيمة البيضاء؟) أجابهم عجيمي (إنها خيمة الحكومة). عاد الرعاة الى خيمهم وقال بعضهم لبعض (عجيمي بخير والحكومة معه) وشيئًا فشيئًا جاؤا الى المكان فغصَّ بهم، أي انهم انتقلوا الى (لقطة) ولكنهم حرصوا دائمًا على أن تكون الخيمة الصغيرة البيضاء، وخيمة عجيمي الكبيرة السوداء في المقدمة.

في بعض الأحيان تحدث هناك أعمال تثير الأعصاب، كانت الشائعات تفيد أن

فيصل الدويش قد عاد الى نجد. مرة أخرى، أصاب الرعاة الرعب ففروا. ولنؤكد ثباتنا تحركنا متقدمين الى الجنوب ونصبنا خيامنا في (الرخيمية) في منطقة الحياد، حيث كان العشب رائعاً. عندما أصبح الجو أكثر دفئًا، تحركنا ببطء شمالاً، كانت الجِمال الكبيرة ذوات السنام الضخم تتحرك وهي تحمل الأحمال. أصبحت الماعز والحُملان بأحسن حال، امتلأت خيامنا بالحليب والزبد، أما الأخوان فلم يأتوا.

عشتُ مع البدو هذه الأشهر؛ في منطقة تبعد ثمانين ميلًا الى جنوب أقرب منطقة فيها مخفر حكومي؛ أما اللاسلكي فهو منصوب في ابو غار. وقد اكتسبت تدريجًا معرفة بطريقة حياة البدو. وفي دراسة الشخصية البدوية، او الشخصية في المجتمع الزراعي، وتوجهاتهم نحو الحرب، نجد أن الفلّاح المستقر في أرضه يعتمد في عيشه على أرضه التي فيها أشجاره وأشياء أخرى غير منقولة. إنه لا يتنازل عن ممتلكاته للأعداء، إنه مستعد ليقاتل دونها حتى الموت، لأجل ذلك فإنه يجعل الهجوم عليه ليس سهلًا. في نفس الوقت الزراعة هي عمل مضنٍ يترك قليلًا من الطاقة الفيزياوية او الوقت لينغمس في أعمال العنف. اضافة الى ذلك تستغرق الأعمال الزراعية وقتًا طويلًا يكاد يغطّي الموسم كله، هذا لا يسمح لمن يقوم بالعمل الزراعي أن يتغيب عن عمله لوقت طويل، لذلك نجد أن الذي يعمل بالزراعة يكون عنيدًا في الدفاع عن وجوده.

تسيطر على المدن الصغيرة بشكل واسع، عقلية المجتمع الزراعي الذي يساعد بعضه بعضًا، فتصبح المدينة اكثر ثراءًا من القرية، في بعض الأحيان تحيط نفسها بسور، وذلك من أجل تأكيد توجهها الدفاعي. نظرة البدو العامة للحرب معكوسة تمامًا. إن ممتلكاتهم لا تتضمن أي شيء غير منقول، المنازل، الأرض، الجمال، الخراف، الماعز. ليس من الضرورة عنده أن يموت دون ذلك في مقاتلة الأعداء. إنه يستطيع أن يصون ممتلكاته تمامًا بالتنقل المستمر. هذه العوامل تتأكد بشكل عميق اذا نظرنا الى

الحرب، يقاتل القروي بشكل شرس من أجل حماية بيته وأرضه، ولكن عندما ينهزم في الحرب فإنه يتحمل الظلم والذل الذي يفرضه المنتصر، إذا ما وافق أن يظل في أرضه. إنه سوف يضطر الى أن ينحني للاضطهاد، ودفع الضرائب ويبقى معزولًا او حتى يصبر على انتهاك عِرضه.

البدويّ، من جانب آخر، إذا وجد نفسه محاصرًا بعدد كبير من الناس فإنه قد لا يقاتل أبدًا، إن قطيعه المحدود يجعل من المقاومة أمرًا مستحيلًا، إنه سيتفاوض مع أعدائه بلسانه فقط، وسيعمد الى حزم متاعه القليل ويهجر المنطقة الى مكان بعيد، وبأسرع ما يستطيع، حيث يكون حر نفسه مرة أخرى. وبالرغم من أنه ضعيف وغير ثابت في الدفاع، فإنه يمتلك عقلًا مستقلًا أكثر كثيرًا من القروي او اكثر حيلة منه، وإنه أكثر غطرسة وتعجرفًا وسريع الغضب، إذا شعر بالإهانة.

هذه العوامل تفسر عدم ترحيب ابن سعود للقبول بالحدود الجغرافية مع العراق التي جعلت المنطقة الصحراوية داخل الأراضي العراقية. مثل هذه الاتفاقية للحدود تحد من اوتوقراطيته على قبائله، طالما أن الصحراء خارج سيطرته.

البدو الغاضبون سينفرون الى الأراضي العراقية. مثل هذه الاتفاقية ستجعل البدو يصبحون بعيدًا عن متناول يده.

نحن بهذا نلقي نظرة على حياة البداوة، وحياة المجتمعات التي تقطن المناطق المعمورة. إن الفرق بين حياة البداوة وحياة القرويين كبير. سكان المناطق المزروعة مرتبطون بحقولهم وبعملياتهم الزراعية الكثيرة. البدو لديهم عمل قليل جدًا، في معظم الوقت يمتطون جيادهم او جمالهم، ويذهبون في رحلات طويلة. ليس لديهم عمل يشغلهم او يستنزف طاقتهم. البدوي صلب في طبيعته ودائم التنقل.

نتيجة لذلك أصبحت المغامرات القتالية جزءًا من كبرياء البدوي وهي مجده

وسلواه. توسعت المغامرات الى غزوات وهجمات. حياة مجتمعات البداوة لا تعتمد على النجاح نفسه الذي يعتمد عليه الكثير من حياة المجتمعات القروية في عملية الدفاع. في المجتمعات البدوية، البدوي يبحث في الحرب عن مجده الشخصي اكثر من بحثه عن نجاة قومه. إن ذلك يشبه الى حدٍ كبير حياة الفرسان في اوروبا في العصور الوسطى. الجانب المثير في حياة البدو، بشكل عام، هو الغَيْرة والتباهي في الحرب. جانب كبير من الغزو الذي يقوم به البدوي ليس هو لخدمة قضية معينة ولكن لتحقسق منزلة متميزة بين عشيرته، غالبًا ما يندفع الرجل بسبب الغَيْرة من شخص آخر في عشيرته قد أثار إعجاب الآخرين بفعلٍ لم يستطع تحقيقه هو نفسه. هذه الغيرة التي يشعر بها الواحد من الآخر، هي شيء بغيض عند الأوروبيين، ولكنها كانت موجودة عندهم في عصر الإقطاع.

قبل ١٩١٤ كان السلاح الرئيس عند البدو في الصحراء العربية هو الرمح. عندما يندلع القتال بين عشيرتين، يقف الجانبان بصفين متقابلين ثم يخرج الأبطال من كل صف ليقفا في الفراغ الذي بين الصفين، ثم يصيحون ببعض الأسماء المحببة لديهم. يقوم المتحديان بالإغارة؛ كل منهما على الآخر، ويحاول كل منهما طعن الآخر بالرمح. يقف الجيشان يشاهدان الموقف. هذه العادة كانت موجودة منذ أكثر من الفي عام حيث عمل بها داود وجولياث.

ظهر النبي محمد لينتشر دينه في الجزيرة العربية من ٦١٣ – ٦٣٢ ميلادية حيث مات. في السنة الثانية اندفع العرب خارج صحرائهم في شبه الجزيرة العربية، ثم زحفوا عبر مصر وشمال افريقيا. في عام ٧١٢ احتلو اسبانيا، ثم استمر زحفهم ليستولوا على معظم شبه الجزيرة حتى عام ١٤٩٢ وقد وصلت فترة حكمهم الى سبعمائة وثمانين عامًا. وفي أثناء هذه الفترة حكموا ايضًا جزءًا من جنوبي فرنسا.

خلال الفترة التي حكم فيها العرب اسبانيا كانت الثقافة العربية أفضل من الثقافة الفرنسية والانجليزية بشكل بارز. ولا يمكن إنكار أن الفرنسيين ومن ثمّ الانجليز قلدوا الثقافة العربية، مثل افريقيا عندما تقلد الثقافة الأوروبية في القرن العشرين.

كان في مقدمة الجيش العربي الذي انتصر في اسبانيا مقاتلون من القبائل البدوية الذين نقلوا معهم الى اوروبا الغربية عادات الفروسية الى حرب الصحراء. لذلك عندما وصل ريتشارد الأول الى فلسطين في الحملة الصليبية الثالثة، وجد أمامه فرسانًا مسلمين يحملون نفس التقاليد كما تعلمها عندما كان صبيًا.

عند الكلام عن البدو، هنا بالطبع اتكلم على البدو من اصحاب الجِمال في الصحراء العربية حيث عشتُ معهم.

قليل من الناس في الأمم الأوروبية أدركوا هذه الايام الدور المهم الذي قام به البدو في تأريخ العالم. يتشارك البدو دائمًا نوعًا من القساوة المفرطة والتنقل والنقص في الأعمال المتعبة لأمتصاص طاقاتهم. انهم يمضون الى القتال مصطحبين نساءهم وأطفالهم وكذلك قطعان ماشيتهم. أما رجال المدينة والقرية، بالمقارنة، فإنهم مجبرون على ترك عوائلهم وممتلكاتهم وراءهم عندما يذهبون الى الحرب. قام المغول بتدمير حضارة العرب الرائعة وكذلك الحضارة الفارسية. لقد اجتاحوا القرى بسهولة، وقد ساقوا الشباب كالقطيع كرقيق، بعد ذلك قاموا بمجزرة لبقية المواطنين، من دون اعتبار للعمر والجنس.

عندما حاصروا المدينة المسوّرة، وضعوا السجناء الذين جمعوهم أمام السور وطلبوا منهم أن يخرقوا ذلك السور، وبهذا قللوا عدد الضحايا في الجيش المغولي الى أقل ما يمكن. وعندما احتلوا المدينة ودمروها تمامًا، ولم يتركوا أي علامة لأي شيء حي.

يشترك البدو العرب وسكان الصحراء مع البدو في الشمال، في نوعية الحرب

التي تعلموها من قساوة الحياة ومن التنقل. لكنهم طوّروا النوعية التي كما يبدو خاصة بهم وحدهم وهي جعل الحرب فيما بينهم كرياضة تدعى رياضة الحرب.

لم تكن الحرب، بالنسبة للبدو، أمرًا من أمور اليأس من الحياة وانحيازًا للموت، بل هي نوع من الرومانسية المثيرة لكسر رتابة الحياة. لا ينظر البدو الى الغزو نظرة خارجية كما نفعل نحن. حتى عام ١٩٢٥ كان الغزو هو طريقة طبيعية للحياة، ويبدو لهم أمرًا قدريًا لا يمكن تجنبه. ربما يحتار البعض من التناقض بين غارات المذابح التي يقوم بها الأخوان والغارات الرياضية للبدو الآخرين. أنواع الرياضة بلا شك عمرها عدة آلاف من السنين، ولكن خلال تلك الفترة اجتاحت الجزيرة العربية فترات متتالية من موجات التطرف الديني. والحروب التي دارت لقهر الآخرين في القرن السابع ربما توصف كواحدة من تلك الموجات، بالرغم من أنها أقل دموية من الحروب التي نشبت بعد ذلك.

برزت في القرن العاشر حركة متعصبة دينيًا، وسط الجزيرة العربية وهي حركة القرامطة، إنهم لم يكتسحوا الصحراء فقط بل وصلوا الى أبواب القاهرة ودمشق وبغداد.

الحركة الوهابية عملت الشيء نفسه في المذابح التي نفذها من سبقوهم من القرامطة.

شجّع ابن سعود في عام ١٩١٢ الحركة الأصولية المتطرفة المتمثلة بالوهابيين عندما دعم الأخوان. بالنسبة لهذه الحركة المتطرفة فإن كل الجنس الإنساني، عدا طائفتهم، هم أعداء للرب ويستحقون أقسى العقاب.

فرسانٌ عرب

في هذا الفصل جمعتُ بعض الملاحظات التي كنت قد دونتها عن حياة البدو في أثناء إقامتي مع عشيرة ظافر لمدة ثلاثة أشهر شتاء ١٩٢٥ - ١٩٢٦.

واحد من الفروق في حياة العشائر البدوية العربية مقارنة مع القرويين هو معاملتهم للنساء. العمل في الحقل هو عمل متعب لأنه عمل بدني، ليس من المعقول أن نتوقع من الرجل أن يشجع زوجته على أن تجلس في البيت، في حين أنه يمضي أكثر من اثنتي عشرة ساعة وهو يحرث او يحصد. لذلك نجد في المجتمعات الزراعية أن المرأة تشارك الرجل في أعمال الحقل. وفي هذا الصدد نجد أن البدوي هو، على الضدّ مما هو موجود في المجتمع الزراعي. بالمقارنة مع المجتمع الفلاحي، فإن البدوي، وربما من الطبيعي، عندما يقوم بالبحث عن الشهرة فإنه يقوم يستعرض قوته ليكون معروفًا بتلك القوة بين النساء. ان استثناء النساء من العمل الشاق يجعلهن مهتمات بجمالهن وزينتهن ليصبحن اكثر جاذبية من النساء ذوات الأيدي الخشنة من القرويات.

بالنسبة للقروي فإن المرأة هي للعمل والإنجاب، أما بالنسبة للبدوي فإن المرأة هي وسيط لمجد الرجل، وهو موضوع الأغاني والإطراء: من الواضح أن المرأة البدوية تلقى معاملة أفضل من تلك المعاملة التي تلقاها المرأة الريفية. إن ذلك يعود، بشكل أساس، الى حقيقة أن المرأة بلا شك تختلف عن الرجل: الرجل كان محاربًا يشارك في القتال. المرأة تمتلك الجمال وهي الأم: الجنسان - المرأة والرجل - مخلوقان مختلفان تمامًا، وليس هناك من هو متفوق على الآخر. هذا التمايز الأساس يتأكد

بالتقسيم بين الواجبات بين الجنسين.

جلب الماء محمولاً بالأواني هو واجب المرأة، وكذلك جلب الحطب لإشعال النار. الرجال يقومون بسحب الماء من البئر، وهي مهمة صعبة، وفوق ذلك يقومون بحراسة الخيول والجِمال.

المرأة في كل مكان هي ملهمة الرجل في إظهار شجاعته وبسالته وبطولته في الصراع مع الآخرين. الرجل ينادي بأسمها سواء كانت اخته ام حبيبته، أحيانًا عند نشوب المعارك تصعد النساء على الهودج وتشجّع الرجال على القتال وهن ينثرن شعورهن على اكتافهن وينشدن القصائد التي تتغنى ببطولات العشيرة، وقد ينادين على بعض المقاتلين بأسمائهن. ومن الجدير بالذكر أن لا أحد يتعرض للنساء في المعركة. وهناك بعض القصص عن تعامل البدو مع النساء.

سلطان بن صويت وهو من مشاهير شيوخ عشيرة ظافر قبل ثلاثة او اربعة أجيال مضت، كان في مكانٍ ما عند الحدود مع الحجاز. كانت هناك فتاة على بعد مائة ميل من مضارب ظافر، سُرقت ناقتها من قبل مجموعة من الغزاة. كان اسم سلطان بن صويت قد ذاع صيته بين العرب. الفتاة انتخت قائلة (أوه يا سلطان اين انت يا من تذود عن المرأة) ردد الرواة القصة، فعبرت الصحراء حتى وصلت الى مضارب ظافر. أقسم سلطان أن لا امرأة تنتخيه للثأر عبر أربعمائة ميل من الصحراء وإن كان لا يعرفها إلا واستجاب لها.

هناك قبيلتان هما من اكثر القبائل العربية قوة (عتيبة) و(قحطان) وشيوخها (ابن حُميد وابن هادي) وهما منذ فترة طويلة في حالة حرب.

كان لأبن هادي بنت رائعة الجمال وهو يرفض تزويجها ويرد كل من يقصده لخطبتها. كان ابن حُميد من الغزاة المشهورين وهو يقوم بالغزوات ليستولي على الماشية ويهاجم

مضارب قحطان. كانت شجاعته وبسالته حديث العشيرة والعشائر المجاورة.

تجري في خيمة ابن هادي العديد من المناقشات الطويلة والمثيرة وهي تدور حول الهجوم على عشيرة ابن حُميد وعتيبة، أقسم شيخ عشيرة قحطان أن يذبح جِماله كنذر اذا انتصر على عدوه وجلب أسرى من عشيرة العدو. في أحد الأيام جاء خاطب آخر وقدم نفسه في خيمة ابن هادي وهو يطلب يد ابنته، جاء ابوها ليتشاور معها. ولكنها أجابت أنها لن تتزوج أبدًا، إلا اذا وجدت أحد زعماء البدو ويكون سيدًا في الحرب، ويكون عظيم الكرم والجود، ويتمتع بجمال كبير، ويكون اكثر العرب ذكاءًا وظُرفًا، وهنا عاد الخاطب خائبًا. سمع (صُلُبي) وهو من ينقل الروايات والأخبار والأشعار من عشيرة الى اخرى، المناقشة وقال (هناك شخص واحد، يا سادتي الصغار، تنطبق عليه هذه المواصفات التي تم ذكرها، وهو ابن حُميد) قالت الفتاة (آه لو أراه مرة، ولكنه عدوّي، وقد أقسمت عشيرة قحطان أن تذبح الجمال اذا ما قتلوه).

تناقل البعض هذه الحكاية، وفي أحد الأيام حُكيت هذه الحكاية في مضارب عتيبة، ثم انتقلت الى اذن ابن حُميد. في تلك الليلة تسلل من الخيمة من دون أن يلاحظه أحد، وركب، وحده، مسافراً عدة أيام عبر الصحراء حتى وصل مضارب ابن هادي، وفي الليل أمسك السيف بيده وانسل الى الخيام وتوجه زحفًا الى خيام ابن هادي، وكانت ابنته نائمة وحدها في ملحق الخيمة. أيقظها بهدوء وأخبرها من يكون، ظلا يتكلمان بهمس حتى بزغ الفجر. توسلت الفتاة اليه ليرحل وإلا تعرض للموت، ولكنه رفض، وسرعان ما انتشر نور الصباح وغمر المكان وصار الهرب مستحيلًا.

في مضارب البدو تُحَضَّر القهوة للشيخ في الصباح الباكر، ويتجمع الرجال في خيمة الشيخ لتناول القهوة ومناقشة شؤون العشيرة. في ذلك اليوم، لم يكن يعزلهم عن عدوهم اللدود سوى ستارة. وقفت الفتاة وألقت نظرة من فوق الستارة التي

تفصل قسم الضيوف عن القسم الذي تشغله العائلة وقالت لأبيها (يا أبي، أطلب منك طلبًا وأرجو أن تلبيه لي) أجاب الأب (طلبك مُجاب قبل أن تقوليه) كانت هي ابنته المفضّلة، التفتت الى حيث يتجمع شيوخ العشيرة وقالت (كونوا شهودًا على وعد أبي) أجابوها (نحن شهود). نظرت الى والدها مرة أخرى وطلبت منه أن يوفر حياة ابن حُميد. وقال لها الرجل الكبير أن لا تكون مجنونة لأن ابن حُميد أضرَّ بعشيرة قحطان ضررًا كبيرًا، وعلى كل حال فإنه بعيد مئات الأميال من مضارب العشيرة. وهنا أجابت الفتاة أنه هنا في الخيمة. انتصب ابن هادي واقفًا ولكن الفتاة استأنفت القول (يا شيوخ قحطان كنتم شهودًا على وعد أبي) أجاب الشيوخ بأن تلك هي الحقيقة.

وهنا طلبت الفتاة أن يتقدم ابن حُميد كضيف كريم وعلى العشيرة أن تفي بوعدها وتنحر الجمال كنذور احتفالاً بالعرس.

مثل هذه القصص لا نهاية لها لتعدد موضوعاتها الرومانسية، ولها دور كبير وأساسي في الزخم العاطفي للبدوي وتطلعه نحو المجد. يتناسى البدوي صعوبة الحياة التي لا يمكن تصديقها مثل التنقل الدائم والتضحية بما يجمعه في استعراض متكلف للضيافة المبالغ فيها، وذلك لرغبته أن يكون كريماً. لا حاجة لذكر أن البدوي يترك منزله مفتوحًا او باب الخيمة طوال الليل والنهار. في الواقع تُقَسَّم الخيمة الى قسمين، بوساطة ستارة؛ القسم الأول هو للضيوف، والقسم الآخر لأقامة العائلة. ربما يكون الضيف غريبًا تمامًا. يقدم الطعام للضيف مدة ثلاثة أيام قبل أن يحق لصاحب البيت أن يسأله من أين هو قادم، او ما هي حاجته. من المستحيل أن يموت البدوي من الجوع لأن شيخ العشيرة يراعي الجميع ويوزع الطعام واللحم والخبز والرز على الفقراء والأطفال ويرسل المعونة الى خيام العوائل الفقيرة، التي لديها أطفال وأرامل. يقوم البدوي حتى الفقراء والبسطاء منهم، بذبح آخر ما يملك من الماشية كي يهيىء



الطعام للضيف الذي ربما يكون غريبًا عنه تمامًا، او ربما يكون غنيًا.

في المنطقة الشمالية للحدود مع الحجاز كان هناك بدوٌ فقراء جدًا يعيشون في الكهوف المحفورة في الشِعاب، تحت الشجيرات المتناثرة في الصحراء. ولكن هؤلاء الناس عندما يشاهدون مسافرين يمرون بالقرب منهم، فإنهم يجبروهم بالقوة لينزلوا ضيوفًا عليهم وربما يقومون بذبح آخر شاة لديهم ليعملوا من لحمها طعامًا لهم.

عند خيام الشيوخ من المعتاد أن يقوم أحد العبيد، وقت الغذاء، بالمناداة خارج الخيمة (ليأتي كل من يريد أن يأكل، ومن لا يأتي فلا يلومن إلا نفسه).

صار (ابن مُحايد) كبير شيوخ عنِزة مشهورًا، وذلك لأنه في أحد فصول الشتاء حيث القحط والمجاعة، يقوم أحد عبيده بالمناداة كل ليلة قبالة باب الخيمة على كل جائع أن يأتي ليأكل. وظلت تتردد في شمال الجزيرة العربية ابن مُحايد يدعو الى الطعام. يا الله إنه يرسل عبيده الى الطريق ليجبر الناس على الدخول وتناول الطعام، وليس في ذلك أية مبالغة.

في شهر رمضان، حين تكون جميع العشائر في حالة صيام، يقوم البدو بذبح اثنتين او ثلاثة من الخراف لعمل الإفطار للضيوف، بالرغم من أن معظم ذلك الطعام سيذهب هدرًا. لا شيء يمكن أن يحد من ضيافتهم الرائعة للآخرين من الناس. البطل شبه الأسطوري عنترة بن شداد قال بمناسبة زواجه اذبحوا مئات النوق وارموها بين التلال كي تأكلها الذئاب وتشاركنا الاحتفال.

انا شخصيًا عرفت رجلًا من عشيرة ظافر اسمه (معشّي الذيب). عندما يأتي الذئب خلف خيمته في الليل يقوم بربطه فإذا ما مر ضيف في أثناء المساء فلا يدعه يمر من دون عشاء.

يتمتع البدوي بثلاث صفات رئيسة هي تمجيد الحرب والنظرة الرومانسية الى

المرأة والإسراف في الكرم. إضافة الى ذلك تحتّم ثقافته عليه أن يقوم بالدفاع عن الضيف، او أي شخص يستنجد به ويطلب حمايته.

غالبًا ما يقوم البدوي بالمخاطرة بحياته من أجل أن يحمي الآخرين حتى وإن كانوا غرباء. لاسيما إذا كان ذلك المستجير يعاني عاهةً او عوقًا او مرضًا، وكذلك يقوم بحماية النساء الأرامل والأيتام إذا ما انتخوه للمساعدة. إن ذلك يشبه، الى حد ما، صفات الفرسان في العصور الوسطى في اوروبا. وهي ايضًا تشبه أفكار العرب في اسبانيا. من عادات البدو الأخرى هي حماية أي شخص يلجأ اليهم. حدث في عام ١٩٢٤ أني كت مارًا في الصحراء السورية، وانا راكب جملًا، ذاهبًا من العراق الى شرقيّ الأردن. وكان في عشيرة بني صخر صبيٌ جاء من منطقة تبعد ستمائة ميل من الخليج وقد حكى لي القصة الآتية:

كان قد انضم الى الأخوان في احدى غزواتهم الكبيرة في الجزيرة العربية، وقد هاجموا عشيرة بني صخر قبل سنة، وقتلوا العديد من رجال العشيرة وغنموا الكثير من الإبل. كان الشاب قد جاء من عشيرة مطير وهم أتباع فيصل الدويش، وجرح في المعركة وسقط مغشيًا عليه من فوق جمله، ولم يستفق من غيبوبته إلا على برودة الجو في الصباح الباكر في اليوم التالي. قام بني صخر بتمزيق ملابسه وتركوه عاريًا ليموت على الأرض قبالة الخيمة. ولكنه بعد فترة من الزمن زحف قليلًا ليقف على قدميه وهو يترنح، مشى قليلًا نحو الخيام. شاهده أحد الرجال وهو جالس في خيمته القريبة، سحب مسدسه واسراع راكضًا ليقتله، وهو يصرخ بالثأر لأخيه الذي قُتل البارحة في المعركة. ولكن من فرط هياجه وثورته طاشت الطلقات التي اطلقها من مسدسه. قفز الفتى الجريح وهو يترنح وألقى بنفسه في الخيمة، رمى صاحب الخيمة مسدسه جانبًا على الفور وفرش البساط وأسرع بعمل القهوة للضيف الجريح. في

لحظة دخوله الخيمة أصبح بأمان وقد بقي مع عشيرة بني صخر عدة سنوات. هنا نرى دلالتين متراكبتين. الأخوان المتطرفون دينيًا قد قاموا بذبح الكثير من بني صخر بما فيهم أخو صاحب الخيمة الذي حماه لأنه دخل خيمته، فطغت ثقافته على حبه للإنتقام من قاتلي أخيه.

من العادات المتميزة عند العشائر البدوية هي تأسيس علاقات من الصداقات الأبدية، التي تأتي نتيجة لنوع من حوادث الحياة.

في وقت مبكر من القرن الماضي، اندلع صراع على الزعامة في نجد في عشيرة شمّر، بين زعيمين متنافسين (ابي علي) و(ابي رشيد) وقد فازت عائلة (علي)، أما عبد الله ابن رشيد وأخوه فقد أُجلوا عن العشيرة وحطوا بما يعرف الآن بالأردن، وهم لا يملكون إلا جملًا واحدًا ونصبوا خيمتهم عند شيخ عشيرة بني صخر الخورايشة، لم يكن الشيخ موجودًا، ولكن العائلة والخدم استقبلوا الضيوف وضيّفوهم. ولسوء الحظ فقد مات جملهم الوحيد في الليل من التعب الذي انهكه عند المسير الطويل من وسط الجزيرة الغربية. صار عليهم لزامًا أن يستأنفوا رحلتهم سيرًا على الأقدام. وبعد مسيرهم لمسافة قصيرة قابلوا أحد رجال البدو وهو راكب، متوجهًا نحو المخيم، أوقفهم وسألهم عن أخبارهم. أخبروه بأنهم مسافرون وكانوا قد حطو عند مخيم الخورايشة وقضوا ليلتهم هناك، وقد مات جملهم الوحيد. فسألهم البدوي الراكب إن كان مضيّفهم جهّزهم بجمل آخر، أجابوه بأن مضيفهم غائب. ترجل الرجل الراكب واناخ جمله ثم طلب منهم أن يركبوا الجمل واخبرهم بأنه هو نفسه زعيم العشيرة وأقسم أن لا يأتيه ضيف راكبًا ويغادر ماشيًا على الأقدام.

بعد عدة سنوات عاد عبد الله ابن رشيد الى شمّر، وطرد غريمه ابن علي، وأصبح أميرًا على شمال نجد، وأعلن نفسه أميرًا على منطقة حايل. وقد حكم المنطقة اكثر من

خمسين عامًا، حتى طرده ابن سعود عام ١٩٢٠ وعاملتهم عائلة خورايشة كأصدقاء وحلفاء؛ يرسلون لهم الهدايا والخلع بذكرى الجمل الذي قدمه الشيخ خورايشة رئيس العشيرة الى عبد الله ابن رشيد عندما كان بحاجة الى العون. كانت قد وقعت واقعة مهمة قبل ذلك بعدة سنوات بين عشيرتي عنِزة وحويطات. فقد قاد شيخ عشيرة الحويطات (عوده ابو تايه)، وهو حليف لورنس، غزوة ضد عشيرة عنِزة، وعندما هجم الحويطات على عدوهم طلب أحد أفراد عنِزة الرحمة من عودة، قبل أن يستسلِم وأن يضمن له السلامة عندما يتقدم نحوه للإستسلام، قبِل عودة استسلامه، ولكن الرجل طلب علامة من عودة ليرى الآخرون من الغزاة دليلًا على أن رئيسهم قد ضمن له السلامة. نزع عودة كوفيته من على رأسه ورمى بها الى الرجل وأصبح حاسر الرأس في المعركة.

بعد عدّة سنوات تسلّم عودة رسالة من رجل من عنِزة كان يرعى قطيع الماعز. فقد بقيت كوفية عودة بعد المعركة، ولم يرغب الرجل العنِزي أن يستولي على ممتلكات الرجل الذي قدم له الحماية. باع الكوفية واشترى معزى. بعد عدة سنوات من التوالد صارت المعزى قطيعًا عندما جاء مسافر الصحراء بالرسالة الى عودة. لقد نسي عودة بمرور الزمن حادثة الكوفية، حتى إنه نسي اسم الرجل وأن العشيرتين بقيتا في حالة حرب، ولكن العنزي لم ينسَ العمل الطيب.

أخبرني الملك عبد الله ملك الأردن مرة قصة مسلية. كان أبوه المرحوم الملك حسين ملك الحجاز قبل ١٩١٤، كان شريف مكة، وبالرغم من أن الأتراك كانوا يعدّون حكّام الحجاز، فإن السيطرة الفعلية على العشائر ظلت، بشكل عام، بيد الشريف. في أحد الأيام كان الشريف حسين وابنه عبد الله مسافرين في الصحراء مع قافلة تحمل خيمهم وتجهيزاتهم. أصرَّ الشريف على أن يسبق الجماعة ليختار مكانًا يقف عنده مع

ابنه عبد الله في منتصف النهار قرب بعض الأشجار عند بئر، عندما نزلا من دابتيهما لانتظار الآخرين، كانت هناك بضعة جِمال ترعى في الجوار، وكان هناك صبيٌّ صغير مع اخته وهي اصغر منه. وبالتلقائية المعهودة عند الصبيان من البدو تقدما وسألا عن أخبار المسافرين، ومن الواضح أن الصبي والصبية لم يعرفاهما. سأل الشريف عن عشيرتهما فأجابا بأنهما من عشيرة (البيجوم). ثم سأل الشريف حسين الصبي ألا تخشى عندما ترعى قرب حدود عشيرة (عتيبة) فإنهم ربما يأخذون جمالكم كغنائم؟ أجاب الصبي وهو مستلقٍ على ظهره ويهز قدميه في الهواء (يالك من شيخ معتوه، أنت لا تفهم شيئًا) أجاب حسين (لا أفهم ماذا؟) رد الصبي الصغير وهو يضحك بفضاضة وقلة ذوق (ألا تعلم بما أن الشيخ حسين يفرض سيطرته فإننا لا نخشى شيئًا من الغزاة) هنا وصلت القافلة وتملك الخوف الصبي الصغير بعد أن ادرك أنه كان يتحدث مع الشريف نفسه. غير أن الشريف كان مسرورًا بهذا الحوار الذي أدلى به الصبي ببراءة. وتقديرًا لذلك فإن الشريف حرص كل سنة حتى خروجه الى المنفى أن يستدعيه واخته (وهما الآن قد أصبحا شابين) الى مكة ويمنحهما الهدايا ويحمّلهما الخلع والطعام والملابس وبعض النقود.

الثنائية

كان النظام السائد في الحكومة العراقية في ١٩٢١ يعتمد الثنائية في التعيين لبعض المناصب الإدارية. إبان الحكم التركي كان العدد الأعظم من كبار الموظفين المعينين في الإدارات الرئيسة من الأتراك، ولكنهم اختفوا في هذه المرحلة. إضافة الى ذلك فإن الحكومة العثمانية نفسها قد نخرها الفساد، وأصبحت متخلفة وغير فاعلة.

راعت الحكومة البريطانية ذلك وقامت بتأسيس إدارة حديثة مدعومة بما هو ضروري من المساعدة ببعض الرسميين البريطانيين، يعملون جنبًا الى جنب مع نظرائهم العراقيين. حتى إن الوزارات كانت تضم مستشارين بريطانيين مع احتفاظ الوزير العراقي بالسلطة التنفيذية.

وقد أُتبع نفس النظام مع الشرطة، ودائرة البريد، والأشغال العامة والأقسام الأخرى. ومن أجل الإدارة العامة تم تقسيم البلد الى ألوية، كل لواء يكون تحت رئيس للوحدة الإدارية يسمى (المتصرف) وهو يمتلك السلطة المدنية على كل التشكيلات في منطقته. مع كل متصرف هناك مرافق رسمي بريطاني يدعى بالمراقب الإداري، ولكنه لا يمتلك سلطة تنفيذية. هذا النظام الذي كان يشمل كبار الإداريين كان يعرف بالنظام الثنائي.

لا يمكن تجنب الرأي القائل بان الإدارة البريطانية قد قدمت المساعدة والاستشارة، وكانت ذات منفعة عظيمة للعراق، وقد مكنه من القيام بالبناء والتقدم في الخدمات في كل قسم من الأقسام مدّة خمس او ست سنوات. ولكن القدرة غالبًا ما تصطدم مع السياسة.

اعتُمد نظام المستشارين الذين يقدمون المقترحات والنصح للرسميين العراقيين بشكل غير معلن تمامًا. إذا لم يقدم المستشارون البريطانيون نصحهم واستشارتهم فإن الأمور ستأخذ وقتًا طويلًا بالنسبة للطاقم الإداري. الفرنسيون الذين استولوا على سوريا يعملون الآن بالضد من الوعود البريطانية، وهذا يثير الشكوك والريبة، فقد أدعوا أن البريطانيين يزمعون تأسيس نظام حكم استعماري في العراق، وهذا زعم غير مبرر تمامًا. يجب أن نتذكر أن خطة (ودرو ويلسن) حول الإنتداب كانت أساسًا مثالية، وكانت الفكرة تمثل واجبًا إيجابيًا في أن تقوم الأمم المتقدمة بمساعدة البلدان الجديدة بشكل من أشكال الإدارة الجيدة، وهذا ما ظهر بشكل مثالي عند بريطانيا،

وبالرغم من ذلك فإن الوطنيين العراقيين لم يدركوا هذه الحقيقة.

حتى الآن بعض التعقيدات لم تحل في البلد، وبقيت خارج نطاق السيطرة، إذ أن العراق لم يمتلك بعد من القوات ما يفرض بها النظام. لذلك فإن الاستعانة بالقوات البريطانية كان أمرًا لا مفر منه لفرض الامن والنظام العام. وبهذا أصبحت مشاركة البريطانيين في الحكومة ضروريًا لإدارة العمليات.

في عام ١٩٢٦ تسلمتُ رسالة من وزارة الحرب البريطانية في لندن تعلمني فيها بأني تغيبت بما فيه الكفاية عن الجيش النظامي، وسيعملون على استدعائي في أقرب وقت. لقد كرّستُ جهودي تمامًا للعراق وقد أحببتُ الناس فيه، ولم استطع حتى أن أفكر بإمكانية مغادرة هذا البلد، والعودة الى ساحات الثكنات في انجلترا. وبناءًا على ذلك قدمتُ استقالتي من الجيش البريطاني. في هذه الأثناء كان مستشار وزارة الداخلية السيد كينهان كورنواليس (السير كورنواليس) فيما بعد، كان قد سمع بالمأزق الذي أنا فيه فعرض عليّ اتفاقًا لمدة عشر سنوات مع الحكومة العراقية لتعييني مراقبًا إداريًا.

لقد سررتُ لهذه الفرصة وبقائي في العراق، وتم توقيع الاتفاق في تشرين الثاني ١٩٢٦. من وجهة نظر خبراء الوظائف فقد كان قرار موافقتي قرارًا طائشًا. كانت المعاهدة العراقية البريطانية ستنتهي بعد أربع سنوات فقط من تصديق معاهدة السلام بين الحلفاء وتركيا (التي وضعت في ٦آب ١٩٢٤) هذا يعني أنها ستنتهي في ٦ آب ١٩٢٨ وبذلك سيكون الانتداب على العراق قد انتهى، وسيكون البلد قد استقل تمامًا، وسيكون هناك شك كبير إن كان المستشارون الإداريون البريطانيون سيبقون في العراق، وان الاتفاق الذي وقعته للعمل مدة عشر سنوات ربما سينتهي بعد سنتين. لقد كان قراري عاطفيًا اكثر منه حكيمًا. لقد أحببتُ العراق ولم أفكر في مغادرته.

أصبحت ضابطًا عسكريًا منذ غادرت المدرسة العسكرية في عام ١٩١٤ والآن

وجدت نفسي مدنياً، وأنا أوقع اتفاقًا لا قيمة له تقريبًا لأنه ربما قد يُلغى بعد سنتين. أُرسلت كمراقب إداري الى لواء الديوانية في الفرات الأوسط. كان المتصرف إداريًا متمرسًا، كان قد خدم تحت حكم النظام العثماني وقد تعاونا معًا بكل إخلاص وسعادة.

المهمة المطلوب انجازها هي إدارة صحيحة ومعقولة، وهي كما يبدو، وفي الأغلب، صعبة التحقيق. اللواء كله بل المنطقة كلها زراعية تمامًا، وهناك العديد من المشاكل معقدة الحل، لاسيما ما يتعلق بالأرض.

في وقت سابق، وقبل ثلاثة او اربعة آلاف سنة كان يُعتقد أن الأرض هي مُلك لجماعة الآلهة. في القرون الماضية تطورت هذه الفكرة تدريجًا، حتى أصبحت الأرض، مثلها مثل المطر ونور الشمس، الى إله واحد حقيقي لا يمكن احتكاره من قبل الأشخاص. وفي زمن العثمانيين كانت فكرة ذلك الرب هو مالك الأرض، وتحولت فكرة مالك الأرض الى أن تكون الدولة. بعد ذلك صدرت الموافقات لعمل المنازل والبساتين. وصار باني المنازل او الذي يزرع البساتين هو صاحب الحق في التملك، ولكن الأراضي التي تُزرع بالحنطة والرز تبقى ملكيتها للحكومة. هذه النظريات ربما تكون مقبولة من حيث المبدأ. الأراضي الزراعية من الناحية الفعلية مسيطر عليها من قبل الجماعات والأفراد. أولئك الأشخاص قد حفروا قنوات الري وجلبوا المياه وبذروا وحصدوا. كل رجل في الواقع قد ملك قطعة أرضه لتكون هي سبب حياته، وتبعًا للعادات والتقاليد فإن الرجل يقوم بتقسيم أرضه بين ورثته، وبذلك تصبح قطع الأراضي صغيرة جدًا.

يقوم البعض ببيع قطع أراضي للآخرين بمبالغ نقدية وبشهادة آخرين من المجموعة دون أن يسجل البيع على ورق لأن أراضي الريف لم تجرِ عليها عملية مسح وترقيم. لم يكن دائمًا مالكي الأرض من العشائر جميعهم سهلي التعامل، إن جميع رجال

العشائر مسلحون وهم دائمًا خارج السيطرة، إنهم يتقاتلون ويستولون على الأرض بالقوة وقد يفقدونها مرة أخرى. وبما أن لا أحد لديه سندًا قانونيًا فمن الصعب أن يقرر أحد لمن تكون ملكية الأرض في ذلك الوقت، ومثل عشيرة (فتلة) خير ما يوضح ذلك.

يجري الفرات من مدينة (عنة) الى الرمادي في مجرى واحد بين تلال الصحراء الصخرية وينحدر الى جسر الهندية في جداول ويجري جنوبًا ويمر في مدينة الشامية الصغيرة. يقطن الأراضي أسفل المدينة حيث ينحدر النهر عشيرة (فتلة) وهم يزرعون الرز وبساتين النخيل. في عام ١٨٧٠ كان شيخ العشيرة هو الشيخ فرعون. كان فرعون شيخًا عظيمًا؛ فقد عمد الى توزيع الأراضي التي تُسقى من الفرات الى رجال عشيرته بكل كرم. لم تكن سلطة الحكومة قد شملت المنطقة بعد. ولم يخطر ببال فرعون أن أحدًا من رجال عشيرته، ممن وزع عليهم الأرض، سيقوم يومًا من الأيام بالإدعاء أمام القانون يتساوى مع أولاده وأحفاده.

مات فرعون عام ١٩٠٣ وخلفه أبناؤه على المشيخة. كانت جميع الأراضي عبارة عن حقول من الرز، ولا توجد هناك أشجار.

لم تحاول الحكومة العثمانية أن تمد سيطرتها على الشاميّة حتى عام ١٩٠٩ في عام ١٩١١ قام الكثير من رجال العشيرة بزراعة نخيل التمر في بساتينهم الصغيرة.

في عام ١٩١٢ تمرد أولاد فرعون، وجاءت القوات العسكرية التركية الى المنطقة وأخمدت الثورة، ثم وضِع أولاد فرعون في السجن، وتمت مصادرة أراضيهم. صار هناك اتصال مباشر بين العشيرة والحكومة بصفة مواطنين أفراد، وقسّمت أرض الشيخ الى قطع صغيرة وزعت على الأفراد.

في عام ١٩١٥ عندما حطَّ البريطانيون في البصرة أعلنت الحكومة العثمانية الحرب

المقدسة، ونودي بين العشائر لمحاربة البريطانيين. كان على العثمانيين أن يكسبوا رؤساء العشائر، وبناء على ذلك أُطلق سراح أبناء الشيخ فرعون من السجن، وقامت الحكومة العثمانية بإعطائهم كامل الدعم. من الطبيعي أن يقوم أولئك الشيوخ أول ما يقومون هو إنزال العقاب والانتقام من رجال العشيرة الذين استولوا على أرضهم. ومن ذلك الوقت بدأ فصل مرير بين أبناء وأحفاد فرعون وأفراد عشيرتهم.

في أثناء الحرب دعم كل من العثمانيين ومن ثم البريطانيين سلطة الشيوخ باعتبارهم مساعدين لفرض النظام والقانون، وبذلك ساعدوهم على أن يقوموا بظلم واضطهاد رجال العشيرة.

للفترة من ١٩١١ حتى عام ١٩١٤ عندما كان الشيوخ في السجن، قام أبناء العشيرة بزراعة أشجار النخيل في أراضيهم.

عندما وصلتُ الى الديوانية عام ١٩٢٦ أصرَّ الشيوخ على مشاركة المزارعين، من أبناء العشيرة، في محصولهم الزراعي من التمور بالرغم من أنهم لم يساهموا في الزراعة فعلًا. لا أحد من طرفي النزاع يمتلك أي وثيقة رسمية لامتلاك الأرض، لذلك فإن هذا النزاع لا يمكن أن يحل في المحكمة والقانون.

الحل الوحيد هو التحقيق من قبل لجنة رسمية او لجنة حكماء للوصول الى حل توافقي يؤدي الى تسوية النزاع.

عندما كنتُ في الديوانية صيف ١٩٢٧ انتدبتني وزارة الداخلية شخصيًا لأحقق في كامل المشكلة ووضع التوصيات لتسوية نهائية بين الشيوخ من جهة، وأفراد العشيرة من جهة أخرى. وكضابط استخبارات وضعتُ خطة تكتيكية للذهاب والعيش بين الناس، حيث يمكنني أن أستقي معلومات منهم، وهي ايضًا طريقة تتماشى مع كرم وضيافة العرب.

أمضيتُ عدة أيام بطولها في صيف العراق اللاهب متنقلاً بين حقول الرز الطينية متحدثًا الى الشيوخ ورجال العشيرة والرسميين المحليين. لو تم استدعاء الشهود للادلاء بشهاداتهم في الدوائر الرسمية لالتزموا الحذر في كلامهم ولنظروا الى الشهادة بكونها معدّة من قبل، وسيشوبها كذب كثير. ولكن طريقة جمع المعلومات بصورة غير رسمية عن طريق المحادثات في بيوت الشهود ستكون اكثر جدوى في الوقوع على اساس المشاكل، وأفضل من جلب الشهود الى ساحات المحاكم. واخيرًا قدمتُ الى وزارة الداخلية بعض المقترحات التي ستقود الى التسوية، التي سياتي ذكرها لاحقاً. لسوء الحظ فقد نُقل المتصرف الذي كنتُ أعمل معه بعد شهرين من عملي في الديوانية. المتصرف الجديد الذي وصل الى الديوانية هو لطيف بيك، لقد كان سابقًا ضابطًا في الجيش التركي، وكان قد قاتل مع فيصل ولورنس، وعاد الى العراق عندما طرد الفرنسيون فيصلاً من دمشق. وفي تمرد ١٩٢٠ قام بعمل كمين لطابور من الجيش البريطاني وقتل العديد منهم. وبهذا فقد غدا من الأبطال في عيون الوطنيين.

قامت عشائر لواء الديوانية بالقتال إبان تمرد ١٩٢٠ ولا يزالون ينظرون الى المزيد من إثارة المشاكل. تم تعيين لطيف بيك متصرفًا للديوانية بدعم من الوطنيين من أجل أن يدعم قضاياهم. بعد وقت قصير من وصول لطيف بيك ذهبنا معًا الى الشامية.

سلمتُ تقريري حول قضية آل فتلة الى وزير الداخلية، ولكن لم أتسلّم ردًا من الوزارة. تحدثنا انا ولطيف بيك مع قائممقام الشامية في مكتبه. وعندما تركت الغرفة لعدة دقائق قام لطيف بيك وبسرعة متهورة، بأمر القائممقام بفرز ثلث من محصول التمور في البساتين التي زرعها رجال العشائر وإعطائها الى عبد الوهاب، وهو كبير أولاد وأحفاد الشيخ فرعون. وهو عضو في الحزب الوطني.

بعد عدة أيام ورد أمرٌ من وزير الداخلية بقبول مقترحاتي للتسوية في قضية نزاع آل فتلة ويأمر المتصرف بالتنفيذ، وبذلك فقد أصبح مجبرًا على إلغاء أمره الى القائممقام بالسماح لعبد الوهاب بتحصيل نسبة من محصول التمور من مزارع رجال العشيرة.

في أثناء الحكم العثماني كانت الضرائب تستقطع مباشرة على الانتاج الزراعي. في كل عام يصار الى تخمين قيمة الغِلال وقت القطاف وتُفرض عليه الضريبة. هذه الطريقة هي طريقة سيئة ولم تشجع المزارعين على زيادة انتاجهم الزراعي. وقد تُحتسب على بعض الشيوخ ضرائب عالية، يذهب الشيخ غاضبًا الى بغداد، وقد يشكو من ذلك، وبمناورات سياسية في العاصمة ينجحون في خفض تلك الضرائب.

عندما وصل لطيف بيك الى الديوانية، عاد الشيوخ ايضًا اليها وهم يحملون رسائل توصية للطيف بيك من حزب الوطنيين يحثونه فيها على مساعدتهم. بعد ذلك بوقت قصير، قام زعيم الشيوخ الاغنياء وهو حجي مهيدي مع مجموعة من أتباعه المسلحين بإعاقة عمل مهندس الري الحكومي عند قنوات ري عفك، حيث كان مقررًا أن يرفع منها الطين والغرين، وقد تم تخريب بعض الأجزاء من قبل حجي مهيدي وأتباعه، لم يكن حجي مهيدي لا ينظر بعيدًا فقط بل كان مغرورًا بدعم من بعض السياسيين له في بغداد، لقد كان يتباهى بقوته وبدحره للحكومة المحلية.

قُمتُ بِحَثِ لطيف بيك بأمر الشرطة بالتحقيق باستعمال قوة السلاح لتهديد الرسميين الحكوميين.. وقد كتبتُ عن ذلك في مذكراتي:

(تناقشتُ مع لطيف بيك هذا اليوم وأخبرته بأخطاء العاصمة بدعم أشخاص مثل حجي مهيدي لأسباب سياسية. وقد برر ذلك نتيجة لضعف سلطة الحكومة. وقد عبرتُ عن رأيي بذلك، وقلتُ إن لم يجد رادعًا له فإن منطقة عفك سوف تخرج عن السيطرة. وقد أكّد لي لطيف بيك بأنه لن يحابي أحدًا من أجل مصلحة سياسية،

ولكنه يريد تجنب الخصومة مع بعض الوزراء الذين هم من اصدقائه، وانهم ما فتئوا يكتبون له الرسائل يحثوه فيها على مساعدة أشخاص معينين، وقال أنه لم يكن يرغب في المجيء الى الديوانية ولكن لم يُجده الاعتذار نفعًا، وكل ما يرغب فيه الآن هو الرحيل عنها. لقد كان على حق جزئيًا لأن بعض السياسيين في المراتب العليا لا يهتمون بالعملية الإدارية، وإنهم يهتمون بمصالحهم ومصالح جماعتهم ويطلبون من لطيف بيك أن يلبي طلبهم).

كانت الشكاوي الكيدية منتشرة، وكان الكثير من العرائض تنظم حتى تصل الى المئات، وهي تحمل تواقيع من أشخاص وهميين، وإمضاءات ببصمة الإبهام، وكذلك العديد من البرقيات التي تصل الى الوزارة ومن ثم يتم نشرها بالجرائد. كان الحزب الوطني يُحَرِّض المدعين من عشائر الديوانية للحض على طرد موظفي الإدارة البريطانيين. وقد حضر إليّ شيوخ آخرون عرضوا عليَّ ترويج عرائض لصالحي، فأخبرتهم بأن ليس هناك من سبب للقيام بشيء من هذا القبيل.

في أحد الأيام انتشرت شائعة قوية، حتى انها وصلت الى بغداد بأن لطيف بيك قد نظم بعض العرائض ضدي. فقلت له هل كان ذلك صحيحًا؟ ولكنه أجاب (لقد سَمِعت هذه القصة ايضًا، إنها كذب محض).

كانت علاقتنا الشخصية رسمية دائمًا ومهذبة وتتصف بالودية على الرغم من أن الأجواء كانت تشيع فيها المؤامرات بين الآخرين ممن يحيطون بنا. وقد وجدتُ في مذكراتي ما يأتي: (كنت دائمًا اسمع ما يقوله لطيف بيك ضدي، وقد قلت له عدة مرات إن الناس تخبرني بأنك تجد صعوبة في العمل معي، إذا كنت كذلك فعلًا يُرجى أن تقوم بإخباري عما تجده من مشاكل. وقد كان يجيب بود مخلص (او هكذا كان يبدو لي) بأنه لم يقل شيئًا من هذا القبيل، وانه وانا ليس إلا صديقين ودودين منذ زمن).

لقد لاحظت عندما كنت امكث في المكتب خمسة او ستة ايام واتكلم معه كل يوم يصبح ودنا أقوى واكثر دفئًا، ولكني دائمًا كنت تواقًا الى أن اذهب الى الخارج لأقابل الناس في الضواحي، لأني، برغم كل شيء، أحمل لقب مفتشٍ إداري. كنت اقوم بزيارات تستغرق ثلاثة او اربعة أيام لأطّلع على كميات الرز في الحقول، او أقوم بدراسة نزاعات العشائر. وعندما أعود أجد لطيفًا قد أصبح بارد العلاقة رسميًا. من الواضح أن رسائل قد وردت من بغداد او بعض المغرضين أخبروه بقصص ضدي.

وقد كتبتُ في مذكراتي في مناسبة أخرى (لم أكن استطيع مساعدة أمثاله، بل كنت اشعر دائمًا أنه عرضة للضغوط. ليس له من فرصة هنا في الديوانية. السياسيون في بغداد مستمرون بالكتابة اليه بأن تقدم الإدارة هنا المساعدة لأتباعهم من السياسيين. فإذا فعل ذلك أقوم أنا بالاحتجاج عليه، وإذا لم يفعل تعرّض للّوم من قبل أصدقائه السياسيين في بغداد. وإذا صرّح علنًا باحتجاجه ورفضه للتدخلات فإنه سيشعر بأنه قد فقد نفوذه. ولكني لا أزال أكن له الود. إن لم تكن هناك سياسة سوف نكون سعداء معًا).

في ٢٤ تموز ١٩٢٧ تسلمتُ رسالة من مستشار وزارة الداخلية يخبرني فيها بأن الحكومة البريطانية قد اقترحت القيام بمباحثات حول معاهدة جديدة، وقد وجهوا الدعوة الى الملك فيصل لزيارة لندن. لأن المعاهدة العراقية البريطانية الحالية ستنتهي في غضون عام من الآن. ستكون المباحثات ذات نفع قليل لخفض أجواء الريبة السائدة. هناك شعور لدى الوطنيين بأن الاضطرابات في الفرات الأوسط لم تكن لصالح بريطانيا، وهذا ربما يولّد بعض الضغط سيشوب المفاوضات. من التعقيدات التي تثير الإرباك هي أن القوة الوحيدة المتوفرة في العراق لإخماد المتمردين هي القوة الجوية.

لذلك قام الوطنيون بدفع العشائر الى الانتفاضة. إن البريطانيين سيقومون بالعمل على إخمادها، وحينذاك سيدّعي الوطنيون بأن هذا برهان على أن البريطانيين هم من

يقوم باضطهاد الناس. من المتوقع أن المباحثات لن تواجه صعوبات كبيرة، فبعد سنة واحدة سيحصل العراق على استقلاله الكامل، ويصبح عضوًا في عصبة الأمم. ومن المحتمل أن ذلك سيحدث في كل الأحوال حتى في حالة عدم وجود الحزب الوطني، او حصول هيجان سياسي. هناك العديد من المعارضين في بريطانيا لبقاء الوجود البريطاني في العراق الذي يولّد بدوره الكثير من المآسي والعداوات، فهو بقاء غير ضروري.

هل بالإمكان الآن استنتاج أي دروس مأساوية من العلاقة العراقية البريطانية؟ كانت بريطانيا قد احتلت العراق خلال الحرب العالمية الأولى تحت ذريعة العمليات ضد تركيا من دون التفكير بتسوية نهائية. في أثناء سير العمليات تبين أن الطريق من مصر الى العراق يمتد الى منطقة الخليج ويمكن أن يكون طريقًا بديلًا الى الهند، ومن ثم الى استراليا عوضًا عن طريق قناة السويس. العراق الصديق يمكن أن يؤدي دورًا في مثل هذا الطريق. لم يكن في نية بريطانيا أن تستعمل القوة ضد العراق، لأنه كما يبدو، في استقراء الحقائق، بعد العمليات العسكرية، أنَّ أغلب القوات العسكرية البريطانية ستنسحب عند انتهاء العمليات القتالية. إن ذلك يقر حقيقة أن البلد سيبقى دون قوات تردع متمردي ١٩٢٠ علينا أن نقر ايضًا بحقيقة أن بريطانيا قد فشلت في مسؤوليتها بمساعدة العراق على تحقيق الاستقرار والتقدم. من جانب آخر فإن العراقيين قد تأثروا بوعود بريطانيا المرتبكة لشريف مكة وكذلك للفرنسيين والصهاينة ايضًا، إذ كانت هذه الوعود متضاربة.

ورث العرب النظرة السياسية المتشائمة والمفعمة بالشكوك من العثمانيين، وقد أثرت القوة العظيمة للامبراطورية البريطانية فيهم بشكل واضح. وقد اعتقدوا أن هذه القوة الهائلة لا يمكن أن ترتكب الأخطاء، ولكنها تُعطي وعودًا مضطربة تصل الى درجة الغدر.

لقد فشلوا في التقدير عندما رفضوا ازدراءً فكرة أن الديمقراطية والبيروقراطية غالبًا لا يعملان بكفاية. في نفس الوقت تتأثر السياسة البريطانية، في بعض الأحيان، بشدة

بالسياسة المثالية، ونتيجة للفروق في الخلفيات الفكرية والشعور المتبادل بين بريطانيا والوطنيين العراقيين، فلا يمكن احراز ثقة متبادلة فعليًا في النهاية.

هل على بريطانيا أن ترفض الانتداب على العراق؟! إذا تحقق ذلك فستقوم تركيا، في الأغلب، بضم الموصل وشمال العراق اليها، وفي وقت لاحق ربما يقوم ابن سعود بتمزيق الأمة الفتية، أو في الأقل، يرميها في فوضى عارمة.

الحقيقة حتى الآن هي أن العثمانيين قد غادروا العراق بشكل مضطرب ومشوش. إضافة الى ذلك، كان كبار الموظفين من الأتراك، ولم يظل أحد بعد مغادرتهم من كبار الإداريين والفنيين. وكان من الصعب تصور أن البريطانيين سيقدمون خدمة عظيمة وسريعة للعراق في تنظيم الخدمات الاعتيادية مثل الشرطة ودوائر البريد والأشغال العامة والري والمالية. مثل هذه الخدمات الإدارية كان يجب أن تتوفر لمدة معينة لحين تدريب العراقيين وإن سنوات الانتداب السبع ربما تكون كافية.

(بعد خمسين سنة كانت تلك المشاكل تبدو فظيعة، وتبعث على نفاد الصبر والشك، والعنف الذي هو مستتر في الطبيعة الإنسانية. في الحقيقة أنه منذ البدء لم يكن هناك من سبب للنزاع بين بريطانيا والوطنيين العراقيين. ولكن فجأة اندلع العنف، وقد تبقى آثاره عبر الأجيال، بل ربما عبر قرون.

خلّف تمرد ١٩٢٠ نتائج وخيمة من العنف والكراهية والعداء والرغبة في الانتقام، والتي استمرت خلال الحرب العالمية الثانية، بالرغم أنه في الواقع لم يكن هناك من داعٍ للنزاع. ولكن المأساة ظلت تُعاد في العالم. السياسيون في العديد من الدول يكتسبون الأساليب في تصعيد العنف ويحثون مواطنيهم على القتل والإرهاب والحرب الأهلية. ولم يَعِ العالم الدرس حتى الآن، فإن العنف لا يعمل إلا على جعل المشاكل أكثر سوءًا، وإن العنف لا يولد إلا العنف عبر الأجيال والقرون).

في عام ١٩٢٧ عندما كان لطيف بيك معي في الديوانية، ربما كانت أكثر الأيام تعاسة في حياتي. لقد كرّست عملي للعراقيين من الطبقات كافة – الموظفين الحكوميين والفلاحين والرعاة والبدو – وربما عدا السياسيين. وقد أدركتُ بشكل متزايد، كم هو هائل حجم تطوير العمل الإداري، وكيف يساهم كل شخص في عملية الإصلاح، وكم هي مشاعر التقدير لمن يُقدم الخدمات في هذا المجال. كنت مستعدًا لأن أرمي بنفسي في خضمّ العمل لأني متحمس بطبيعتي لذلك.

خبرتي إبان الحرب العالمية الأولى وضّحت لي كلًا من القيمة والمتعة للرفقة التي يغمرها الحب. وبعد ذلك وجدتُ نفسي أواجه الخذلان في كل منعطف من أولئك الراغبين في جعل الإدارة لخدمتهم، لجني الدعم السياسي دون الاعتبار لمصلحة البلد. والأسوأ من ذلك وجدت نفسي مخدوعًا من قبل أقرب زملائي، ليس بسبب أننا أعداء أو أنهم يختلفون معي في وجهات النظر، بل غالبًا، وللأسف، بسبب أنهم وجدوا أنفسهم مجبرين ومنهمكين في المؤامرات السياسية ومساعدة من أنعم عليهم بالمنصب. إنعدام الصراحة عند بعض زملائي جعل مني شخصًا يفتقد السعادة بشكل عميق.

كانت النتيجة، أنَّ عام ١٩٢٧ قد انصرم، وأنا أحمل الكثير من المقت للأحزاب السياسية التي تغري الآخرين للانغماس بالعمل السياسي لتبوء المناصب والعمل لمصلحة أحزابهم قبل مصلحة الوطن.

العودة الى الصحراء

حين كنتُ منشغلًا بحل نزاعات ملكية الأراضي، وحساب غلة الرز في الحقول؛ في كل من لواءي الديوانية والحلة، وقع حادث على حدود العراق – نجد. وقد ذكرنا سابقًا أن اتفاقية (بحرة) قد تم توقيعها بين العراق وابن سعود في ١ / ١١ / ١٩٢٥ وقد اتفق الطرفان على منع عشائرهما من القيام بغزو الجانب الآخر، كما اتفقا ايضًا، على أن تمنع عشائر كل طرف من التحريض ضد سلطة الطرف الآخر.

أدى توقيع اتفاقية (بحرة) الى الانفراج السريع للأزمة، قد مرَّ شتاء ١٩٢٥ – ١٩٢٦ من دون حدوث غزوات. وكنت قد عشت مع العشائر في خيمة بيضاء لتشجيعهم على الخروج الى الصحراء.

في الواقع، عدم حدوث، غزوات في ذلك الشتاء لم يكن مرده الى اتفاقية (بحرة) بل الى حقيقة ان ابن سعود والأخوان كانا منشغلين في محاربة الملك حسين في الحجاز.

من جانب آخر فإن بريطانيا والحكومة العراقية والقوة الجوية الملكية البريطانية قد أعلنوا أنهم سعداء لحالة السلم الدائم الناشئة بين نجد والعراق، وكل الترتيبات الدفاعية بما فيها الخطط الدفاعية قد طويت. في الشهر العاشر من عام ١٩٢٦، قبل مغادرتي الناصرية بوقت قصير، قامت بعض من عشائر شمّر بغزوة كبيرة جاءت من الجزيرة شمال العراق واجتازت الصحراء غربي الفرات وغنمت عددًا كبيرًا من الإبل من الكويت. وقد دار جدل كبير مع بغداد مفاده أنه يتوجب على الحكومة العراقية

السيطرة على صحرائها، وأن تكون تلك السيطرة فاعلة، ولذلك كان من الضرورة تأسيس مخافر للشرطة مجهزة بأجهزة اللاسلكي قرب الآبار المهمة.

عززت غزوة الكويت موقفي في إنشاء مخافر للشرطة في الصحراء. وكنت قد أوصيت بإنشاء مخفر للشرطة عند آبار (البو سايه) وقد حدث أن قامت شمّر بالغزو ومن ثم ارتوت هناك. كان قرار إنشاء مركز شرطة في (البو سايه) قد اتُخِذ في شباط ١٩٢٧، اربعة اشهر بعد مغادرتي الصحراء الغربية.

في الشهر التاسع عام ١٩٢٧ أرسلت مجموعة تتكون من اثني عشر عاملًا الى (البو سايه) لبناء المخفر، يرافقهم سبعة من رجال الشرطة. في ليلة ٥-٦ تشرين الأول ١٩٢٧ أغارت مجموعة من الأخوان من مجموعة مطير واندفعت الى المخيم وذبحت العمال مع الشرطة. ولكن الحكومة قررت الاستمرار بالعمل، وتم إرسال عدد من العمال مرة اخرى تصحبهم سيارات مسلحة تابعة للقوة الجوية الملكية.

من جانب آخر كان الوضع في نجد قد تغير تمامًا في عام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ أتمَّ ابن سعود انجاز سيطرته المحكمة على الموقف. وقد سمح للأخوان أن يقوموا بغزو العراق للإفصاح عن عداوته للملك فيصل الذي قام سرًا بتشجيع الغزو من أجل السرقة ضد نجد حيث كان كلًا من ابن سعود والأخوان منهمكين في القتال في الحجاز.

في وقت مبكر من عام ١٩٢٧ كانت الحرب في الحجاز قد انتهت وقد عاد الأخوان الى نجد. كسب ابن سعود اكثر مما يعتقد أنه ممكن. كان العراق وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني وكان ابن سعود لا يرغب في قتال بريطانيا. أدى كسب الحرب والانتصار الكبير لابن سعود الى فتح شهيته مع الأخوان لمزيد من الانتصارات. ظلت عشائر عتيبة ومطير تدّعي أنهم هم من انتصر في الحرب في الحجاز، وليس ابن سعود الذي لا يمتلك جيشًا نظاميًا، وقد دفع عشائرهُ لتخوض جربه. ركب التيه

زعماء العشيرتين وسيطرت عليهم الغطرسة، وقررا أن لن يتلقيا أوامر بعد الآن من ابن سعود. هناك بعض الشك من أنهما قدد قررا الانتصار عليه وتقسيم الجزيرة العربية بينهما. لم يقوما بالتمرد مباشرة لأن بقية نجد تعود للملك، ولكن حين أعلنا نيتهما بغزو العراق (الكافر) فإن بقية نجد تعاطفت مع الملك. كان الهدف الحقيقي في الهجوم على العراق هو الإطاحة بابن سعود نفسه.

لم تأخذ القنبلة وقتًا طويلًا كي تنفجر في ٤/ ١٢/ ١٩٢٧ غزت عشيرة مطير الكويت في الجهراء على رأس خليج الكويت. في ٩/ ١٢ قام فيصل الدويش بمذبحة لعشيرة (غليظ) وهي عشيرة من الرعاة العراقيين في منطقة الحياد. قامت طائرات القوة الجوية الملكية بالتحليق فوق المنطقة فيما كانت المعركة مشتعلة ولكنها فشلت في التعرف على ما يحدث. لم يعد الدويش الى وطنه بل تقدم غرباً حتى وصل في ١٩/ ١٢ عشيرة بني حجيم فغزاهم وذبح الكثير منهم بالقرب من (جو ميمة).

كان ابن سعود في عاصمته بالرياض، ولكنه لم يقم بأي فعل. حل الهدوء بعد كانون الأول حين حدث الغزو. انتظر الأخوان ليروا إن كان ابن سعود يتحرّك ضدهم. ولما لم يحدث شيء فقد فسّروا ذلك ضعفاً منه. في ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٨ قام علي بن عشوان، وهو من عشيرة مطير، بغزو العشائر الكويتية في منطقة ام رويسات في الأراضي الكويتية، وهي لا تبعد سوى سبعة وخمسين ميلًا عن البصرة.

في ١٩ شباط ١٩٢٨ غزا الدويش عشيرة الجوارين، وهي عشيرة عراقية من الرعاة، غزاها في منطقة جريشان، وهي لا تبعد سوى خمسين ميل من قاعدة سلاح الجو الملكي البريطاني في الشعيبة. إن تقدم الغزاة الى الأمام فلن يلبثوا أن يصلوا الشعيبة نفسها.

حلّقت بعض الطائرات من قاعدة القوة الجوية في الشعيبة فوق الصحراء، ولكنها

لم تستطع أن تستطلع الغزاة، ولكنهم شاهدوا بعض المتراجعين مع غنائمهم وذلك في ١٩، ٢٠، ٢١ من شباط. وقد تم اسقاط احدى الطائرات بالنيران.

أُحيطت الحكومة العراقية والقوات الجوية الملكية علمًا بالموضوع، ولاسيما المذبحة الدامية التي اقترفتها العشائر الغازية. اتخُذت كل الترتيبات الدفاعية المطلوبة من قوى بشرية نُشرت في المنطقة، وقد نصبت القوة الجوية الملكية على عجل هيأة عمليات في أور. واخيرًا أسست الحكومة العراقية وجودًا للجيش في (البو سايه) و(السلمان) و(شبيجة) وأُعطيت الموافقة للطائرات لاختراق الحدود العراقية النجدية.

كنت، ولا أزال، أعمل مراقبًا إداريًا للواءي الديوانية والحلة بعيدًا عن الأحداث المتأججة، وفجأة تسلمتُ برقية لنقلي الى الصحراء الجنوبية. غادرت الديوانية في ٢ آذار ١٩٢٨ وقد تم اخباري بتعييني مراقباً إداريًا في الصحراء الجنوبية، ولكن واجباتي لم تحدد. لم تكن هناك إدارة ولم يكن هناك شيء ليراقب. كانت المنطقة مليئة بالقوات الجوية الملكية والجيش العراقي وكنت انا المدني الوحيد.

النجاح الذي حققه الدويش جعل الآخرين يحاولون تقليده ويجعلوه مثالًا لهم، مثل زعيم عشيرة (عتيبة) سلطان بن حمادي، في ٢٤ آذار خرج مع قوة تقدر بأثني عشر الف رجل بدعوى غزو العراق. في الواقع قد يبدو هذا العدد قوة كبيرة جدًا، ولكنه كبركة ماء في الصحراء سرعان ما تَتبدد. ظل هؤلاء الناس متحمسين للغزو حتى منتصف نيسان، حين جاءت التقارير تفيد بأن ابن حمادي قد عاد أدراجه.

أرسلت الحكومة البريطانية، من جانب آخر، السير جيلبرت كلايتون للقاء ابن سعود في جدة. وكان السير كلايتون قد فاوض في اتفاقية (البحرة) في ١٩٢٥. في ٢١ نيسان ١٩٢٨ غادرتُ بغداد عن طريق الجو مع مستشار وزارة الداخلية السير كورنواليس والتحقنا بالسير جلبرت كلايتون في جدة.

منذ البداية كان الاتفاق مستحيلًا. إن النزاع الحقيقي ليس بين ابن سعود والعراق، ولكنه بين ابن سعود والأخوان المتمردين. الأخوان الذين انتصروا في الحجاز تلبستهم العجرفة وركبهم الكبر، وقد عقدوا العزم على الإطاحة بالملك. لقد تعامل الملك مع الأخوان كرأس النفيضة في جيشه، وقد شجَّع تطرفهم من أجل هزيمة منافسيه من العرب، مثل ابن رشيد والملك حسين. ولكن الآن فإن حدوده مع العراق وشرق الأردن، كليهما، تحت الانتداب البريطاني وقد ادرك أنه لا يمكن محاربة بريطانيا، ولكنه لا يستطيع تجنب الصِدام معها إلا إذا أرسل الأخوان الى الجحيم. ولكنه كان تواقًا بشدة لتجنب الحرب الأهلية. بإزاء هذا المأزق، كان ابن سعود يرغب في إغراء بريطانيا والحكومة العراقية بهدم مخفر الشرطة الذي بُني في (البو سايه). كان يأمل بعد ذلك أن يعود للأخوان ويقول لهم (انظروا حققت بالدبلوماسية ما عجزتم عن تحقيقه بالقوة. اتركوني لأتعامل مع العراق). من غير المحتمل أن يجلب الأخوان ثانية الى الطاعة، إنهم قد صمموا على الإطاحة بالملك. أما هو فقد ظل متمسكًا بالأمل، كما هو الرجل الغريق.

قضية العراقيين فيما سبق من وقت، هي أن حكومتهم لا تملك السيطرة على الصحراء. كان البدو في تلك الأيام يذهبون لسرقة الجمال من نجد؛ ممّا يجعل ابن سعود يحتج بصخب. واخيرًا أسست الحكومة العراقية مخافر في الصحراء، وبهذا وضعت حدًا لكل الغزوات التي كانت تستهدف نجد. ولكن ابن سعود الآن يطالب بإزالة مخافر الشرطة تلك، وهذا ليؤدي الى عودة الغزوات.

كان واضحًا أن المفاوضات مع بريطانيا والعراق وابن سعود في نفس الجانب هو مواجهة الأخوان المتمردين. ليس هناك من حالة سلام إلا بعد القضاء على الأخوان، ولكن ابن سعود لم يكن يرغب أن يصرّح بأنه لم يعد يستطيع السيطرة على الأخوان.

بعد أسابيع من المفاوضات، غير المجدية، عدنا الى العراق. وصلنا الى بغداد في نهاية آيار ١٩٢٨. كانت هناك دلائل على أن شتاء ١٩٢٨-١٩٢٩ سيشهد غزوات دامية تودي بحياة الكثيرين، إذا لم تُفتح جبهة حربية مع نجد. لدينا ستة شهور للإعداد والتحضير. وكنتُ قد وضعت خطة وسلمتها الى بغداد قبل ذهابنا الى جدة. وكانت أهم المفاتيح في خطتي هي كما يأتي:

أ – القيام بالاستطلاعات الجوية فوق منطقة واسعة (تقدر بمثلين في حجم انكلترا) استطلاعًا كاملًا. وكان الدويش قد اقترب الى بُعد خمسين ميلًا من قاعدة القوة الجوية الملكية في الشعيبة. من الواضح أن تكون هناك حاجة ضرورية لقوة أرضية تستكشف المكان.

ب – حتى مع ملاحقة الطائرات للغزاة فإن البعض منهم يعود مع الغنائم وكذلك المصابين يمكن أن يشكلوا خطرًا إذا تم تجاهلهم. لذلك فمن الضروري استخدام قوة مقاتلة ارضية.

ج – العشائر العراقية كثيرة ومسلحة بالبنادق ولكنهم غير منظمين.

د – الصحراء الجنوبية التي تبلغ مساحتها ٤٥٠٠٠ ميل مربع تنبتُ فيها مراعٍ ممتازة جدًا في فصل الشتاء؛ يمكن أن تخدم مئات الآلاف من الأغنام وكذلك آلاف الجمال. هذه الحيوانات ستموت اذا لم تخرج الى الصحراء، وسيواجه الرعاة وعائلاتهم المجاعة.

هـ – أنا المدني الوحيد، كل ما استطيع عمله أن أشرع حالًا بتنظيم خدمة استخبارية نشطة في نجد وسأبدأ بذلك حال وصولي الى الصحراء في آذار ١٩٢٨.

و – مخافر الشرطة في (البو سايه) و(السلمان) و(شبيجة) هي ذات قيمة كبيرة لتخزين الوقود والذخيرة. وهي محطات لاسلكية ترسل تقارير الى الحكومة وكذلك

القوة الجوية الملكية، ولكنها لم تكن متحركة. الحشائش حول تلك المخافر هي كافية لرعي مئات الآلاف من الحيوانات في الصحراء، وكان هذا ضروريًا لتشكيل قوة مسلحة متنقلة ويمكن أن تخيم في مناطق رعي العشائر.

العشائر نفسها وفقًا لخطتي عليها أن تتركز حول تلك المخيمات المتنقلة وتساعد على الدفاع عن نفسها. ووفقًا لذلك طلبت إصدار قرار لإنشاء مجموعة من هجانة الصحراء الجنوبية، قسم منهم يركبون الجمال وقسم آخر يركبون مركبات مسلحة ببنادق آلية. هذه المركبات توفر دوريات راجلة تكون ي مقدمة العشائر لتراقب الأقوام. في حالة قيام الأخوان بالغزو تقوم العربات المزودة بالبنادق الآلية بالتجمع مع العشائر للقيام بالقتال.

سلمتُ نسخة من مقترحاتي الى الضابط آمر القوة الجوية، الذي كتب عليها بالقلم الأحمر (انا لا أوافق. أنا لا أريد أن يقاتل رجال الشرطة). هذه الملاحظة كانت كافية لتأخير نشر البنادق الآلية من شهر آذار الى شهر أيلول ١٩٢٨، شهور الصيف التي مضت كان يمكن أن تكون فيها القوات تحت التدريب.

ينظر آمروا القوة الجوية الى العشائر العراقيةبأنهم مدنيون. في حالة الخطر يجب اخلاء الصحراء والتجمّع خلف مخافر الشرطة، تاركين سبعة عشر ألف ميل مربع من الصحراء المعشوشبة غير المستغلة. بعد ذلك أعدوا العدة لنشر دوريات جوية تستطيع أن تغطي مناطق واسعة لتُعيّن الغزاة. بعد مناقشات لا نهاية لها وافقت الحكومة العراقية في أيلول ١٩٢٨ على تشكيل ما يعرف بقوة الصحراء الجنوبية من الهجّانة وكما يأتي:

٧٠ راكبي الجِمال.

٣٠ بندقية آلية محمولة بالعربات.

٨ عربات وآليات متنوعة تم شراؤها من بغداد.

٤ عربات فورد؛ كل واحدة مزودة برشاش فيكرز.

٢ عربات لاسلكي.

وبالرغم من توفر مئات من أطقم اللاسلكي في العراق، لم يُعرنا أي قسم من الأقسام اثنين منها. لذلك فقد تم ارسال طلب لشرائها من بريطانيا ووصلت بعد عام.

خلال صيف ١٩٢٨ وضعتُ دراسة معمقة لطرائق حرب الصحراء منذ القدم، واكتشفت أنها كانت بتكتيكات دفاعية. طرق القتال عند البدو تبدو أنها قائمة على الكر والفر، القتال الدفاعي. سابقًا كان يحدث ايام ما كان الأمراء العرب يسيطرون على عدد كبير من القبائل.

يعتمد تكنيك القتال الدفاعي في الصحراء على صف الخيام، بعضها بالقرب من بعض، مع تشابك حبال تلك الخيام، وربط الحيوانات بعضها ببعض، خلف الخيام. هذه العملية تُعقّد على المهاجم عمله وتكون عقبة كأداء أمامه. الاعتراض على هذه الطريقة هو أن الحيوانات لن تستطيع الرعي، كما أن هذا التشكيل الدفاعي لا يصمد إلا يومين تقريبًا. هذا القصور يلقي مسؤولية كبيرة على القائد ولا يستطيع السيطرة على القبائل حتى قبل يوم من توقع الهجوم. كانت هناك حاجة ماسّة الى عمل استخباري دقيق لمعرفة نوايا الأعداء وتوقيتات غزواتهم.

لقد خططتُ لأجعل من رجالي المائة الذين هم قوة الصحراء الجديدة الجزء الأساس من قوة الدفاع. إذا وافقت القوة الجوية الملكية بالسماح في استعمال عرباتهم المسلحة لدعمنا، فإن الخطة ستكون مضمونة النجاح. ولكن الإدارة العامة للقوة الجوية لم تسمح بالتحضيرات والتعاون مع العشائر، إنها مستمرة في زعمها أنهم مدنيون وقد انتقلوا الى الصحراء، لذلك على الطائرات أن تتعامل مع الغزاة.

في تشرين الثاني ١٩٢٨ رفعت عشائر الأخوان من مطير وعتيبة وعجمان رايات الحرب، أعلنت بأنها ستذهب الى غزو العراق، بغض النظرإن وافق ابن سعود أو لن يوافق.

عجّلت بالذهاب الى بغداد لعمل الترتيبات الأخيرة مع الحكومة العراقية والقوة الجوية الملكية. جاء الجيش العراقي بنبل ليقدم المساعدة لنا. وقد أمسكوا (البو سايه) و(السلمان) و(شبيجة). وقد وافقوا ايضًا على إلحاق رشاشات آلية محمولة بقوة هجّانة الصحراء، وتشكيل قوة متنقلة لها القدرة الكبيرة على أن تحتشد مع العشائر العراقية. هذه المساعدة وجدت ترحيبًا مضاعفًا لأن الجيش العراقي يمتلك منظومات لاسلكية.

عند عودتي من بغداد دعوتُ الى لقاء موسّع للعشائر البدوية العراقية جميعًا في الصحراء الجنوبية، من بدوٍ ورعاة على السواء. كان اللقاء في السماوة، ووضعت العشائر كلها نفسها تحت تصرفنا ووافقت على التحرك والتحشد معنا والقتال تحت إمرتنا. وافقت القوة الجوية الملكية على أن تطلق دوريات جوية مبكرة بدلًا من انتظار أن تحدث الضربة الأولى. في وقت مبكر من كانون الأول تحركنا الى الخارج مع قوة الصحراء، وعسكرنا في (مغيزل). وقد خيّمت العشائر جميعًا حولنا، حتى أن البعض اندفع الى الأمام الى منطقة الحياد. في هذا الوقت الحرج اصدرت الحكومة البريطانية، فجأة، أمرًا بعدم اقتراب الطائرات الى بُعد عشرين ميلًا من الحدود، وبما أن معسكرنا في مغيزل هو على الحدود تقريبًا، فهذا يعني أن طائرات القوة الجوية الملكية ستكون في المستقبل بالخلف منا.

فشلت الحكومة البريطانية في احتواء الموقف، وقد أصدرت هذا الأمر كنوع من التنازل لابن سعود.

إذا نجح الغزاة فإنهم سيعودون بقدر كبير من الغنائم، وستنضم القبائل الأخرى اليهم، وعندها يُصار الى الإطاحة بابن سعود. وإذا انهزم المتمردون الغزاة فإن العشائر الأخرى ستظل موالية له، وستمكنّه من هزيمة المتمردين.

في ١٦ كانون الأول ١٩٢٨ وصل الى خيمتي في مغيزل أحد عملائنا من البدو، وكان مجهدًا الى درجة الإعياء، وأفاد بأن مجموعة صغيرة من الغزاة، من مطير بقيادة ضاحي ابن عشوان قد وردوا الماء عند (الحفر) في ١٥ كانون الأول وقد ذهبوا بحثًا عن مخيم لرعاةٍ منعزلين بالقرب من (جُميمة).

جمعت كبار البدو من ذوي التجربة وبعد أن حسبنا المسافة خمنّا أنهم سيصلون الى (جُميمة) في ذلك الصباح. وقد شاهدوا حشد الغزاة، هذه الحادثة كانت مشجعة لتوضيح ما تستطيع أن تفعله منظومتنا الاستخبارية الجديدة. اكتشف الأخوان سريعًا أنَّ طائرات الدورية سرعان ما ستطير فوق الحدود، وذلك نظرًا لما يمتلكونه من جواسيس يمتازون بقدرة عالية، وهم مبثوثون بين عشائرنا. لذلك تمّ تحريك العديد من معسكرات الأخوان من البدو الى شمال (الحفر) لتبتعد بضعة أميال عن عشائرنا في منطقة الحياد. وهذا الاقتراب المتزايد أدّى الى زيادة قلقنا، ولكنه، في الوقت نفسه، جعل من السهل أن ندس جواسيسنا في معسكراتهم. وبوقت قصير جمعنا معلومات هائلة؛ من أنَّ الأخوان المتمردين قد يتقدمون بالشكل الآتي: ابن حمادي مع عتيبة الى السلمان، الدويش والمطير في منطقة الحياد، وابن هذلان وعجمان قد جاءوا من الإحساء. كانت قواتنا صغيرة جدًا لا يمكن تقسيمها، وتبعًا لذلك قمنا بإخلاء الجهة المقابلة للسلمان ودعونا القبائل جميعًا للالتحاق بنا في منطقة مغيزل، حيث يكون العشب كافيًا للجميع. في فجر ٢١ كانون الثاني ١٩٢٩ غزا ابن هذّال وعجمان عشائر الرعاة العراقية، بني مالك في الأراضي الكويتية. كنا نحن في مغيزل. وهو مكان ممتاز

لقطع التماس بين الغزاة وعرباتنا المسلحة، ولكن كان ممنوعًا علينا دخول الأراضي الكويتية. وبهذا فقدنا فرصة ثمينة لتلقين الأخوان درسًا قاسيًا.

كنتُ قد عزمتُ اذا جاء الدويش فسأتصرف بما عندي من قوة صغيرة، حيث أضع البنادق الآلية في خندق صغير وأضع المتاريس حولها، وتقوم العشائر بالاصطفاف على كلا الجانبين بصفين طويلين، وتُقام الخيام؛ بعضها بالقرب من بعض وتكون حبالها متقاطعة. وبهذا تكون الجمال محجوزة ولا تستطيع الحركة، وكذلك تربط الحمير والخراف بين الخيم.

جميع الحيوانات لا تستطيع الفرار، وقد أوضحتُ ذلك لجميع العشائر.

في هذا الوقت الحرج تسلمتُ أمرًا يفيد بأن أربع بنادق آلية عراقية باقية فقط وستكون معنا، وأن البنادق الآلية الأخرى قد أعيدت الى منطقة (البو ساية). قدمتُ رجاءًا الى القوة الجوية الملكية أن ترسل لنا ما يتوفر لديها من عربات مسلحة، والتي هي في البوساية، ولكنهم رفضوا.

تفيد الفقرة ٣ من بروتوكولات عقير بأن لا تجتمع قوات أي طرف من الأطراف قرب الحدود. لذلك أصدرت الحكومة البريطانية الأوامر بأن لا تذهب أي قطعات عسكرية الى أبعد من البو ساية. لقد أشرتُ الى إمكان أن يقوم خمسة عشر ألفًا، او عشرون ألفًا من المتطرفين الأخوان بدخول العراق وبضمنهم قوات من نجد. أجابت قيادة القوة الجوية إذا حصل هجوم فيتوجب الانسحاب من البو ساية باستعمال القتال التراجعي. هذا الأمر المثير يميط الستار عن عدم القدرة التامة من قبل السلطات على تفهم موقفنا. شكّلت العشائر صفًا كبيرًا متراصًا من الخيام المصفوفة بعضها الى جنب بعض وربط حيواناتها بالجنب منها. والآن كيف يمكن لمثل هذه الكتل الكبيرة من النساء والأطفال والخيم والحيوانات أن تقاتل قتالًا تراجعيًا ضد قوة راكبة متقدمة؟

بينما كنا نتداول يوميًا بأمور هذه المعركة اليائسة، كانت الحكومة البريطانية مشغولة بالتفسير الحسن للاتفاقية دبلوماسيًا.

في ١٥ شباط ١٩٢٩ عند الغروب دخل خيمتي واحد من أفضل جواسيسي في مغيزل، وقال أن الدويش مع عشرة من رايات الحرب سيهاجموننا في مغيزل. دعوت أخلص الرجال من البدو، ومن الجمّالين ممن معي، ووصلنا بعد التدبير الى أن الدويش سيهاجمنا فجر يوم ١٩ شباط. لدينا ثلاثة أيام لتجميع العشائر التي معنا لتتخذ وضع القتال. بعد ساعتين من وصول جاسوسنا قمتُ بتوزيع سيارات شرطة الصحراء لجلب العشائر.

قمتُ باختيار موقعنا الدفاعي في (العبتيّة) شماليّ مغيزل بعدة أميال. السبب الرئيس لهذا الاختيار كان بسبب ثلاثة مستنقعات كبيرة من المياه؛ تجمعت نتيجة الامطار. وهذا يعني أن هناك مياهًا هائلة تحت اليد، وهذا شيء أساس لتجمع العشائر.

وصلت آخر العشائر مساء يوم ١٧ شباط وكانت متعبة تمامًا بعد مسيرة خمسة واربعين ميلًا في ستة وثلاثين ساعة. معظم الرعاة بما فيهم النساء قد ساروا على الاقدام. في ١٨ شباط جاء جاسوس آخر من جواسيسنا وكان قد سار مدّة يومين مع قوات الدويش المتقدمة، وبعد ذلك راغ عنهم وجاء الينا مباشرة. وقد أفاد بشكل صريح بأن الدويش سيهاجمنا في فجر العشرين من شباط. بعثتُ رسالة اخبر فيها بغداد بتاريخ الهجوم، وفيها رجوت فيما إذا كان بالإمكان أن تبعث لنا القوة الجوية الملكية بعضًا من عرباتها المسلحة لتلتحق بنا، ولكن لا جواب. التجمع الهائل للقوة النارية كان موجودًا في البو ساية وهو يضم العربات المسلحة للقوة الجوية، والبنادق الآلية للجيش العراقي. فإذا قابلنا قوة الدويش الغازية بتلك الأسلحة فستُنزل بهم اصابات فادحة ستضع حدًا لغزوات الأخوان الى الأبد. إذا حدث ذلك فإن المتمردين

سينهارون وسيستعيد ابن سعود قوته. ولكن حتى الآن، في الحقيقة، إني أشك إن كانت تلك القوة ستساعدنا أثناء الهجوم علينا.

إنني اتخيل أن النزوع الى هذا الحد من اللاتعاون يعود الى أن الحكومة البريطانية التي ترى بأننا، بشكل او بآخر، ندعم الشريف في مقاتلته ابن سعود. في حين أننا عندما نهزم المتمردين في الواقع، سننقذ عرش ابن سعود، لقد بقيت في (العبتيّة) مع أربع بنادق آلية عراقية مع قوة الصحراء الجنوبية من الهجّانة. وعلى يميني كانت عشيرة زياد وهم من الرعاة، وعلى يساري عشيرة ظافر وهم من البدو. وفي الخط الثاني كانت عشيرة (بدور) وهم من الرعاة. وفي الأيام ١٨ و ١٩ استنهض الجميع هممهم برقصات الحرب.

قضينا أربعة أيام متجمعين في (العبتية) منتظرين هجوم الدويش، وكانت درجة الترقب عالية جدًا. حتى مع الهجوم في فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى كان من الممكن أن تُقتل أو تُجرح أو تُؤخذ أسيرًا. ولكن الأخوان لا يأخذون أسيرًا، إذا لم تُقتل في أثناء المعركة، فإنك سوف تُحمل من قبل اثنين او ثلاثة رجال، وتُرمى على قفاك على الأرض، ويقوم أحدهم بقطع رقبتك بالسكين. في حالة الهزيمة ليس هناك من ناجٍ.

وجدتُ أن الانتظار والقلق من الموقف هو أسوأ ما في الموضوع، وقد خبرتُ ذلك في الحرب العالمية الأولى. في فرنسا كنت مدعومًا من قبل كل رفاقي. حتى وإن كان المرء معرضًا للقتل، فإنه يتقبل الأمر وأن عزاءه بأنه ليس وحيدًا وأن هناك العديد من الرجال معه. ولكن في (العبتية) لم أكن وحيدًا بحق، كنت مسؤولًا عن كامل العملية. الحكومة البريطانية والقوة الجوية الملكية قد رفضتا الفكرة الرائعة في مساعدة عشائرنا على الدفاع عن أنفسهم. بالرغم من أن هناك قوة أرضية قوية تبعد خمسين

ميلًا فقط فإنها، ربما، لا تقوم بمساعدتنا.

إذا تم ذبحنا جميعًا (أنا وجميع العشائر) فإن جميع تلك الدماء ستكون برقبتي وحدي. بعد انبلاج الضياء الأول فجر يوم ٢٠ شباط أرسلت سيارتي دوريتي الى الجنوب، فإن لمحتا العدو فعليهما إضاءة الضوء الأحمر لإعطائنا بضع دقائق لتهيئة أنفسنا، وإرسال الرسائل باللاسلكي. وقد كنتُ آمل أن تأتي الطائرات لمساعدتنا، حتى وإن لم تقم السيارات المسلحة بذلك، وهناك شك في قيام الطائرات في المشاركة في المعركة ولو بعد حين.

نحن الآن على أعتاب الأزمة. لم أشعر بالخوف، كنا نضحك ونتبادل النكات ونشرب الشاي والقهوة. إنتشر ضوء النهار تدريجًا. بدأ الرجال بطهي الطعام ولم يأتِ الدويش. بقينا ثلاثة أيام أخرى في حالة انتظار وقلق شديد. بعد ذلك انقسمنا الى مجموعات صغيرة نتبادل الأحاديث. كانت لدى الدويش رغبة جامحة في غزونا في العشرين من شباط. وقد أكد ذلك اربعة من الجواسيس في تقاريرهم. من جانب آخر كان الدويش قد دسَّ جاسوسًا في معسكرنا وقد انسل هارباً ليلة ١٨ / ١٩ شباط، وكان الجاسوس قد شاهد عشائرنا متحمسة للقتال وشاهد ايضًا ثلاث طائرات حربية جاثمة بالقرب من معسكرنا. وقد قابل عشيرة الدويش وأخبرها بتجمع العشائر وحماستهم للقتال بالأهازيج والرقصات الحربية، وفوق كل ذلك الطائرات الحربية.

عقد الدويش اجتماع حرب صاخبًا عند منتصف الليل قرب بئر (جوليدة)، فأصدر عظيم الدويش أمرًا بالانسحاب.

على مدى تسع سنين كانت العشائر العراقية تعيش في رعب متواصل، ولكن في تلك الليلة ارتدّت الموجة. وفي ١٧ شباط كان قد أخبرنا عميل من عملائنا، جاء من حايل، بأن سلطان بن حُميد رئيس عشيرة عتيبة قد تقدّم مع قوة كبيرة وهو عازم على

غزو الرعاة العراقيين في (جُميمة) وهو نفس اليوم الذي غزا فيه الدويش العشائر في (العبتية).

في نفس اليوم كنتُ قد سمعتُ بأن الرعاة من عشيرة عياجيب، وتبعًا لأوامري، قد تحركوا الى (جميمة) وقد أمضيت ثلاثة أيام مرعبة وارسلت سيارات شرطة الهجّانة ليأمروهم بالعودة. واخيرًا في ٢١ شباط انصاعوا للأمر. في الصباح التالي هاجم ابن حُميد مخيمهم ولكنه وجده خاليًا. ولعدم رغبته بالعودة الى دياره خالي الوفاض فقد غزا مخيمات الجيران وهم من شمّر في اراضي نجد وبعض القوافل من التجار النجديين.

جاء هذا العمل لصالح ابن سعود. في حين أن الأخوان المتمردين يعلنون أنهم سيدحرون العراقيين (الكفرة) ويحصلون على تعاطف كبير من القبائل الأخرى في نجد. ولكن عندما فشلوا في هزيمة أي من العراقيين فإنهم هاجموا قبائل نجدية أخرى بل حتى قوافل التجار النجديين، لقد صار واضحًا بأن حركتهم هي ليست حركة دينية.

تحوّل سكان المدن والقبائل الأخرى في الجزيرة العربية بسرعة الى الولاء لأبن سعود. ويمكن الزعم الآن بأننا قد ساهمنا بهذه النتيجة عندما أفشلنا هجوم الأخوان المتمردين.

(بعد خمسين سنة تقريبًا وجدتُ أن المقارنة بين نتائج الأحداث التي جرت في شباط ١٩٢٩ بافتراض أن المتمردين الأخوان قد هزموا ابن سعود، فإن الجزيرة العربية سترجع الى فوضى عشائرية. عندها لن تكون هناك حكومة مستقرة ولا تستطيع شركات النفط أن تعمل وتزود آلة الحرب العالمية الثانية، ولن تتطور الصناعة الغربية. في هذه الأيام العربية السعودية هي دولة غنية ومهمة، تتمتع بالحكمة والاعتدال ولها نفوذ في الشؤون الدولية. يبدو من المهم أن ندّعي أن كل هذه النتائج تعود الى اخفاق الأخوان المتمردين النجديون من غزو العراق في شباط ١٩٢٩. إنه من الصعوبة القول بأن بريطانيا والحكومة العراقية قد حميا العراق، ولكن كانت شجاعة العشائر

البدوية العراقية التي كانت كل واحدة منها تخشى التقصير، لهذا الحد، فإن تلك هي الحقيقة الفعلية).

الخصم الرهيب

حين تراجع الدويش عن مهاجمة مواقعنا في (العبتية) فإنه لم يقم بتسريح قواته، بل قام بتجميعها بجنوب الحدود، على بُعد ستين ميلًا تقريبًا عنا وهي مسافة تستغرق مسيرة يوم. وقد علم، كما نعلم نحن، أننا لا نستطيع أن نبقي على قواتنا مجتمعة. في الواقع بدأ الماء في (العبتية) ينضب، وليس هناك إلا منطقتان يوجد فيهما عشب كافٍ لتجمع عدد كبير من العشائر، وتلك المنطقتان هما المنطقة المحايدة وشمال الكويت.

كانت منقطة الحياد خطرة جدًا، حيث إن الدويش قد جمع قواته في منطقة تبعد خمسين ميلًا فقط. إضافة الى ذلك، فإن طائرات القوة الجوية لا يمكنها أن تحلّق فوقها. كان الموقف في الكويت مختلفًا فإن طائرات القوة الجوية والعربات المسلحة يمكنها العمل هناك، ولكن الجيش العراقي وقوات الشرطة الصحراوية (الهجّانة) لا يمكنها العمل هناك. ولكن باستعمال دبلوماسيتي الشخصية المتميزة زاللبقة فقد سُمح لي شخصيًا بالدخول الى الأراضي الكويتية، لمدة يوم، على أن لا أبيت هناك. بعد حين تم التوصل الى حل وسط، فقد أُعطي الإذن بأن يُقام مخيم في أراضي الكويت للعشائر العراقية، وكذلك قوة الشرطة الصحراوية وأنا، ولكن ليس الجيش العراقي. والأفضل من ذلك قد حصلنا على جزء من القوة الجوية والعربات المسلحة لمرافقتنا.

تحركنا الى ما بعد سبعين ميلًا من (العبتية) الى (ام المدافع) وقد خيمنا قرب بركة من مياه الأمطار بحجم البحيرة. وكان العشبناميًا حولها يصل لحد الركبة. وكانت

سيارات الفورد المرافقة للهجّانة قد ثبتت بنادقها الآلية وهي تقوم بدوريات يومية عند الحدود الجنوبية للكويت. كانت قوات الأخوان جنوب الحدود مباشرة، والكثير من المناوشات تقع بين دورياتهم ودورياتنا. كانت قوة الصحراء وهي تعود الى قيادة القوة الجوية لا ترغب في القتال، كنتُ قد خدمت مع القوة الجوية الملكية لمدة خمس سنوات، وقد كنت في تماس قوي معهم، لاسيما مع الطيارين ممن طرت معهم لساعات طويلة كانت محفوفة بالمخاطر. كان خطئي أنني لم أقضِ مزيدًا من الوقت في بغداد لأكوّن علاقات شخصية مع شخصيات القيادة، او بدلًا من ذلك، لم أطلب من بعض ضباط قيادة القوة الجوية الملكية أن يزوروني في الصحراء.

كان آذار ١٩٢٩ في الحقيقة شهرًا سعيدًا حيث كنا نخيم في منطقة جميلة ذات مرعى اخضر، أحاطت بنا عشائرنا المبتهجة. وبسرعة أصبحت الجمال سمينة وصارت بطيئة الحركة. أما الخراف وصغارها فهي تتقافز هنا وهناك. ولكن سرعان ما تغير كل شيء فسرعان ما جاء نيسان بشمسه الحارة، بدأ المرعى بالذبول وأخذ الرعاة بالعودة الى الفرات خوفًا من نضوب الماء، وتصبح الصحراء قاحلة، فيساقون مع قطعانهم.

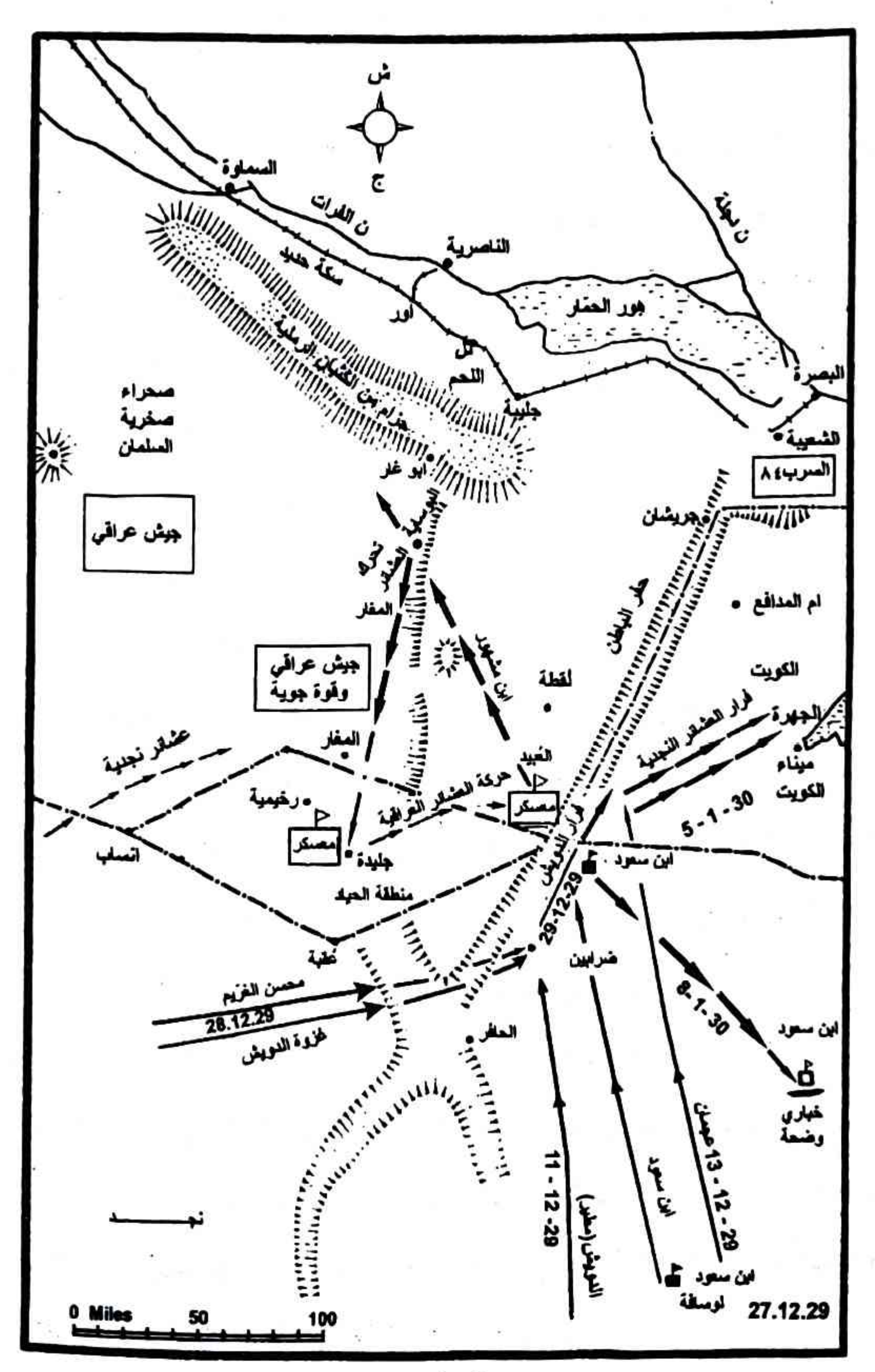
هاجم ابن حُميد شمّر والتجار النجديين. وأخفق هو نفسه وكذلك الدويش من غزو العراقيين (الكفّار) وكان ذلك في صالح ابن سعود الذي تحرك مباشرة الى مدينة (بورعبدا) مناديًا العشائر الموالية له بأن تلتحق به. وكذلك جنَّد رجال المدن في نجد. في هذه الأثناء بدأت العشائر الموالية له بقتال المتمردين. وهنا بدأت الحرب الأهلية.

في ٢٩ آذار خاض المتمردون معركتهم الحاسمة مع مجندي ابن سعود في (سيبيلا). تسعين ميلًا شماليّ الرياض. بعد معركة يائسة حتى بالأيدي انهزم المتمردون أخيرًا. أُصيب فيصل الدويش في أثناء المعركة بعيار ناري في معدته، استسلم بعد ذلك لابن سعود. كما يبدو أنه سيموت فسمح له الملك بأن يعود الى عشيرته. أمّا ابن حُميد فقد

أبى الاستسلام وعاد الى بيته في الجانب الآخر من شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن قضية التمرد قد خسرت.

ولكن المتمرد الثالث (عجمان) لم يحضر الى (سيبيلا). عندما بدا أن ابن سعود انتصر كليًا. أُرسل رتلٌ في طلب (عجمان) إلا أنه هزمه وقتل آمره وهو من أولاد عمومة الملك. وهنا انتعشت آمال المتمردين وفي الوقت الذي وضعت فيه حرارة الصيف حدًا للقتال الشرس، فإن القبائل الموالية والقبائل المتمردة في نجد استمرت في غزو بعضها بعضًا.

استمرت سيارات شرطة الصحراء في دورياتها شمال الحدود مع نجد. في ٢٩ تموز غزت مجموعة من مطير عشيرة ظافر، وغنموا مائتين من الإبل في منطقة في الأراضي الكويتية تبعد زهاء خمسين ميلًا جنوب معسكر القوة الجوية الملكية في الشعيبة. طاردت سيارتان للشرطة؛ كل واحدة مزودة برشاش نوع لويس، طاردت الغزاة فلاذوا بالفرار واستعادت منهم الغنائم من الإبل. في آب ١٩٢٩ نفّذت عشيرة مطير غارة كبيرة جدًا على عشيرة شمّر النجدية التي خيمت في الأراضي العراقية عند (جُميمة). ومرة أخرى انطلقت سيارتان من شرطة الصحراء مجهزة ببنادق آلية ولحقت بالغزاة، واستطاعت تفريقهم وبعثرتهم وأجبرتهم على الفرار، وأعادت الغنائم التي نهبوها. تمّتْ هذه الانتصارات بفضل استعمال البنادق الآلية، والتي رفض الضابط آمر القوة الجوية الملكية في السنة الماضية أن نستعملها في المعارك الأرضية التي دارت آنذاك، وذلك برفضه أن تشارك الشرطة في المعارك. وكتحصيل حاصل فإن النجاحات التي تحققت ما كانت لتتحقق لولا المعنويات التي استُمدت من الشعور بأن القوة الجوية الملكية وراءنا لتقدم لنا الدعم.



(المعركة الأخيرة)

صارت هجّانة الصحراء (وهم القوة التي تستعمل الجِمال) مشهورة جدًا في الجزيرة العربية. ومن خلال العمليات أطلقت عليهم كُنية خاصة بهم وهي (العوجان). في كل معركة، او مناوشات يشتركون بها، يرفعون خوذهم ويطلقون العيارات النارية من بنادقهم ويهجمون على الأعداء وهم يصيحون (العوجان.. وين العوجان.. وين الشجعان).

في نهاية الصيف استسلم ابن حُميد لابن سعود، وسُجن في زنزانة لا طاقة له على الإفلات منها. عادت عشيرة عتيبة الى الولاء للملك ولم تبقَ إلا مطير وعجمان.

في تشرين الأول ١٩٢٩ نزحنا مع القبائل العراقية وشرطة الصحراء الجنوبية وخيمنا في منطقة الحياد، لم يكن الجيش العراقي معنا. في ذلك الحين قررت عشائر مطير وعجمان البحث عن ملاذ آمن في العراق، وقد تجمعوا قرب الحدود على بُعد أميال قليلة جنوب مواقعنا. في ١٣ كانون الأول جاء وفد من شيوخ مطير لمقابلتي في خيمتي للبدء بالمغادرة والتحول الى العراق. في نفس الوقت خشي عدد من العشائر الموالية لنجد أن المتمردين لو عبروا الحدود وخيموا خلفنا لوفّرت بذلك الحماية للمتمردين.

بعد ثماني سنوات من الرعب تغيّر الموقف تغيرًا جوهريًا، حيث أن كلًا من المتمردين الأخوان والعشائر الموالية لابن سعود يلتمسون أن نقوم بحمايتهم. كان وضعنا محفوفًا بالمخاطر. ابن سعود سوف لن يتحرك الى الصحراء حتى تسقط الأمطار الكافية لتكوّن بركًا من الماء في الصحراء.

إذا رفضتُ بخشونة السماح للمتمردين الدخول الى العراق فلا يتورعون من تجاوز مخيمنا، وينتشرون في العراق هرباً من ابن سعود. لذلك قررت مع ما لدي من شرطة الهجّانة وهم أربعون مع السيارات الأربع المزودة بالبنادق الآلية أن أصدر أمرًا الى العشائر أن يتخذوا وضع القتال.

في هذه المرحلة اختفت نصف متاعبي وذلك بمجيء رئيس أركان القوة الجوية الملكية في ٢١ كانون الأول الى مخيمنا. هذه هي المرة الأولى خلال خمس سنوات، من الأعمال العدائية مع الأخوان، وكانت هذه الزيارة لواحد من الضباط الكبار للقوة الجوية الملكية مهمة جدًا بالطبع، حال وصوله الى المكان ومشاهدته الموقف، قدّر ذلك الموقف بشكل كامل، لاسيما المشاكل التي نعانيها. بعد ذلك صار التعاون مع القوة الجوية الملكية يتم بسهولة.

في ٢٨ كانون الأول هجم عدد كبير من عشيرة (حارب) وهي عشيرة موالية لابن سعود لغزو عشيرة مطير في منطقة (ضرابين). هربت الأخيرة وهي عاجزة عن المقاومة، كما كانت تفعل عشائر الرعاة العراقيين، ياله من سقوط كبير، بعد ذلك جاء قوم من عشيرة مطير بزعامة (حزّة الدويش) الى خيمتي يطلبون ملاذًا آمنًا في العراق. كانت الحكومة العراقية وكذلك الحكومة البريطانية قد تعهدتا لابن سعود بأن لا يمنح المتمردون أي ملاذ آمن، لذلك رفض التماسهم بشدة. نتيجة لذلك اندفعوا الى الأراضي الكويتية. تحيّر الضابط بورنيت (من القوة الجوية) إنه من السهل أن تعد ابن سعود بعدم منح الهاربين حق اللجوء، ولكن حين تشاهد جمهرة منهم تضم النساء والرجال والأطفال (لا نذكر الجمال) يرومون عبور الحدود، ليس من الممكن أن نضربهم بالنار.

مجموعة واحدة فقط تتكون من فرحان ابن مشهور وستين من اتباعه سُمح لهم بملاذ آمن لأنهم كانوا من الرعايا السوريين وهم من عشيرة روالا. كانوا قد جاءوا لابن سعود ثم التحقوا بالأخوان، كانوا غير مسلحين وذهبوا الى (البوساية) ومن ثم أعيدوا الى سوريا.

أنا وقائد القوة الجوية وضعنا مسودة بعض التعليمات بغية تقديمها الى المتمردين.

على الزعماء أن يسلموا أنفسهم وتتم السيطرة على العشائر وينزعوا أسلحتهم ليسمح لهم بالبقاء في الأراضي الكويتية حتى تنتهي المباحثات تمامًا مع ابن سعود. طار قائد الجو (بورينت) الى بغداد مع تلك المسودة للموافقة والتصديق. في ١ كانون الثاني طلب الدويش ونايف ابن هذلان شيخ عشيرة عجمان شرحًا للتعليمات، ثم طلبوا اثنتي عشرة ساعة مهلة لمراجعة التعليمات مع عشائرهم والتفكير في الموضوع، ولكنهم لم يعودوا. في ٥ كانون الثاني ١٩٣٠ تملّك جميع المتمردين وراء الحدود الذعر فجأة وهربوا جميعًا باضطراب وفوضى واتجهوا الى الجهراء. وبناءًا على طلب الضابط الآمر الجوي فقد اصطحبته مع مجموعة من السيارات المسلحة وخرجنا لمتابعتهم، ولكنهم كانوا قد تلاشوا تمامًا، وانتشروا في الصحراء التي خلفهم مع كل ما يملكون من جِمال وماشية.

غالبًا ما كنت أرى الرعاة العراقيين التعساء وهم يهربون برعب من نفس هؤلاء الأخوان المجردين من الرحمة. حتى الآن لم أشعر بالخيلاء والغرور، كان هناك شيء من المرارة والألم عند مشاهدة أناس آخرون يقومون بتحقير شأن الآخرين. في حين أنا كنت مع الآمر الجوي في محاولة للاحاطة بالقوم الغازين. استلمتُ اشارة من مخيمنا تخبرني بأن ابن سعود وكامل جيشه قد وصل الى الحدود، وهو الآن أمام خيمتي مباشرة. عند عودتنا الى مخيمنا وجدتُ وفداً بانتظاري مع رسالة من ابن سعود يسألني فيها عن الخطوات التي في نية الحكومة البريطانية أن تتخذها لطرد المتمردين من الكويت. وكان زعيم الوفد ينفذ واجباته بعصبية وانفعال وبخطبة شفهية طويلة ضد الحكومة البريطانية. كان ردي عليه بأني أخدم الآن عند الحكومة العراقية، وأنا لست قادرًا على أن أتكلم رسميًا عن الحكومة البريطانية أو شيخ الكويت. وأنا، شخصيًا، متأكد من أن الحكومة البريطانية وكذلك الكويت سينجزون التزاماتهم.

بعد ثلاثة أيام جاء الوفد وأخذ يتنقل بيني وبين ابن سعود. وقد أمضى رئيس الوفد بعض الوقت وهو منفعل ومتجهم ويتهجم على بريطانيا والعراق والكويت. وفي نفس الوقت كان الجيش الملكي قد اصطحب معه عددًا من شاحنات التشفروليه، وقد وصلت الحدود بآخر صفيحة من الوقود. ثم تسلمت رسالة من صاحب الجلالة يسألني فيها إن كان بالإمكان تجهيز جيشه بالوقود، وقد سَألنا ايضًا إن كان بالإمكان أن يترك جزءًا من جيشه الآلي في مخيمنا (كضيوف علينا) وكانت ترتيباتنا الإدارية قد تطورت بما فيه الكفاية. لحسن الحظ كان الماء متوفرًا بالقرب منا، ولكنه ليس كذلك عند جيش ابن سعود.

في ٨ كانون الثاني ١٩٣٠انسحب بعيدًا الى الجنوب الشرقي الى (خباري وضحة) في أراضيه، وقد كتبتُ في يومياتي (حفظنا الله من اصدقائنا).

كنت اشعر بالامتعاض من الحكومتين البريطانية والعراقية في هذا الوقت العصيب لأنهما يتعاملان مع السياسة الدولية ببطء في محاولة ترضية ابن سعود.

منذ ست سنوات خلت كانت العشائر العراقية تحت رحمة الأخوان، كانوا ضحايا للمذابح والسلب والنهب، ولم تقدم لهم الحكومة أية حماية. عندما نظّم العشائر أنفسهم ودافعوا عن مصالحهم في منطقة (العبتية) صار الأخوان يحترمون الحدود العراقية. واخيرًا انقلبت الطاولة؛ الأخوان مع عدد ضخم من الماشية التي غنموها الآن هم في حالة فرار وهم مرعوبون. لقد ألححتُ بالطلب من الحكومة العراقية أن تسمح بالإستيلاء على بعض الماشية من الأخوان، وتُعد قائمة بالأسماء لتعويض الضحايا من غزوات الأخوان، أونقوم بطرد الأخوان من الكويت، او يدفعوا تعويضات للسنوات الست التي كانوا يقومون فيها بالغزو والقتل.

تسلّمت موافقة فاترة بأن أوزع على ضحايا الغزو من العراقيين أي جمال يمكن

الإستيلاء عليها من الأخوان في الأراضي العراقية. في هذا الوقت كان المتمردون خارج نطاق تناولنا في الكويت، ومع ذلك فقد نجحنا بجمع بعض الإبل، لاسيما من ابن مشهور، وقد بذلت كل جهدي ليكون توزيعها على ضحايا غزوات الأخوان القدماء. لقد كانت التفاتة رمزية، على أي حال لا يمكن لأي شيء أن يعوّض عن العدد الكبير من القتلى العراقيين.

قسم قليل من المتمردين حاول العودة الى نجد ليسلموا انفسهم الى ابن سعود، لكن جيش الملك القى القبض عليهم وقتلهم جميعًا. كما فعلوا من قبل بالعراقيين من مذابح.

في ٢٠ كانون الثاني، طار المقيم البريطاني في الخليج الى معسكر ابن سعود، وفي ٢٥ من الشهر ذاته، تم توقيع اتفاقية لتسليم قادة المتمردين الى ابن سعود وطرد القبائل من الأراضي الكويتية، في المقابل وعد ابن سعود انه سيسوي ادعاءات العشائر العراقية بما خسرته نتيجة لغزوات الأخوان في الماضي. فجأة عاد جميع المتمردين الى أراضي نجد ولكن لا شيء قد تحقق حول الموضوع، أو أنّ الحكومة العراقية او الحكومة البريطانية قد بذلوا جهدًا لمتابعة موضوع تعويض الرعايا العراقيين او الرعايا الأجانب.

كانت الحكومة البريطانية توّاقة دائمًا لإحلال السلام. في ٢١ شباط ١٩٣٠ عُقد اجتماع على ظهر المركب الملكي (لوبن) في الخليج بين الملك فيصل الأول، ملك العراق، والملك عبد العزيز ابن سعود. لا يمكن أن نصف أن ذلك الاجتماع قد جعل الرجلين أصدقاء، ولكنهما في الأقل قد اجتمعا وتحدثا.

لقد رافقتُ الوفد العراقي الذي ضمّ رئيس الوزراء ناجي بيك السويدي ومستشار وزارة الداخلية السيد (السير بعد ذلك) كنهان كورنواليس. ولقد أجرى

الوفدان الرسميان الحكوميان مباحثات وتوصلا الى وضع اتفاقية قادت بعد ذلك الى حالة سلام دائمة. لم تحدث بعد ذلك قط غزوات بين العشائر عبر الحدود بين نجد والعراق. يجب الإقرار بأن تأسيس حالة السلام تلك تعود الى المحاولات الدبلوماسية التي أجرتها الحكومة البريطانية.

لقد تطورت أفكاري عن الصحراء بشكل عام منذ أول انخراطي في الدفاع عن العشائر العراقية ضد الأخوان. بدت الصحراء في العراق بالنسبة لي ليس رمالاً قفراء بلا فائدة، كما هو شائع في مخيلة الغرب. أما الأرياف والمناطق السهلية والمناطق المتموجة فتحتوي على أفضل المراعي في البلد. وهي قادرة على تربية مئات الآلاف من الإبل، والملايين من الخراف. الآن وقد انتهت الغزوات القاتلة يمكن استثمار ذلك.

منذ آلاف السنين تعيش العشائر في هذه السهول الواسعة، ويكونون مصدر تهديد للمجموعات السكانية التي تقطن ضفاف نهري دجلة والفرات، او التلال الزراعية في شرقي الأردن وسوريا. في الكتابات القديمة وفي العهد القديم نجد بعض الممارسات العدوانية للبدو، وحتى قبل موسى وقبل الإمبراطورية الآشورية، او قبل نبوخذ نصر، او أيام الفراعنة، وايضًا في زمن الإمبراطورية العثمانية. الكره والحقد على البدو وهو كره راسخ وعميق في عقل وعواطف سكان المدن والمناطق المستقرة. إنها تبدو لي شيئًا مبهماً من الناحية الاقتصادية والناحية السياسية، هناك خشية من القدرة الكامنة لدى رجال الصحراء. الحاكمون وسكان المدن كانوا يعانون منذ قرون من الأعمال التي يقترفها البدو، ولذلك فإنهم يتمنون أن يروا جميع البدو وقد اختفوا من الصحراء حتى تصبح الصحراء خالية منهم.

إن هذه الحكومات تطمح الى أن تكون متقدمة وعصرية لتطوير عمليات الري والزراعة والتربية، إضافة الى الصناعة. لم تكن هناك أي أفكار تسهم في بناء

الصحراء، وليس هناك من مقترحات ايجابية لتحويل الصحراء الى شيء مفيد او نافع للبلد. مثل هذه الأفكار لم ترد حتى في أحلامهم.

كل ما يأملون فيه هو أنْ لا يأتي أي ازعاج او اذىً من سكان الصحراء. طوال السنوات العشر التي قضيتها في العراق كان هذا التوجه السلبي هو السائد. لآلاف السنين كان البدو قد ظلوا مستقلين عن سيطرة الحكومات لأنهم وحدهم يملكون الجِمال وهي الوسيلة الوحيدة للتجوال في الصحراء.

وقد بدأ استخدام السيارات والطائرات بشكل متزايد بتحطيم عزلة البدو شيئًا فشيئًا. وتدريجًا بدأ الخوف من البدو يختفي، ولكن لم يتحول الى تعاطف معهم كمواطنين. الطرق وخطوط التلغراف السلكية، الانابيب امتدت في الصحراء وكثير من المسافرين العراقيين أخذوا يسافرون عبر الصحراء في سفراتهم الاعتيادية. ولكن لن يطرأ على الصحراء أي تغيير.

يعيش البدو بشكل رئيس على تربية الجِمال. وكانت الجمال كثيرة في المنطقة العربية، تُذبح بكثرة في البلدان العربية وتُنقل من مدينة الى مدينة وهي تُستعمل لنقل البضائع ، إضافةً الى ذلك، تُستعمل الجِمال للذبح وتوفير اللحوم الرخيصة للناس الفقراء في المدن. آلاف الجِمال تصدر من الجزيرة العربية الى مصر لتوفير اللحوم (هذه التجارة توقفت عام ١٩٤٨ بعد قيام اسرائيل، فصار صعبًا المرور من الجزيرة العربية الى شمال افريقيا).

بمرور الزمن لم يعد هناك من الماء في الصحراء ما يكفي في الصيف لتربية الماشية بأعداد كبيرة. ولكن في نيسان يختلف الوضع عندما يفيض نهرا دجلة والفرات. بعد انسحاب الماء تتكون مراعٍ واسعة توفر منطقة رعي جيدة في أوائل الصيف في العراق. ولكن في حين يساعد سكان الصحراء المجتمعات على اقتصادهم غالبًا ما

يكونون هم أنفسهم يعيشون في فقرٍ مدقع .

كانت بعض الأفكار تراودني، وانا اقضي الليالي الطويلة في الصحراء. في صراعنا مع الأخوان. كنا قدد أسسنا مخافر للشرطة حول الآبار المهمة في الصحراء الجنوبية. لقد بدا لي الآن أنه من الضرورة إنشاء مثل تلك المخافر في الصحراء السورية التي هي عماد التجارة. يجب أن تُفتح حوانيت ليأتي اليها التجار للبيع والشراء مع العشائر القاطنة هناك. مدارسٌ ومستوصفاتٌ يجب أن تُبنى بجانب كل مخفر شرطة، وربما بعض الأشجار تُغرس مع زراعة الخضراوات قرب الواحات الصغيرة.

ابن شعلان

في عام ١٩٣٠ كانت هناك بعض المهام الصغيرة التي كان ينبغي إنجازها، قبل أن أطلب من السلطات تبني خططي لتطوير الصحراء، ونشر السلام فيها. من أولى وأهم الموضوعات هو وضع حد للغزوات في الصحراء السورية.

تُشكل الصحراء العربية مثلثاً تقع مدينة حلب في قمته. يمثل شمال المثلث بأجمعه عشيرة عنِزة وهي أكبر العشائر، وهناك بعض من عشائر عنِزة في الحجاز. كانت قد هاجرت هذه العشائر الى هذه المنطقة وصارت ثلاث مجاميع . المجموعة الجنوبية تضم عشائر (روالا) و(ظانا) و(مسلم) واصبحوا من الرعايا السوريين. المجموعة الأخرى هي الشرقية وتضم (صَبا) و(الامارة). ضبا في سوريا أمّا الامارة فهي في العراق. وعلى الجانب الشرقي من الفرات في منطقة الجزيرة تقطن عشيرة (فِدعان). ثلاثة زعماء يسيطرون على هذه العشائر الكبيرة وهم ابن شعلان في المجموعة الغربية على (الروالا) و(الظانا) و(مسلم) ابن هذال، على (الإمارة) وابن مُحايد على (فِدعان)

في الجزيرة. هناك روابط لعشيرة صبا مع الإمارة ولكن عندما رُسمت الحدود بين العراق وسوريا بعد الحرب العالمية الأولى أصبحت صبا في سوريا والإمارة في العراق.

عندما قدمتُ الى العراق كانت أقسام عنِزة الثلاثة في الشمال تحت زعامة ثلاثة شيوخ كبار في السن، جميعهم لهم شخصيات محترمة، وهم النوري ابن شعلان وهو يبسط سلطته على المجموعة الغربية، وفهد ابن هذّال زعيم عشيرة الإمارة. ومُجهم ابن مُحايد رئيس عشيرة فدعان. في عام ١٩٣٠ مات الشيخ فهد ابن هذّال، وظل النوري على قيد الحياة، وهو يعيش بشكل دائم في منزله في دمشق. وأناب قيادة العشيرة في الصحراء الى حفيده الشاب النشط فوّاز. خَلَفَ فهد أباه مهروت. أما مجهم ابن محايد في سنينه المتقدمة فقد تخلى عمليًا عن حياة البداوة وذهب الى منطقة زراعية من ممتلكاته في الجزيرة.

كان الرجال الثلاثة المتقدمون في السن يميلون الى الهدوء والحكمة ورجاحة العقل، وقد اكتسبوا المعرفة من الحياة التي يكتسبها الشيوخ ويخزنونها في عقولهم، وتتراكم تلك المعرفة عند أولئك الأميين، وهي تختلف عن المعرفة التي تُكتسب من الكتب والمطبوعات، وتأتي طبيعيًا بالعقل النافذ والذكاء والفطنة، إنها المعرفة التي تفرزها الحياة وتأتي من الملاحظة المباشرة.

لا أستطيع أن اجزم إن كان أولئك الشيوخ يحب أحدهم الآخر، لكن كان الثلاثة يعملون، بعضهم مع بعض ليبقى السلام. كل واحد منهم كان يمتلك شخصية قوية، بما فيه الكفاية لتمكّنهم من السيطرة على عشائرهم، ويمتلكون الحكمة المطلوبة التي تمكّنهم من العمل باحترام مع الحكومات. ولكن موت فهد وذهاب النوري الى دمشق ترك العشائر تحت زعامة شابين نشطين، وربما تتحكم فيهم الغيرة بعض الشيء.

عشيرة روالا عادةً يذهبون في الصيف للرعي قرب دمشق، والإمارة كانت ترعى على الفرات، ولكن في الشتاء والربيع تنتقل العشيرتان الى وسط الصحراء السورية ثم يلتقيان ويختلطان جنوبي الرطبة.

خلال شتاء ١٩٢٨ – ١٩٢٩ دخل الشابان فواز ومهروت في نزاع سَبَّب الخوف والهلع ومن ثم القتال قرب الرطبة، وقد سبب ذلك الإزعاج والإرباك للحكومة العراقية التي تمتلك مخفرًا للشرطة قرب الرطبة. وكانت السيارات التي تنقل البريد بين بغداد ودمشق تمر بالرطبة وكذلك سيارات المسافرين. وفي شتاء العام التالي أخذ الإضطراب في الصحراء السورية شكلًا جديدًا. كان فواز ابن شعلان فتىً شابًا مندفعًا يتمتع بالطيش والوسامة والحيوية. وكان أثيرًا لدى جده الفاحش الثراء. إبان الصيف حيث كانت الصحراء السورية خالية تقريبًا، كان فواز يعيش حياة الرجل الثري الشاب في المدينة. كان المال وفيرًا وكان هناك الكثير من أماكن اللهو والمتعة في دمشق ولبنان.

كان فواز قد درس في دمشق وأمضى بعض الأمسيات في ملاهيها. اكتشف فواز شكلًا جديدًا من أشكال الرياضة، فكان يغير بسيارته البيوك مع جوقة من عبيده السود المدججين بالسلاح، ويقومون بسرقة الإبل والماشية من عشيرة الإمارة.

أعطت حكومة الانتداب الفرنسية دعمًا لا محدود للنوري ابن شعلان، كطريقة سهلة للسيطرة على عشيرة روالا، بالضبط كما دعم البريطانيون زعماء العشائر في العراق في الفترة ١٨ – ١٩١٩. نتيجة لذلك ولد فواز مترفًا مع كمية كبيرة من المال، حيث يتوفر له كل ما يحتاج اليه. والى جانب ذلك هناك سيارات البيوك والكاديلاك مع عدد كبير من الجمال، وبين الحين والآخر يعود الى مخيمه في الصحراء لتناول الشاي.

أصبحت الصحراء السورية ممرًا عامًا، غالبًا ما تقوم السيارات والشاحنات بالمرور عبرها وكذلك الطائرات المدنية تطير ذهابًا وايابًا فوق الرؤوس. كانت شرطة الرطبة قد سجّلت كل التفاصيل التي تتعلق بالغزوات التي وقعت، كان الشيخ الشاب مهروت ابن هذّال شيخ عشيرة الإمارة قد ورث الحكمة والإعتدال عن أبيه الشيخ فهد. وكان على عشيرة الإمارة أن لا ترد الأذى، وكانت النتيجة أن فوازًا وعشيرة الروالا صاروا يعملون ما يحلو لهم. مئات الإبل قد غُنمت من قبل فواز وعبيده السود الذين يستعملون السيارات.

انتقلت عشيرة روالا الى منطقة جنوب غرب الرطبة في أثناء الشتاء، ولكنهم يعودون الى دمشق في الربيع. كان الفصل مواتيًا وقد انتقلوا الآن الى الحدود السورية، وإذا عبروا الحدود الآن فلن يتمكنوا من الإقامة حتى السنة القادمة.

المفاوضات مع حكومة الانتداب الفرنسي في سوريا لتوطين العشائر لن تنجح أبدًا. وظلت تلك المفاوضات مجرد جدل لم يفضِ الى نتائج ملموسة. كانت هناك حاجة ماسة الى عمل سريع لمنع ابن شعلان من أن يفلت بغنائمه عبر الحدود السورية.

بناءًا على ذلك قمتُ بإرسال سيارة شرطة مع رسالة الى فواز أخبرهُ فيها بأني قادم لإيقاف المشاكل بينه وبين الإمارة، وأسأله إذا كان بالإمكان مقابلته في اليوم التالي. كان مخيمه على بُعد خمسة وعشرين ميلاً تقريبًا جنوب غرب الرطبة. عاد الرسول برد مراوغ، وقد أخبرني شفهيًا بأنه حصل على انطباع بأن ابن شعلان سيتحرك مع مخيمه فجر اليوم التالي ويسير بأقصى سرعة نحو الحدود السورية أملاً أن يستطيع عبورها بعد الظهر. وتبعًا لذلك خرجتُ في اليوم التالي فجرًا قاصدًا مضارب ابن شعلان، مصطحبًا معي ست سيارات مسلحة، وقد وصلت قبل قيامهم بطي خيامهم والتحرك الى هدفهم. كانت معي قائمة بعدد الجِمال التي تُقدر بالمئات غنموها بغزوات متعددة.

إرتبك فواز، ولكن من الواضح إنه كان لا يرغب في حل شيء من المشاكل. كان يبدو ودودًا الى درجة كبيرة، ولكني افترضتُ أنه كان يظن بأنه يستطيع أن يُشاغلني بالكلام والمجادلة حتى تحين الفرصة بالإفلات عبر الحدود السورية.

نهضتُ وخرجت من الخيمة ماشيًا الى حيث سيارات الشرطة المسلحة ووقفتُ على بُعد مائة ياردة. لم يكن هناك أي جمل يبدو للعيان قرب خيمة ابن شعلان الكبيرة، كانت هناك الكثير من خيم البدو منصوبة حول الخيمة الكبيرة. كان أحد الأشخاص واقفًا في الخلف على ظهر واحدة من العربات، كان يبدو لي أنه يلمح عددًا كبيرًا من الجمال على مسافة ميلين، صعدتُ الى جانبه وشاهدتهم فعلًا، كانت مشاهدتهم من على الارض غير ممكنة. ناديت فوازًا وأخبرته بأني ذاهب لأعيد تلك الجمال واختار منها مائتين وأعيدها كإجراء أمني لحسم المشكلة، بعد ذلك يمكنه العبور الى سوريا.

أرسلت سيارات مسلحة لجلب الجمال. أحطناهم من الجوانب في تلك الصحراء الواسعة مباشرة أمام مضارب روالا.

بدا لي أنه ليس من العدل أن آخذ أول مائتين من الجمال، فإنها ربما تكون ملكًا لأشخاص محددين، من العدل أن أختار بعض الجِمال من كل قطيع، ربما يكون هذا الإجراء دونكيشوتي[1] لا يضير أحدًا أو يصيب أحدًا بالظلم والحيف، وقد يكون في هذا الإجراء حلًا للمشكلة. كنا نحيط بما يقارب ألفين من الإبل وكنا نطلب مائتين فقط لتسوية النزاع.

كان الرعاة يسيرون مع الإبل، طلبتُ منهم أن يفرّقوا الابل الى قطعان كي نأخذ قليلًا منها من كل قطيع. كان هذا يستغرق وقتًا، وكان منتصف النهار قد ولى عندما

---

(١) نسبة الى دونكي إشوت بطل القصة الشهيرة للكاتب الإسباني سيرفانتس (المترجم).

استطعنا أن نفرق تلك المجموعة الضخمة من الجمال الى قطعان. بعد ذلك أمرتُ كل راعٍ من رعيان القطيع أن يجلب قطيعه ويقف خلف القطيع الذي قبله. وكل قطيع يمر أمامنا نأخذ منه جملين أو ثلاثة ونبقيهم خلفنا، حتى جمعنا مائتين من الجمال، نأخذها الى الرطبة، ثم سمحنا لما تبقى من الجمال الألفين أن تذهب.

في هذا الوقت تجمّع حولنا عدد كبير من رجال العشائر المسلحين، كان من الواضح أن أحدهم هو الخادم الأسود للشيخ، وكان يرتدي الملابس الفاخرة المصنوعة من الحرير وقد تدجج بالسلاح، ولم يحاول أن يخفي عدوانيته. كان لدي أربعة وعشرون رجلًا. اثنا عشر منهم جالسون في السيارات المسلحة التي كانت مملوءة بالسلاح والعتاد. أما الآخرون فهم من شرطة الصحراء وكانوا يحرسون الإبل التي كنا قد صادرناها.

لمدة ساعة او اكثر جهدنا أنفسنا، بكل ما نستطيع، لنحدّ من عدوانية الجمع من رجال العشائر، وسخرية واستهزاء العبد الأسود. كان هناك قطيع واحد من الجمال المصادرة يُقدّر بثلاثين جملًا، وقد أصبحت الشمس قريبة من الأفق. وجاء قطيع آخر يتكوّن من ثلاثين جملًا تقريبًا. فجأة رأيت الرجل الأسود يسوق الجمال بعيدًا وهي الجِمال التي صادرناها، وبنفس السرعة التي صادرتُ الجمال ساق العبد تلك الجمال الثلاثين الأخرى وكأنه يقوم باللعب والتسلية، ولم يمضِ وقت حتى اكتشفت اللعبة.

عندما كنتُ طفلاً، كانت تنتابني نوبات غضب تعكر مزاجي. أتذكر جيدًا، عندما كنت طفلاً صغيراً، كنت أجلس مع أمي في بيت في الريف في (نورفولك) وكانت تزورنا أحيانًا أرملة عجوز ذات طبع ملائكي رائع. وهي صديقة قديمة لجدي ووالدي. ذات مرة في غرفة النوم تكلمت أمي معي بحدّة، وهنا انتابتني نوبة غضب وفقدتُ مزاجي، تناولت حذائي ورميت به بكل ما أوتيت من قوة على قطعة زجاج منقوشة

معلّقة فوق السرير، تحطمت قطعة الزجاج تلك وتناثرت شظايا صغيرة. شعرت أمي بالرعب والخجل العميق. ماذا ستقول للعجوز الطيبة عما حطمته في غرفة النوم؟ بعد لحظات من نوبة الغضب التي تملكتني، ذهب الغضبُ عني، وأصبحت نادمًا، وشعرت بالخجل كما شعرتْ أمي.

الآن في هذه الصحراء المغبرّة، فقدتُ مزاجي مرة أخرى وفجأة تملكني الغضب، قفزتُ الى سيارتي وقُدتها الى حيث السيارات المسلحة وناديتُ رجالي ليتبعوني، ركبوا سياراتهم وأعطيت الإشارة بالعَلَم الذي يعني (استعدوا للعمل). تحركت بالسيارة نحو تجمع رجال العشيرة، تبعتني السيارات المسلحة وصرنا بخطٍ مستقيم مواجه لهم. تحركتُ بالسيارة بين كتل الجمال الهائلة ثم توقفت في فسحة بين رجال العشائر من جهة والخيام من جهة أخرى. كانت السيارات الست ورائي. اتخذتُ مكانًا بين جمع الرجال وجمع القطعان من الجمال، أعطيت الإشارة بالعلم ان اتجهوا الى اليمين وكونوا جنبًا الى جنب. صارت قطعان الجمال أمامنا وجمع الرجال خلفنا. وهنا أطلقت بوق السيارة وتوجهت بها نحو قطعان الجمال. عرف الرجال في السيارات المسلحة ماذا يفعلون، أطلقوا أبواق سياراتهم وانطلقوا، في دقائق تفرّقت قطعان الجمال التي تقدر بألفي رأس وهربت أمامنا راكضة بأقصى سرعتها وسرعان ما تشتت في الصحراء.

بعد أن تشتت كتلة الجمال توجهنا الى كتلة الرجال فصاروا يتدافعون هاربين، البعض منهم يقفز الى الخلف. ولكنهم لو حكّموا عقولهم لقفزوا الى السيارات وسيطروا على الرجال في داخلها، ولكن مفاجأة الفعل ذهبت بعقولهم ومنعتهم من التفكير بماذا يفعلون. وبنفس المزاج جعلتني فورة غضبي أندفع بسيارتي نحو الجمع من رجال العشائر بمناورة محفوفة بالمخاطر حيث لم أكن أبالي بما سيحدث. لكن

عندما استدرنا نحو اليمين مطلقين أبواق السيارات، وبعد أن جعلنا الجمال تهرب بعيدًا أمامنا، أدرك البدو ما يحدث فنشروا الرايات الحربية وأطلقوا أهازيج القتال بعد ذلك لعلع الرصاص. أما العبيد السود فكأنما مسهم السحر، فجأة صعدوا على ظهور الجياد وانطلقوا خلفنا مطلقين الرصاص من بنادقهم. كان كل شيء مرتبكًا لفترة من الزمن بشكل مريع. العدد الضخم من الجمال وخلفهم السيارات أثارت غبارًا هائلًا غطانا تمامًا. هناك أشباح من الأشخاص، ممن يركبون الجياد يعدون خلفنا. بنادقنا الآلية فُتحت واخذت تطلق نيرانها وسط الغبار الذي يغطي كل شيء، وأخذ رجالنا يصيحون (العوجان.. العوجان.. وين العوجان).

كل شيء كان يتحرك بسرعة، نظرتُ يمينًا ويسارًا والى الامام والخلف، كانت الضوضاء تصم الآذان، والغبار يجعل رؤية ما يحدث مستحيلة، وبالكاد نشاهد البعض وهو يركب الجمال يتجمع هنا وهناك، وثيابهم تتطاير وهم يتحركون بخوف. بدأنا نخرج من الغبار ونبتعد عن المطاردين. وتدريجًا أخذنا نخفف السرعة واوقفنا أبواق السيارات. لقد أصاب الجمال الإعياء والتي ركضت كثيرًا وبسرعة كبيرة. شاهدنا من بعيد الخيام السود تتوسطها خيمة ابن شعلان الكبيرة، وعددًا كبيرًا من رجال العشيرة واقفين أمامها. تلفتنا حولنا وقد شعرنا أننا كنا في كابوس مرعب. أخذت الجمال تمشي بهدوء وكذلك سياراتنا. كان بعض الرجال قد طار غطاء رأسه نتيجة السرعة والريح الشديدة. كانوا منزعجين مما آل اليه الموقف، أخذوا يصيحون العوجان.. العوجان.. وين النشامة.

قبل أربعة أميال او خمسة ن مضارب ابن شعلان، عبرنا منطقة صُلبة ولكننا ضللنا الطريق الى الخيمة. خفّضنا السرعة ثم وقفنا فأحاطت بنا الجِمال. ترجّل نصف رجالنا من سياراتهم وصعدوا على الجمال وأخذوا يحدون بأصوات عالية كما يفعل رعاة

الإبل ثم قادوا قطيع الجمال.

سارت السيارات المسلحة بشكل قوس ليحمي بعضها البعض. نزل بعض الرجال من العربات وتسلقوا التلال ليلقوا نظرة على عجل، ويروا إن كان أحد من رجال العشائر يقتفي أثرنا فيما تتجه الجمال الى الرطبة. حلت الظلمة تدريجًا، واقتربت السيارات بعضها من بعض وهي تتبع أحد الرعاة وتسير بسرعة اربعة أميال في الساعة.

كانت التاسعة ليلًا عندما وصلنا الى الرطبة وأمامنا قطيع كبير من الجمال.

صاح أحد رجال الشرطة (سبحان الله، سبحان الله) والناس في الرطبة مندهشون، لم يشاهدوا مثل هذا الشغب في الصحراء يُقمع بهذه الطريقة العنيفة. في الواقع كنتُ أنا نفسي نصف خجلان مما حدث، كان لديّ اعتقاد دائم بأن على الرجل أن لا يفقد مزاجه، كنتُ قلقًا جدًا من فعلي الذي لم يكن محسوبًا بل كان في حالة نوبة غضب.

في اليوم التالي أرسلنا في طلب الضحايا من عشيرة الإمارة نتيجة لغزوات روالا الذين كانوا يملكون الجمال التي سرقت وجلبنا قسمًا منها.

كان فواز غاضبًا جدًا ولم يأتِ شخصيًا، ولكن ابن عمه طرّاد ابن شعلان انضم الينا في الرطبة ممثلًا لعشيرة روالا. قبل ست سنوات كنت قد عبرت الصحراء السورية بوساطة الجمل، وكان يرافقني آنذاك اثنان من البدو. وقد استقبلنا طرّاد وقام بضيافتنا في خيمته، وقام بتجهيزنا بالماء والطعام. كنا قد أعددنا قوائم بعدة نسخ بكل الغزوات التي وقعت، ونادينا على المدعين، كل حسب دوره. كل شخص يدعي أنه فقد جملًا عليه أن يؤدي القسم، وليدعم إدعاءه أمام جمهرة كبيرة من عشيرتي (روالا) و(الإمارة) وأنا وشرطة الصحراء من ضمنهم. كان البدو في تلك الأيام يحترمون القَسم ويؤمنون به. ليس هناك بالطبع ما يضمن أن البعض قد أقسم قسمًا

باطلًا. لكني لا أعتقد بأننا كنا على خطأ كبير، وعشيرة (روالا) نفسها قد حضرت كل الوقت الذي جرى فيه القسم وحيث كانت تجري العملية.

في النهاية تم توزيع سبعمائة وخمسين جملًا من جمال عشيرة (روالا) الى ضحايا الغزوات من العراقيين. وقد أُعيد مائة وخمسون جملًا مباشرة الى مالكيها الأصليين من عشيرة (روالا) ممن شهدت لهم العشيرة نفسها أنهم فقراء، وأي مالك للجمال تشهد له روالا وتُقسم بأنه مُعدم أو أنها أرملة أو شخص معوّق او لديه عائلة كبيرة سُمِح له بأن يستعيد حيواناته. بعد انتهاء الجميع من تسلّم التعويض من الجمال. أُعيدت بقية الجمال الى ابن شعلان مع نسخ من جميع القوائم.

ربما يبدو الاستيلاء على الجمال من عشيرة (روالا) للتعويض عن الجمال التي غنمت من قبل شيوخهم او من قبل الآخرين من رجال العشيرة، ربما يبدو غير عادل. لذلك فإن فوازًا مع سيارته البيوك قد صار مثالًا، للرجال الآخرون من عشيرة روالا لو اتخذوه مثلًا في تحصيل الغنائم كما يشاؤون فإن مثل هذه الطريقة ربما تكون عادلة في عُرف العشائر. العدالة الواضحة في فعلنا هي من ذلك اليوم فصاعدًا لم تقم عشيرة روالا بغزو عشيرة الإمارة قط في كل تلك الصحراء السورية المترامية الأطراف. كانت تلك المناسبة الوحيدة طوال حياتي التي أثمر فيها فقداني لمزاجي شيئًا مفيدًا. لو لم أكن قد قمتُ بما قمتُ به في أثناء ثورة غضبي تلك، لما قمت بتلك المجازفة وشاغلت عشيرة روالا بأربعة وعشرين رجلًا فقط.

حدثت غزوة واحدة فقط بنمطٍ مختلف في الصحراء السورية في منتصف شتاء ١٩٢٩ – ١٩٣٠ عندما اختلطت عدة عشائر من شرق الأردن وسوريا وسط الصحراء مع عشائر العراق، وحدثت عدة غزوات صغيرة من قبل عشائر شرق الأردن التي غنمت قطعان الماشية من العشائر العراقية. المسافة بين الرطبة وعمّان هي مائتان وثمانون

ميلًا، ومن المستحيل أن تبقى هذه المسافة الشاسعة بدون مشاكل. في الواقع، في تلك الأيام، كان شرق الأردن والعراق يعيشان في عالمين مختلفين. الصحراء السورية تبدو حدًّا مرعبًا كالمحيط الأطلسي.

الغزاة من شرق الاردن الذين يسرقون قطعان الماشية من العشائر العراقية، يكون من المناسب لهم أن يقوموا بالانسحاب مع غنيمتهم. إضافة الى ذلك، في ذلك الوقت لم تكن لحكومة شرق الأردن القدرة على السيطرة على البدو، حيث لم تكن هناك قوة شرطة في الصحراء.

خطر على بالي في الرطبة وأنا في سيارة الصحراء المسلحة بأننا يمكن أن نغتنم الفرصة لتسوية الوضع مع عشائر شرق الأردن. إذا توقفت العشائر في شرق الأردن عن غزواتها واستيلائها على الغنائم، وأخذها مئات الأميال بعيدًا عن العشائر العراقية، فعليهم أن يدركوا من الآن فصاعدًا أن اللعبة لا تستحق إشعال نيران القتال. في ضوء ذلك أرسلتُ إشارة الى بغداد من بريد الرطبة أطلب فيها الإذن بالسفر الى عمّان لأسترد قطعان الماشية التي سرقت من قبل عشائر شرق الأردن.

غادرنا الرطبة في ٢٦ / آذار / ١٩٣٠ ووصلنا عمّان ظهيرة يوم الثامن والعشرين. قبل ست سنوات عندما عبرتُ هذه الصحراء راكبًا الجمل يرافقني اثنان من البدو، أما الآن فلدي ست سيارات مسلحة.

كان الأمير عبد الله هو حاكم شرق الأردن. ابن عمه الأمير شاكر ابن زيد قد انتُدب من قبل سمّوه لإدارة شؤون عشائر البدو، ولقد استقبلني في مكتبه بالطابق العلوي في أحد المنازل في مدينة عمّان، وهي مدينة صغيرة. كنتُ قد جلبت معي قوائم تحتوي على تفاصيل الغزوات التي قامت بها العشائر من شرق الأردن، وتتضمن التواريخ والأماكن لكل غزوة، وكذلك عدد المواشي التي ادّعى الضحايا أنهم فقدوها، وقد

وضعتُ جميع القوائم أمام الأمير.

في الواقع لم أقابل في حياتي أحدًا مثل الأمير شاكر في كياسته وانسانيته وتعاطفه. كان عريض الوجه وقد خلا من اللحية او الشارب، ولكنه كان مميزًا ويمتلك خصوصية لا تنسى، وهو واحد من أبهج الوجوه التي شاهدتها. إنه يمتلك جاذبية السيد المحترم الوقور. إنه دائمًا يشعر بالراحة والطمأنينة ويضفيها على ضيفه. إنسانيته مشبعة بالحيوية ولكن بهدوء وسكينة.

إنه من طباع العرب، بالرغم من أنهم يمتلكون حسًا إنسانيًا، إلا أنهم لا يقهقهون بصوت مرتفع. هذه الصفة تبدو بشكل عام جزءًا من شخصية العربي الحقيقي. كان الأمير شاكر متميزًا، حتى بين العرب، لما يمتلكه من وقار وجلال ممزوجين بالود. مثل هذه الصفات الحميدة لا يمكن أن تصفها الكلمات.

كان يبدو أن عشيرة (سرحان) قد ساهمت بشكل كبير في سرقة الغنائم من الماشية. كانت نهاية الربيع تقترب، وقد تحركت العشائر من الصحراء الى حافات المناطق الزراعية، وهي في متناول السلطات الحكومية. القادة المسؤولون أمروا بإعادة المواشي.

صار الجو حارًا ولا يمكن معه قيادة القطعان والعودة بها عبر الصحراء، وأن الفرات يبعد خمسمائة ميل تقريبًا. تبعًا لذلك اقترحت بيع الماشية وتقسيم المبالغ المتحققة على المالكين. وافق الأمير شاكر، من فوره، على المقترح. الذي حدث هو أن ثمن الماشية في الأردن كان أكثر كثيرًا من ثمنها في العراق. وقد قمت بتوزيع المبلغ المحصَّل على أصحاب الماشية في العراق، وقد استطاعوا أن يشتروا بذلك المبلغ ماشية اكثر مما كان لديهم والتي قام الغزاة بسرقتها منهم. وفوق كل ذلك، كان الأمر كله عملًا رادعًا. بعد ذلك لم تحدث أي غزوة من شرق الأردن على العشائر العراقية في الصحراء

الوسطى.

أُعجبت حكومة شرق الأردن بشرطتنا الصحراوية والسيارات المسلحة، وبما أنهم لا يمتلكون قوة صحراوية خاصة بهم، فقد طلبوا مني أن أقوم بعمل استعراض لقواتي في منطقة مفتوحة مقابل المدرج الروماني في عمّان، ويحضر الاستعراض عدد من الرسميين بما فيهم المعتمد البريطاني الكولونيل كوكس. إن زيارتي لعمّان ستغير حياتي تغيرًا لم أكن أتوقعه.

لم يكن الموقف السياسي في بغداد هو موقف حسن كليًا، فقد خلق التمرد في سنة ١٩٢٠ وراءه مأساة سببت الاستياء والامتعاض بدل الحكمة والاعتدال والهيمنة للملك فيصل الأول. وغالبًا ما كان الخلاف ينشب بين البريطانيين والعراقيين. وفي صيف عام ١٩٢٩ أصبح عبد المحسن السعدون، وهو سليل إحدى الأُسر النافذة في المنتفك، رئيسًا للوزراء. وكان السعدون شخصًا محترماً ومحبوبًا عالميًا. ولكن الشارع السياسي ومؤامراته كانت أكبر من طاقته، وفي ١٣ تشرين الثاني وضع حدًا لحياته بالانتحار. وكان شهيدًا في خدمة العراق الجديد.

في ٣٠ حزيران ١٩٣٠ وبعد مباحثات طويلة، تم وضع المعاهدة الأنجلو - عراقية في بغداد. لقد وصل الانتداب الى المرحلة الأخيرة. صار العراق مستقلًا تمامًا، وبعد وقت قصير سيطلب أن يكون عضوًا في عصبة الأمم.

في هذه الظروف الملتبسة، كان على الحكومة العراقية أن تقلل اعتمادها على الإداريين البريطانيين بنسبة ستين في المائة. كنتُ قبل أربع سنوات فقط قد قدمتُ استقالتي من وظيفتي الاعتيادية في الجيش البريطاني مع عزمي أن أكرّس بقية حياتي لخدمة العراق. بعد أربع سنوات عندما صار عمري ثلاثًا وثلاثين سنة عليَّ أن أغير سياستي لأني من المحتمل أن أواجه إنهاء خدمتي.

في هذه الأثناء تسلمتُ شخصيًا ملاحظة من حكومة شرق الأردن تريد أخيرًا أن تضع حدًا للغزوات في الصحراء، كما هو الحال في العراق، وعليها أن تؤسس قوة للسيطرة الحكومية في الصحاري. لقد دعتني أن أنتقل الى شرق الأردن لأتسلّم المهمة.

مما لاشك فيه كان هذا نتيجة للإستعراض الصغير (للعوجان) قرب المدرج الروماني في عمّان. هذا هو العرض غير المتوقع الذي قُدِم لي حرفياً.

قبل مغادرتي للعراق دُعيتُ الى القصر الملكي في إحدى الأمسيات، وفي مراسيم بسيطة خاصة منحني الملك فيصل الأول وسام الرافدين العراقي. وفي حديثه عن العشائر في شرق الأردن، حيث حارب وعمل مع ن، ف، لورنس في أثناء الحرب العالمية الأولى. نصحني الملك أن لا أعطي البدوي مالاً (يندفع البدوي لعمل أي شيء من أجل الشرف، ولكن إذا أعطيته مالاً فإن القيم التي تربطك به ستخبو). ومن تجاربي الخاصة فإن وجهة نظر جلالته كانت تتعزز دائمًا. البدو من العرب، في هذه الأيام، في الأقل، هم أكثر المجتمعات حساسية في العالم. لذلك فإنهم يصنعون اعتباراً كبيرًا لقيم الشرف. كانوا ايضًا قادرين على أن يصبحوا عميقي التفكير بالعلاقات الشخصية، وكذلك بالولاء الشخصي. ولكن المال يشوه تمامًا معدنهم الأصيل.

غادرت العراق في كانون الأول ١٩٣٠ مع عميق أسفي، لأني تعلمت أن أحب الناس في ذلك البلد. العديد من قوة العوجان قد استقال بعد مغادرتي العراق. والتحقوا بي في عمّان عبر خمسمائة ميل من الصحراء، وانخرطوا في تأسيس الفيلق العربي لدوريات الصحراء. سنواتي في الصحراء الجنوبية في العراق أسست روابط حميمية جدًا بين عشائر الصحراء وبيني. هذه الروابط ازدادات عمقًا في المعارك وساعات الخوف، لقد واجهنا المخاطر معًا. طوال وجودي في الأردن لمدة ستة وعشرين عامًا

لم ينقطع تقاطر الرجال من عشائر ظافر وزياد وشمّر والإمارة للانخراط في خدمة الفيلق العربي. وكلّما مرّت السنين أتى مجندون متطوعون جُدد الى الأردن من تلك العشائر العراقية وهم شباب حتى لم يكونوا قد ولدوا في تلك السنين العاصفة، سنين الدويش عندما كنتُ في الصحراء الجنوبية، ولكن الإنتماء التقليدي قد انتقل من الأب الى الابن. في نهاية ١٩٥٥ – ١٩٥٦ جاء بعض الشباب للالتحاق بالفيلق العربي وقد كانوا قد ولدوا بعد عشر سنين من مغادرتي العراق ومغادرتي عشائرهم. بالنسبة لي من المستحيل أن لا أتذكر، مع تأثيري العميق، أولئك الناس الفقراء الذين يتذكرونني بعد عدة سنوات. لقد أمضيتُ عشر سنوات سعيدة جدًا في العراق. وعندما كان العراقيون يزورونني في عمّان كنتُ أداعبهم وأقول لهم إني ولدت إنجليزيًا ونشأتُ عراقيًا ونضجتُ أردنيًا. وفي النهاية فقد طُردتُ من الأردن من قبل الحكومة الأردنية، وأصبحت انجليزيًا مرة أخرى. إن الحياة مليئة بالتقلبات.

[أعيد النظر الى الوراء لسنواتي العشر في العراق، إنه من السعادة أن أتذكر بأن الغزوات التي حدثت في ١٩٢٩ – ١٩٣٠ لم تتكرر مرة أخرى، المخافر الصحراوية التي أسسناها تعمل حتى الآن. لم تتحقق كل الإصلاحات التي حلمتُ بها. تعليم البدو وتطوير نمط الحياة واستيراد سلالات أفضل من الخرفان وزرع حشائش أكثر تغذية للمواشي. ولكن في الأقل لاشيء مما عملناه كان غير نافع. لا أزال أتذكر الجلوس حول نيران المخيم، وأعتقد أن هناك رجالاً كبارًا بشعورهم البيضاء يحبونني، إنهم يقصون القصص عن وقفتنا الدفاعية عن الأرض في (العبتية) وكيف أن الدويش أرسل مبعوثه ليستجدي الرحمة في (الجوليدة). لم أعرف كم منهم على قيد الحياة، ممّن يتذكرونني فعليًا، ولكني غالبًا ما أفكر فيهم وأعيد مع نفسي الجُمل نفسها التي كانوا يقولونها عندما يتحدثون عن الأصدقاء الغائبين ((الله يذكرهم بالخير))].

المحتويات


مغامرات عربية
عشر سنوات من الخدمة الممتعة
صور قلمية وضعها ضابط المخابرات البريطانية ج. غلوب عن خدمته في العراق
في عشرينات القرن العشرين في المنطقة الغربية ومناطق الفرات الأوسط والأسفل
دار ومكتبة الأمير







السير جون غلوب المعروف بأبو حنيج وغلوب باشا



بغداد - شارع المتنبي/ ٤١٦١٩٦٣
ساحة الطيران/ ٨١٦٩١٠٧
نقـــال: ٠٧٩٠١٧٩٧٤٣٥